أمين الريحاني

ملوك العرب

أو

رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية اقسام

مزينة بالخرائط والرسوم
وفهرست اعلام

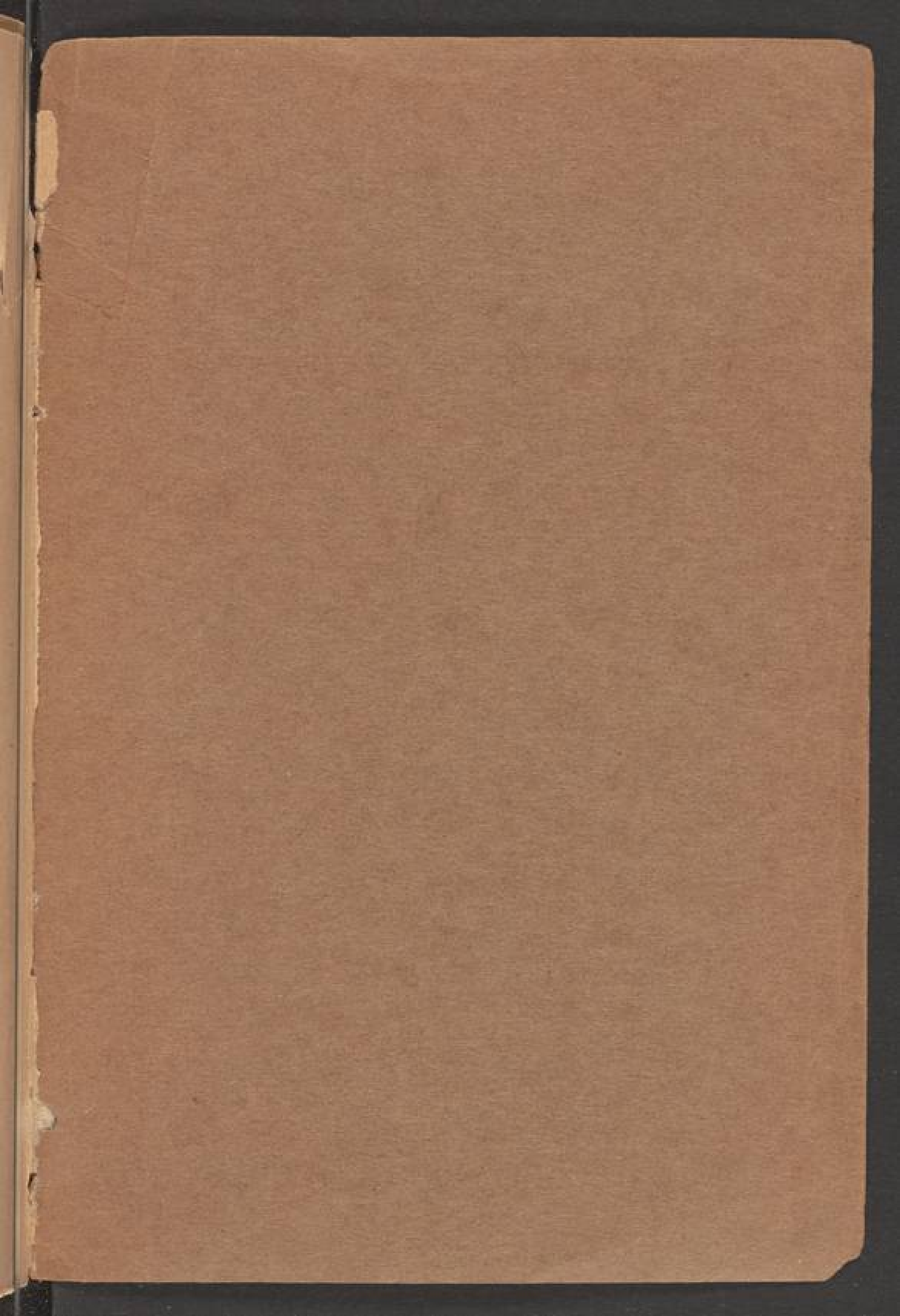
الجزء الاول

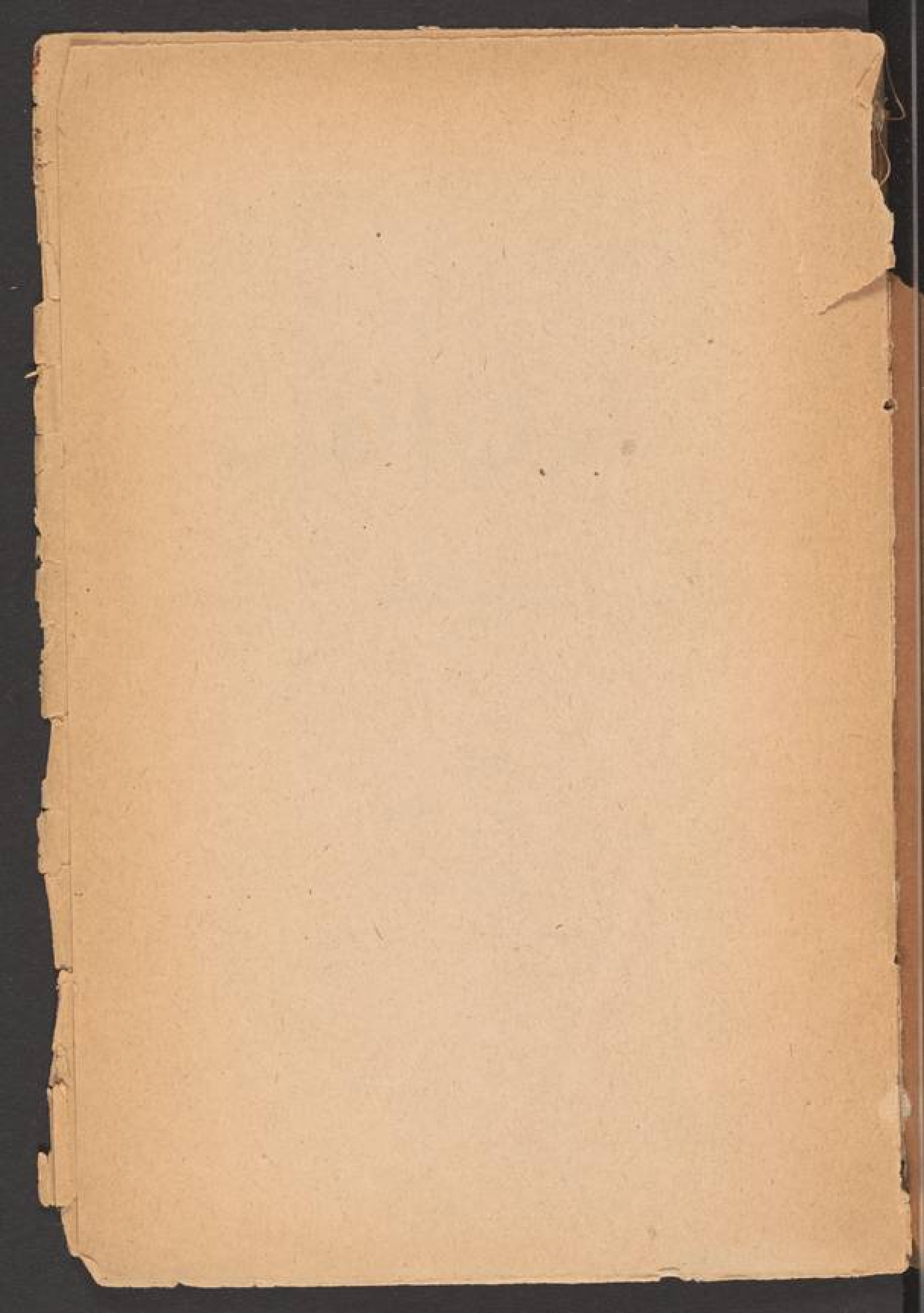
الحجاز — اليمن — عسير — لحج
والنواحي التسع المحمية

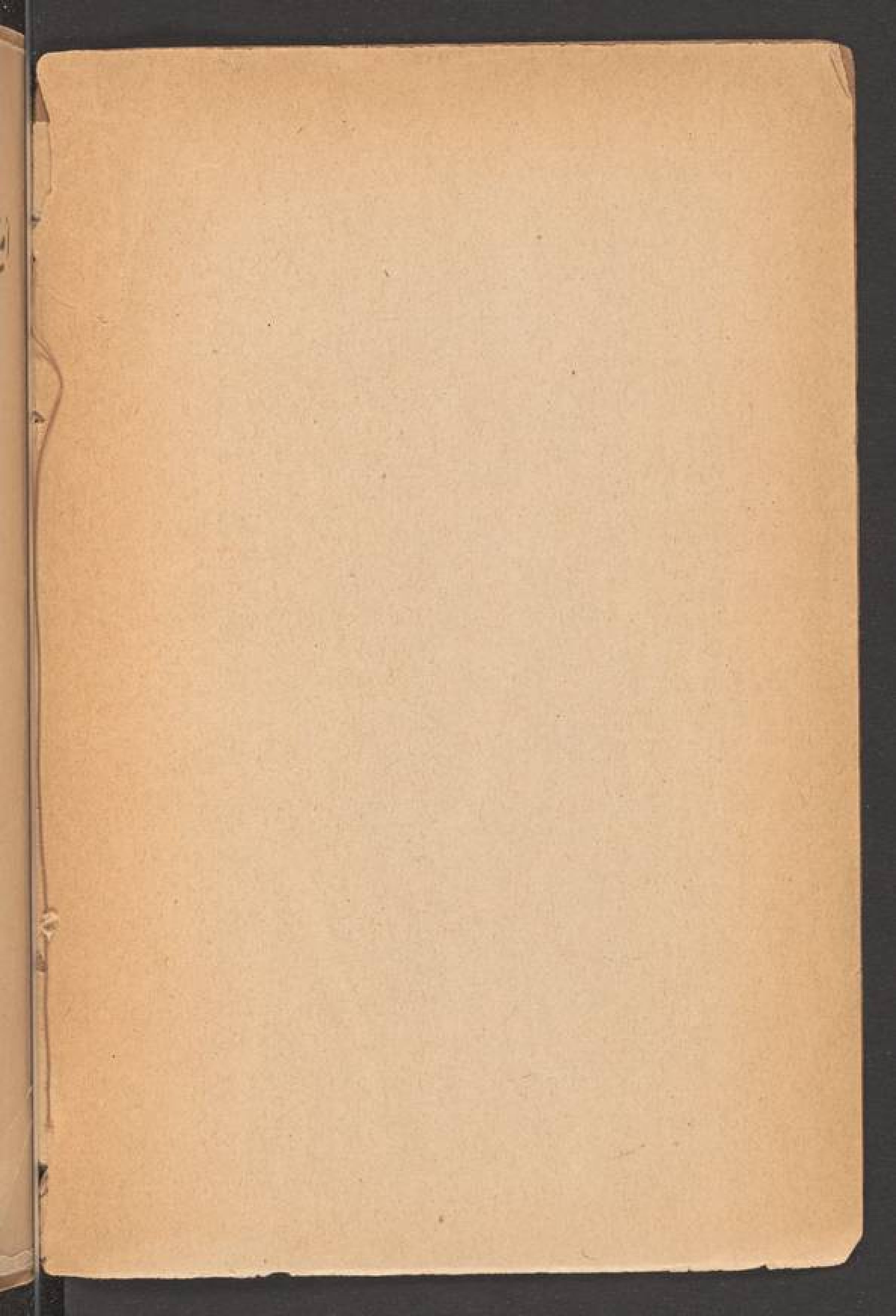
الطبعة الثالثة

اشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر ريحاني — بيروت ١٩٥١







أمين الريحاني

مُلوك العرب

أو

رِحلةٌ في البلادِ العربيّةِ تشتمِلُ على مقدّمةٍ وثمانيةِ أقسامٍ

مزينة بالخرائط والرسوم
وفهرست اعلام

الجزء الاول

الحجاز — اليمن — عسير — لحج
والنواحي التسع المحمية

الطبعة الثالثة

اشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر ريحاني — بيروت ١٩٥١

الطبعة الاولى : بيروت - ١٩٣٤
الطبعة الثانية : بيروت - ١٩٣٩
الطبعة الثالثة : بيروت - ١٩٥١

To my good friend Mr. R. White

اقدم

هذا الكتاب

للناشئة العربية الناهضة

في كل مكان

امين الريحاني

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزوّد

طرفة بن العبد

حالت الحرب العالمية الثانية دون طبع هذه الطبعة الثالثة في حينها

فهرس الجزء الاول

القسم الرابع لحج والنواحي التسع المحمية

فهرس الرسوم والخارطات

المقدمة

١

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت للمرة الاولى الى الولايات المتحدة . فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان صغارهن . هس ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام « بعبعاً » تخوف به اولادها .

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل .

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها . ولكنها معرفة مطوسة كانت المدارس تنشر اذنابها في لبنان : ان فرنسا لأعظم امم الارض ، هي اشرفها واغناها وارقاها . بل هي قطب المدنية ، وعاصمة النور والجمال — هي الطاووس بين الامم .

كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كأس التمويه . الا ان في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهاً « لبعبع » الامهات . هي كأس الجهل في الحالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب .

اما اميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الام وعن المدرسة . تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه . ومع ذلك فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الاوليان . رشفت في نيويورك الجام

تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألئ، وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركا معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبجريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان اغلب في ذاك الجهاد ، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الاداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللاً ، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك عليَّ هو لفيلسوفهم امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم[1]

وقد عرفني امرسون الى كرليل ، وكان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة

(١) « السجايا الانكليزية » English Traits by Ralph Waldo Emerson تأليف رَلف وُلدو امرسون .

الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً[1] فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب . قرأت كتاب الالهمبرا[2] فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه بل تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبينا انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم

---

(١) الابطال Heroes and Hero - Worship by Thomas Carlyle
وتأليه الابطال » تأليف طامس كرليل وقد ترجم الى اللغة العربية محمد السباعي.

(٢) الالهمبرا تأليف The Alhambra by Washington Irving
واشنطون أرفنغ .

قرأتها مترنحاً ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هـذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

٢

عدت الى اميركا استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوءة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ، وتهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية وهي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نيويورك ؟ ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء ؟

هـذا الرحالة بلغراف[1] وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذٍ بطريركاً عظيماً[2] يحدثاني عن شمّر والقصيم والعارض والرياض . وذاك المستعرب بُركهارت[3] وقد دخل الى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً تقياً . وهذا العلامة بُرتن[4] يقص قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قـد حمل الكيس — تفتا هندي شاش حرير يا بنات ! ليكشف له اسرار الحريم ثم ركب العيس ، وكان دليله ابليس ، فاقتفى اثر بُركهارت لغرض في النفس ، ونظم قصيدة

---

(١) قلب البلاد العربية وشرقها تأليف وليم بلغراف Central and Eastern Arabia by W. G. Palgrave

(٢) البطريرك الجريجيري .

(٣) سياحة في بلاد العرب تأليف جان بركهارت . Travels in Arabia by J. L. Berkhardt

(٤) الحج الى مكة والمدينة تأليف رتشرد برتن . A Pilgrimage to Al-Medina and Mecca by Richard F. Burton

كفرية كفر بها عن كل ما تيه في التلبيس .

وهذا خليل[1] الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد في بريدة ، وطرد من عنيزة ، وسُلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه . خليل النصراني ، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي . خليل النصراني الكافر ! قطوا رأسه بالسيف ! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت .

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي ، ويخاطرون بانفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ، ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويغربون في اللذيذ المفيد . وانا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الانكليزي المتغطرس باباً . اديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين . اف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث . طلقتها ثلاثاً ، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات . والادباء والادبيات .

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه ، فصفع السلطة وفرّ هارباً الى افريكة ، فحل فيها اهلاً ونزل سهلاً — سهلاً في القلوب ومنحدراً في الوادي . اقام

---

(١) التجوال في البلاد Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty العربية تأليف شارلس دوطي وقد انتحل اسم خليل .

محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان . الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين . سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا امين. الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم سادة رعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله ! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي .

فقلت : صدقت ، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي . في نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية . فهلل صديقي وقال : نسير سوية . واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود.

لكن الايام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب . تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكه ويفر هارباً من سوريا . ثم سافر الى اوروبه فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستزادها . فقالت له : عد فعاد ، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم «غرائب الغرب»[1] .

اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها . عادت بي الى نيويورك . ثم نكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها ، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً ، وقضت ، في الكثيرين ممن استبقت ، على جميل الاحلام والامال .



ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك ترعجه وان

---

(١) غرائب الغرب ، كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي ادبي . طبع في جزءين في المطبعة الرحمانية بمصر . تأليف محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بدمشق الشام .

شاخت ، فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها ويفلح في مسعاه .

رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب . وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس ، فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوءة .

اكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده الامراء الاربعة الى ساحات الوغى . وكان الناس في اميركا يعجبون بروزفلت[1] الذي قدم ثلاثة من ابنائه الى وطنه ، فقلت : ولا يصغر العربي الهاشمي اذا قابلته بالاميركي الكبير وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين اول من صورته الامال ملكاً يفتح لي بابها . وبينا انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى ، جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة .

واهم من ذلك يومئذٍ عندي خبر قرأته مدهوشاً مسروراً . جاءني الصديق بصديق آخر ، وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركا ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي والتهذيب . وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي ابعدته عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره . فجاء العزيز سركيس ، كأنه رسول العناية الي ، يبشرني بوجوده في خدمة جلالة الملك حسين .

هللت وكبرت . وتناولت القلم وكتبت تواً كتاباً الى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال ، اولها : هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟

---

(١) ثيودور روزفلت احد رؤساء الولايات المتحدة

وآخرها : هل ترافقني انت في هذه الرحلة ؟ وما مضى الشهر الاول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه ما يلي :

« اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع . . . وهو يرحب بك اذا حضرت . ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقصاه الى اقصاه ، ويعطيك المعلومات اللازمة ، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تاليف كتاب عن العرب مستوف من جميع ابوابه ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب . . . اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز . . . والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد .. واني بكل سرور ارافقك حيث شئت . . اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة . . . والسياحة تكلفك لا اقل من خمسمئة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقاريء شيء من سؤالات سألتها ولم اقف فيها عند حد من حدود التحفظ والمداراة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً عن البلاد العربية ، اذا استخبرت بكل ما ينيرني في رحلتي قبل ان اقدم عليها . ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلل النفس بتحقيق امنيتي

بعد ان اقابل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية ، ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب وما ابعدها . لا اظن ان من كان قادماً من القمر او المريخ يحلم احلاماً اغرب منها واعجب

وفي معلومات قسطنطين مما استرعى له نظر القارئ ايضاً قول جلالته : « ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها » ولكنني لم اتقيد بهذا القول لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية ، واتأكد ان « من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه » لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً كبيراً منها . وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي تأكدت بعدئذ الخطأ او التحفظ او القصد السياسي فيها . وما كان صديقي غير ناقل في اكثرها كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز . وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن مثلا وعسير بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات . وتأكد مثلي ان من يزور الحجاز فقط لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفياً من جميع ابوابه . وادرك بعد رحلتنا الاولى من جده الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر ، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولاسيا اذا تمكنت من السياحة في نجد . وما كانت زيارة الرياض وابن سعود ، والحمد لله ، بالامر المستحيل . على اني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى جلالة الملك حسين . انها لبساطة تدنو من البلاهة لان ليس فيها شيء من الخبث .

٤

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي ،

وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً فاننا اذا استثنينا الملك حسيناً وابنه الملك فيصلاً لا نجد بينهم ، او في الاقل بين الكبار منهم ، من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة ، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه .

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع ان يقول : انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدي من تقارير العارفين واخبار المتزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات المذهبية . ولا استثني من هذا القول الملك حسيناً او الامام يحيي او السلطان عبد العزيز آل سعود .

قد يكون الملك حسين اكثرهم علماً باحوال سكان البلاد من بدو وحضر ، وبمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعدواتهم وسياسة امرائهم ، لان مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلاد العربية كافة بل من اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك . وقد يعرف من احوال جاريه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينفعه في سياسته الحجازية ، ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية اريد بذلك ان علمه ، وان تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكميها ان يجند من الناس ويجمع من المال ، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما ، فلا يصل ذاك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية . ان لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثالثة لهما . صورة تجسم نبوغه فلا يكترث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها . فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التفاهم والولاء ؟

اما الامام يحيى فلا شك انه يعرف ، وهو العالم الاكبر في امراء العرب، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة . ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر . او انه لا يكترث بذلك . ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعُمان وما يليهما. ولكنه قلما يكترث اذا ذُكر اليمن في غير السياسة . فاذا حدثته عن عادات اهل ذاك القطر القديم واحوالهم الزراعية والاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فيتفكه ويستفيد .

لست مبالغاً اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها وليس في العالم اليوم ويا للاسف من يحيط علماً بالاقطار كافة وبشؤونها جمعاء ، بحكامها وقبائلها وزراعتها وصادراتها وخراجها وحروبها ، ومشايخها وامرائها ، وبكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة الانكليزية او بالحري وزارة المستعمرات فيها . فهي تصدر كتاباً عن البلاد العربية[1] مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء ، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات مرة . وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن البلاد العالم بشؤون القطر المذكور كلها . زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم وقلما يُرى خارج الدوائر الرسمية .

ولا اظن ان من وظيفة الحكومة الانكليزية او من واجباتها ، فضلاً عن ميلها ومصلحتها ، ان تعرّف ملوك العرب بعضهم الى بعض ، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها . ولا اظن ان احداً من ابناء العرب

(١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي سياسي جغرافي في البلاد العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والقناصل والسفراء لدولة بريطانيا العظمى فقط .

يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي رحلتها .

فها انا اذن في هــذا الكتاب ، ولا فخر ولا اعتذار ، اعرف سادتي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات . وليتحقق سادتي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنــة ، ولا في النقد تشيع او تحامل . انما غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين . ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام ، واثارة الاذهان .

٥

وفي هذا الكتاب من النقص ما ينبغي ان اشير اليه . كان قصدي الاول ، عندما سافرت من نيويورك ، ان اسيح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان اي مضر وربيعة .

ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت ونقحت فيه حتى اصبح يشتمل على ما في شبه الجزيرة خارج الحجاز من امارة او «شيخة» مستقلة .

اما الحجاز وان كان اصغر الاقطار الاربعة الاولى مساحة ، واقلها عداً ، فهو اهمها مركزاً ، واولها في السياسة الدولية مقاماً . وقد صار بفضل جلالة الملك محط رجال الوطنيين من العرب المجاهدين في سبيل الوحدة العربية . وقل من لا يعرف شيئاً عنه . الحجاز كتاب مفتوح . واهم ما في الكتاب اليوم ما عــدا الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين ، النهضة العربية . فقد اكتفيت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغي زيارتها كلها .

ولكني لم اتوفق الى ذلك . ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في عــدن ، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بربان البويخرة التي

سافرت فيها الى جيزان . وكانت هذه المرة تقصد مكلا ميناء حضرموت فقلت للربان : اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة . فقلت : واي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فأجاب الملاح الانكليزي : هو فصل الموت — فصل الـ« منصون »[1] .

ثم قال : وليس لمكلا ميناء ترسو فيه . وقد لا تسمح الانواء بالرسوّ في عرض البحر . وانت تعرف باخرتي ، عرفتها في هداة البحر الاحمر . . وماذا في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ .

فانتصحت آسفاً . فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت اخذته عن رجال من ذاك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة. وهذا اول نقص فيه .

اما مسقط وهو البلد الاول في شبه الجزيرة الذي دخله الاوروبيون والاميركيون[2] فلظني ان الرواية فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه . وقد اكون مخطئاً فأتوفق في المستقبل الى تلافي هذا النقص الآخر في الكتاب .

وهناك عمان وقطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوباً الى مسقط ، وفيها اربع او خمس « شيخات » مستقلة . فما عذري فيها؟ اجيب بكلمة واحدة : العجز .

---

(١) المنصون Monsoon ريح تهب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري في بحرَي الهند والعرب شرقاً لشمال فتحمل الامطار الى الهند وجنوبي اليمن . وهي ريح صرصر شبيهة بريح السموم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي والبحر العربي اشتداداً يروّع حتى الملاحين .

(٢) في ٢١ ايلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها الخصوصي ادمون رُبرتس Edmund Roberts معاهدة ولائية تجارية مع سلطان مسقط سعود بن سوَيد .

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتوياً الى حد يخشى مع الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلأت ماء فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة . وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور تلك « الشيخات » في عمان قبل ان ازور سلطان نجد في الرياض . فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت . ولكنني لا ازال اعلل النفس بما فات ، فأضيف في المستقبل ان شاء الله قسماً آخر الى الكتاب او قسمين أفي فيهما عمان ومسقط وحضرموت حقها .

بقي ذاك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة سياسة « بعد الحرب » وأمرت عليه النجل الثاني من انجال الملك حسين الامير عبدالله . فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة . قد لا تزول في عهد اميرها الاول ، وقد يكون اميرها الاول الحامل غداً لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك . اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفاً الى سمو اميرها ، والتكفير ولو مؤخراً اذا ابقانا الله واياه على مسرح الحياة .

٦

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصاً والاسلام عموماً ، والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارىء في مكانها من البحث . اما الذين لا تهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب ، واخبار الاسفار ، فقد خصصتهم بقسم مما كتبت . وقد اتخذت في ذلك اسلوباً يقرب من القارىء ما شاهدت بعيني ، وسمعت باذني ، ولمست بيدي ، فيمثله ، اذا تم القصد الفني ، حياً لديه .

وليس في الكتاب ، ادباً كان او سياسة ، وصفاً او نقداً ، الا الحقيقة

غير المجردة ، لان في التجرد ، في العري ، شيئاً من سوء الادب ، لاسيما اذا كان المجرِد والمجرَّد في الغربة . ولا ينسى القارىء عافاه الله اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سحت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احياناً غير نسيج من الشمس والغبار . فسئمت التجرد ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما البسها وكأنني بالقارىء يقول : ان في احتجاجك على العري شيئاً من الدهاء . فاعتذر اليه في ما قد يعد مكابرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعة التي يندد بها ارباب الدين على الدوام ، وتمارسها على الدوام النساء .

وما الضرر في اليسير من المساحيق والاولون ، وفي المهلهل المطرز من الكساء ؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلهل اجمل واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الى الالم والحزن . الا انها في كل حال لا تجالس التعصب ، ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها ايها القارىء العزيز مجردة كل التجرد .

وقد تجيء في بعض الاماكن ناقصة او مخطئة ، شأن كثير من الامور والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويدرك موجود ، والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد تناهى .

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما كان علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الشيء الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سوريا كانوا او في مصر واميركا ، اقول : تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى ما ابعدكم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة ، والى حقائق انستنا اياها الايام والغربة ، والى

حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب انفسهم ، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى بلاد عجيبة مهما كان فقرها ، والى شعب كريم مهما كانت آفاته ، والى امة حرة ابية مهما كانت ذنوبها . ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية اليوم روحاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان . ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان — اقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة تتخذ المدارس في خطتها فتوسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنظل دائماً حيث كنا منذ خمسين سنة ؟

اعود الى الكلمة التي افتتحت بها هذه التمهيدات . ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل ما يولد الحب والاعجاب . وأن الروح الذي يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاء الله في مسعاه . فقد بددت الايام تلك الاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامة الافرنسية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا « البعبع » في العرب .

امين الريحاني

الفريكه : لبنان

في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و٢٣ شوال سنة ١٣٤٢



جلالة الملك حسين بن علي

القسم الاول

الملك حسين بن علي

الحجاز

سنة ١٩٢٢

•

حدوده : يحده شمالاً العقبة وامارة شرقي الاردن ، وجنوباً القنفذة وجبال عسير ، وغرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف عليها وغير معروفة اليوم تماماً

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف واكثرهم من البادية

مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع

اهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والحويطات وبنو ثقيف وبنو سفيان

الاشراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش

اهم بلدانه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف . وعلى البحر : جده وينبع والوجه

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع ، والشيعة : جعفريون وزيديون

الفصل الاول

البدو والحضر

التلفون في الحجاز – عربية لا رطانة فيها – قدوم الملك – رسمه وحقيقة محياه – الديمقراطية العربية – العقال والعمامة – الحضر والتترك – تقبيل اليد والركبة – المقامات والقبلات – البدو – خشونة الحرية – التاجر والمقاتل – الملك بين الاثنين – اللغة التي يفهمها البدو – الانكليز – العرب والاسلام – السوريون في اميركا – الملك يدعوهم الى الحجاز .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطئت لاول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف الغربيون غيره من ملوك العرب . جئت من نيويورك ازوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد ، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديق لي في خدمة جلالته ، بل صديقان ، هما قسطنطين يني والشيخ فؤاد الخطيب . وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها . وكانت اولى دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بلّغ جلالة الملك بالهاتف خبر وصولي .

الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرَب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها : آلو آلو . الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .

– مركز ، اعطني مكة .

ولا انتظار ، ولا ابطاء ، ولا تسويف ، ولا مشاققة .

– مكة ، محافظ جده يتكلم . الديوان . خير . قل لجلالة الملك . . . خير . . خير . . ابشر .

ثم كلمني الحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ، لذلك لم ينزل لملاقاتكم . ولكنه يجيء اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد . ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالته . وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلمائها .

وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية ، ثم ناظر المالية ، ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صافحته مسلماً سلاماً عربياً — حي الله مولاي بالخير ولا اذكر بأية كلمة حياني . ولكني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التقشف ، فتبدو في السجاد العادي ، وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران العادية الخالية حتى من الايات ، كأنها تتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين الاجانب فقط . . ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .

من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسِّنون في بعض الاحايين صور الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . اما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبا واميركا اثناء الحرب فهو لا يشبهه ، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

وكانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً

قطوباً جافياً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محيا الملك حسين سيما جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي . ولا غرو ، وهو من بني نُمي من سلالة الرسول ، وقد اقام عشرين سنة في الاستانة . ان لحديثه اذن مصدرين من الانس والكياسة ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي .

وفي وجهه ما يفصح عن الاثنين مما غاب ويا للعجب في رسمه . فهو رقيق الاديم صافيه ، عدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت أجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فألطف من النور في عينيه . واما انامله فان فيها دليلاً افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل . وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك عن احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين . هو عقال بني نُمي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . واذا اعتمّ الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هناك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها .

جلس الملك في زاوية من الديوان واشار الى يمينه فجلست وفيّ بعض الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جده وكبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المنقذ الاكبر ، مهنئينه بقدومه السعيد . فانتهت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا ادري ايبتدىء في الحجاز الترك في

البلاد العربية ام ينتهي .

دخـل عرب المدينة ، عرب جده ، مطأطئين الرؤوس ، مكتفين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والآخر ثلاث مرات . ومنهم من قبـل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملكية . وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم . وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون .

ان التقبيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية . وكل من المقبلين والمقبَلين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يخجل من ان يعرفه سواه . اجل ، ان بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمنع عنه يده ، بوناً شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس . واذا خفي على عرب البادية ، على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكترثون بها .

يجيء البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي « يا بو علي » وهو سامد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجته لهجة الاكفاء والقرناء . قل هي لهجة ابناء القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشاً من البدو خشونة الحرية وسماجتها . ولا يتغير في الحالين ، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذاك . ايدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقـاتل . والاثنان لازمان ، فتأخذ من الاول لتعطي الثاني ، وتذل الاول احياناً لتتمكن من الاخـذ والعطاء ، ولاسيما اذا كان الثاني خشن الخلق ، صعب الشكيمة ، ويحمل فوق ذلك البندقية . والبدوي لا يفهم غير لغتين ، لغة الدينار ولغة السلاح ، بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده .

اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار . وسنعود في ما بعد الى هذا الموضوع .

— البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون . اقول: صادقون . وهم يرعون العهود .

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر ، بل فيه باب للريب فسيح . الا انه اراد كما علمت بعدئذ غمز قناة الانكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية . انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز ، قلما يصرح بفكره ، وقلما يشرّف عدوه بذكره . ولكنه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الايات ورواية الاشعار وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او ببيت من الشعر — « من اعز العرب اعز الاسلام — اعتصموا جميعاً بحبل الله ولا تفرقوا — الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه — لا نحارب الا دفاعاً عن انفسنا . اقول : دفاعاً عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة . . . وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات . حبذا السوريون لو جاءوا من اميركا واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون اقول : ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

— نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمها ، اقول : واعظمها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب . سمعتم ،

يا حضرة النجيب صوت الضمير . عدتم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكناً — اقول يا حضرة النجيب — كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع . ثم نهضوا مستأذنين ، وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فأشار جلالته تلطفاً ان اجلس . فعدت الى مكاني . ثم قال ، والاعتذار في صوته وكلامه ، صحيح فصيح : ان حياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت يا ايها العزيز ، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة . . . فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكتني باشارة من يده ، وافحمني ، بل زادني خجلاً وعياً ، اذ قال : وهلا نقطع فرسخاً لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا ؟

الفصل الثاني

من الضب الى الطب

التبادل بالمحامد والواجبات – الانكليز – دواء الغيظ – الناظر الجبان – الحشرات والدبابات – الضب – درس في علم الحيوان – اعقد من ذنب الضب – قنصل انكلترا – انتقام الملك – اضحوكته – افصح المحدثين والطف الجلساء – الغاز الديوان الهاشمي – التعقيد في السياسة – شخصية ساحرة – الباقي من قريش – بنو سعد – الطب – الكي – « وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد » – مجيء الطبيب من مكة – العلاج .

ان الملك حسيناً ليعتقد بمبدأ التبادل في المحامد والواجبات ، ان كان في السياسة او في الاجتماعيات . وعنده من الدين على ذلك براهين . لقد امرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة ، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة . هـذا هو التبادل بالمحامد والواجبات . وقد اخذ الانكليز منا عهداً في القتال فاقمنا على العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولكنهم ويا للاسف نقضوا العهود .

عندما يذكر جلالته الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغم فينادي احد نظاره ، الناظر الحضرمي ، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مفزعة يشرح لهـا صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التـأثر من غريب الحركات والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والدبابات وفي المبادهات . وبكلمة صريحة هو جبان – الجبان الاول في الديوان الهاشمي ، اما الثاني فهو الناظر الشاعر . اذ كل شاعر في رأي جلالته جبان .

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات ، ولا « بعبع » السياسات يحدث فيه ما يعـد عيباً في الرجال . انه لشديد البأس ثابت الجنان . يوم ضرب الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت

لا يبالي . اما الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والدبابات التي يؤتي بها
ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بها وبدرس اخلاقها
وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر
الحضرمي تبدد الهموم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذى يتولاه لمجرد
ذكر الانكليز .

جاءني احد عبيده ذات ليلة يقول : سيدنا يبغيك . فأسرعت اليه فاذا
بقنصل بريطانيا العظمى هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في
الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألني قائلاً : أتعرف ايها العزيز الضب ؟
فقلت : في الكتب فقط يا مولاي . فقال : سنريك الضب حتى اذا كتبت
عنه تحسن الوصف . وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد ـ هات الضب
نظرت الى القنصل وكان ينظر الي ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ،
فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار
فيها جلالته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد وبيده حيوان شبيه بالحرباء . فأخذه الملك منه ووضعه على
الديوان بينه وبيني .

— هذا يا حضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو
يربته بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو
سيفه ودرعه .

قال القنصل : انه يشبه الحرباء واظنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة
الملك فقال : الحرباء غير الضب ، والفرق البيّن في الذنب .

ثم اومأ الى القنصل ان تقدم وافحصه . فنهض ودنا من الضب ، فأخذ
الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها . فبدت في وجه القنصل
علائم الالم فضحك جلالته ، واستأنف الحديث — هذا ضب صغير يا حضرة
القنصل ، وقد رأيت منه ما يزيد طوله الباع — كأنه ضب السياسة .

والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ، وقد يقتل خصمه بضربتين. اقول: بضربتين. اما هذا الصغير فلا شر فيه يتقى ولا خير يرجى.

دخل اذ ذاك الحاجب ينبيء بقدوم الناظر الحضرمي .

فقال الملك : بلى بلى ، فيه خير (اي في الضب) وهو يواري الحيوان تحت جبته .

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ، فأشار الملك الى مجلس قريب منه . وما كاد يتبوأه حتى مُدت اليه يد الجلالة ، وصاحبها هادىء البال ، وفيها الضب ، وضعته في حجر الناظر المسكين . فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ، ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك . فقهقه الملك وكاد يستلقي ، وضحكنا كلنا ضحك الصبيان ، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً متكتفاً على عادته ، وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيدها التأدب . ولكن صيحة الناظر ووثبته فكتا منا القيود فتساوى في فترة بهيجة الملك والشاعر والعبد المملوك . الا ان جلالته كان اول من ثاب الى الرزانة فخاطب الشاعر موبخاً : لا حق لك انت بالضحك . لا حق لك حتى تركب الطيارة او في الاقل الخيل . والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثنين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب .

عندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الذ ساعة قضيتها مع جلالته . وهو في غير موضوع السياسة افصح المحدثين والطف الجلسا . فظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم وان كان مصيباً . لان كل من عالج السياسة رسمياً يتعمد الغموض احياناً في حديثه . ولكني علمت بعدئذ ما يقاسيه الوكيل البريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار عن رموزه . وخبرت بنفسي اثناء اقامتي هناك ما لجلالته من القوة في التعقيد ، والبراعة في التورية والابهام . بل هو يطوف حول نقطة سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها . فيدنو منها اطراراً في بعض الاحايين

ثم يبعد عنها منقلباً مسرعاً ، وجليسه ، وهو يعدو مبارياً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار ، يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكل الاسرار ، فيتلفت ليرى اين هو من صاحب الجلالة فيراه ، واأسفاه ! بعيداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول . والمصيبة في السكوت مثلها في النطق . فاذا قال : فهمت يا مولاي كان من المجاملين . واذا سكت ظُن سكوته استهجاناً . فيهز برأسه تخلصاً من الاثنين وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الختمة .

وطالما استمالتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بعقولي الى السر في يديه وفي ناظريه ، وكنت كالمسحور في فيض من المغناطيس يسيل من انامله ومن نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحر ينسيك شقشقات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تزري بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجنان يبسط يديه اشباعاً اذا احس من نفسه انه افحمك ، ويضعها الى صدره تلطفاً اذا توقع منك جواباً ويعالج عقاله او يحرك عمامته اذا رأى منك فتوراً او دبوراً . ويغير جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل . فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو امامك السحر الحلال مجسداً !

كنت استغنم الفرصة عند ما يفك حبوته او يعقدها فاسأله سؤالاً لا علاقة له بالموضوع ، ملتمساً لفعلتي العذر في حب العلم وفي السياحة من اجله .

— نعم ايها العزيز . الباقي من قريش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة اقسام : قريش الاعاضيد ، وقريش العَميس ، وقريش الطائف . ولا يزال بينهم وبين السلالة النبوية كثير من الحس والعطف . . . اما بنو سعد ، وهم الذين ارضعوا النبي ، فديرتهم قرب الطائف ، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة

ويتوارثونها بعضهم عن بعض ... هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى تداوى بالكي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكي .

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى واكتوى فاراني اثر الكيين، واحد في زنده الايمن والاخر في ساقه اليسرى.

– السر في مكان الكي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل بالاعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض. لذلك لا يتركون الكي مفتوحاً ليخرج منه الصديد كما يفعل غيرهم ، بل يختمونه حالاً بشيء من الملح ، اقول : بشيء من الملح ، يذرونه عليه .

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على الم فسألني عنها فأخبرته فقال : وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد . وبعد يوم وصل الطبيب من مكه . جاء بامر جلالته يداويني فسألني ثلاثة سؤالات فقط ، ولم يفحصني والحمد لله فحصاً طبياً . ثم قال : لا ينفعك الكي . سخن السمن وخذ الثوم دقه وامزجه فيه وادهن ثلاث مرات كل يوم . وستشفى باذن الله تعالى وتذكرني بالخير . قال هذا وودع وانصرف .

وها اني اذكرك يا أخا العرب ، يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك ، يا خير من قابلته في حياتي من الاطباء . وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك ، وذاك النور في ناظريك ، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك . وسأذكر كذلك انك لم تصف لي ما هو اصل علاجاتك كلها كما يفعل الاخصائيون في البلدان المتمدنة . بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء واصدق الاطباء . سأذكرك دائماً يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك ، لاني كلما ذكرتك انسى آلامي ، وهذا لعمري خير علاج وانجع دواء .

الفصل الثالث

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين – الحجاج وبئر زمزم – المياه المقدسة المعدنية – الاوبئة – قيء الماء في منى – للطاهر كل شيء طاهر – والحنفية لا تضر – القضاء على المكروب – المستشفى في مكة – تقرير مدير الصحة العام – المحجر الصحي في جزيرة ابي سعد – محجر الطور – محجر قمران – البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق – المعاهدة الانكليزية الحجازية – اسباب الصحة واسباب الاستيلاء – جوقة الموسيقى الملكية – طريقة الملك في اصلاحها – كتاب من جلالته .

ان لجلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير عون الرفيق الذي حمل مرة على الاوليا. وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم . اما جلالة الملك فهو اذا حافظ على تقاليد فيها بقية ، او ليس فيها شيء من الخير ، يسعى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطالها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند ، لشدة ايمانهم وتفجر بركان اجتهادهم ، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً ، واعتقاداً منهم انها اسرع واسلم طريق الى الجنة . فلم يقل الملك حسين ان هذا غلو بل جنون في الدين ، ولكنه امر بوضع شبك من الحديد على فم البئر فقطع بها الطريق القصيرة – المقرَّبة في لغة اهل اليمن – على المستشهدين . ولعله يقبل اقتراح احد رجاله المجنونين بالبعثات الفنية والمشاريع الاقتصادية جنون اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجاج – ماء مقدس ومعدني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستثمر ، تُستثمر في سبيل الصحة العامة . وقد باشر جلالته بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة الحجاج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليها . وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب الاول فيها . ان قني الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهمهم المكروب ، هم يدوسونه بارجلهم ، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه . للطاهر كل شيء طاهر . والملك حسين كذلك يقول هذا القول . الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة . وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل . ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية هو اسهل منه عباً او صباً .

عقد الملك النية على ان يحجب عن الحجاج وجه المياه ، فامر بان تغطى القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات ليشرب الحجاج منها . وهكذا قضى على المكروب او كاد . ثم اسس مستشفى في مكة[1] مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض . انه ليبغي سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شيء .

وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به ويلفت اليه نظر الانكليز قائلاً :

---

(١) جاء في تقرير بعث به اليَّ الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة : اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة اقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً . قسم منها لتمريض الجنود وافراد الشرطة . وقسم لتمريض الاهالي . وقسم لتمريض النساء . وقسم لتمريض الاطفال . وقد اختص المستشفى الاهلي لتمريض الفقراء المحتاجين اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر مضت فهو كما يلي :

٣٤٩٥ برسم المعاينة
٠٣٣٠ برسم المعالجة في المستشفى
٣٩١٧ تغيير القروح
٠٠٣٤ الوفيات
٠٠٢١ عمليات جراحية

ـ وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قمران وهذا محجرنا كامل الاجزاء، نظيف الزوايا والارجاء ، ولا يُظلم فيه الحجاج ولا يُغبنون ! هم ابناؤنا واخواننا ، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا .

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئة ونيف من حجاج جاوا ، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها . فعفروا — ولا استعارة — امامها وجوههم ، وقبلوا اليد والجبة والركبة والرجل الملكية ، ثم التراب ، ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل ، وان الخدامين ، وعلى رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام ردي. واثمانه غالية ، وان غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيها الحجاج ثلاثة ايام فهي نظيفة لانها خالية خاوية ، يلعب فيها الهواء على الدوام . وهذه لعمري فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

انتهى الينا يوم كنت في جده خبر البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك ان يدعوها لفحص المحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص فيه . فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وامر ناظر الخارجية ان يبعث حالاً بنبأ برقي الى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بان يدعو البعثة المذكورة لزيارة المحجر الصحي في جده وفحص اسباب التطهير والصحة فيه .

ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً . — تأمل ياحضرة النجيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير قلما يفيد ، ويأخذون راتباً في قمران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعد لتتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا مستحيل ، اقول : مستحيل .

ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس والمرحوم حداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها ، ان يكون لبريطانيا العظمى الحق في تعيين اطباء انكليز في جزيرة ابي سعد . فأبى

الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض الاطباء اطبائهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يذكر ويخشى . الا ان اساليبهم الحديثة لتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية كلها ، وقد تنحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قران في الجنوب منه . فاذا امر الملك باقفال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قران فينتفع بها ، وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح والعمران التي تقدم ذكرها .

والى القارئ مثال آخر منها . ان في مكة جوقة موسيقى ملكية امسى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة . وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وتزعج جلالته كل يوم ضعفي الثلاث المرات ، بل تكاد تخرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يُعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد اعضائها يعين الملك من يخلفه وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في دفع هذه النكبة واستئصالها .

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزمّارين فقال الملك : وما الضرر اذا نقصت زمراً ؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيماً . وانه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

اين المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا

مثلي ومن ملتي فـلا يتجاوزون في مسيرهم حدّاً[1] ولا اظنهم ينالون جزاء سعيهم اكثر مما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جده عاد الى مكة لاشغال هامة وظل معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ فؤاد ، المؤلفة من امرىء القيس والنابغة الذبياني والاخطل والمتنبي ، وكان الشيخ قسطنطين بني راعي الكاس والقرطاس فـلا يدع فرصة تفوت او كلمة من الشعر تموت .

ومع ذلك غدوت كئيباً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكو فيه الم الفراق والالم الاخر الاشد من تقليد عقيم يضطره ان يحرمني زيارة ام القرى . فكتب الي يعتذر — وتوقيعه الملكي في رأس الكتاب — عذراً لطيفاً عذباً يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته :

— عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام . بانامل الشوق والتكريم تلقيت رقيمك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة كان خجلي من بقائكم في جده هـذه المدة ومخاصكم جنى على نفسه حرمان لذاته واستفاداته من فضائلك وكرائمك ، فان مهما جسمت ضرورة اسباب هذا الحرمان لا اجده الا حجة علي . وعلى كل حال ففي كمالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان . وبيا

---

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي في الجزء الثالث صحيفة ٢٢٩ : حدّاء بالفتح ثم التشديد والف ممدودة واد فيه حصن ونخل بين مكة وجدة يسمونه اليوم حدّا . قال ابو جندب الهذلي :

بغيتهم ما بين حدّاء والحشا وأوردتهم ماء الاثيل فعاصما

متسع يحيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية التي احكم بها على نفسي الا اعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما تهتم لها فضائلكم. والله يحفظك ويمن عليَّ بتلافي ما فات عزيزي.»

فهل في مروج الذهب ورياض الجنه الطف من هذا الكلام واعذب ؟
عاد جلالته بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يراضيني به . وكفى بمجلسه رضوةً وسلواناً .

الفصل الرابع

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوك – الالقاب – الهدية – البدوي الجديد – تلميذ في البداوة – حقوق « الخوة » والحماية – الضيف السارح – الطنب السابع – رفيق الجنب – الاستنجاد – المحاكمة عند البدو – الجزاءون – المخبرون – المساوون – الطب في جوار مكة – الاوهام – الناقة التي لا ترضع ولد غيرها – حياة الاعرابي – عسل الحجاز ورمانه – شهادة الخديوي عباس وشهادة السلطان عبد الحميد – نادي الصلاة – غاياته الثلاث – اعضاؤه السبعة – جلال الدين الرومي – ناي يحن الى الغاب .

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت فانك تقبل ما يقدم لك او ترفضه ، وتطلب او تتمنى ما تشاء ، ولا رسول بينك وبين مضيفك غير رسول الادب والذوق . اما في الضيافة الملكية فالامر غير ذلك . والقاعدة الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك او ينعم به عليك .

وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة وخشونة الذوق ، هم مثل سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك فلا يحسن القول او السلوك . لذلك هم يعينون ، فوق من ينتدبون لخدمته ، رجلاً يقيم معه فيكون له رفيقاً وسميراً ، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك المزعجات .

كان صديقي قسطنطين يني هذا الرفيق والسمير والرسول ، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدثني بالالقاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميركا عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في

الموضوع . وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سركيس قبلي ، فقلت : وعسى ان لا اضطر مثله ان ارفض شرفاً هاشمياً . ان امري في يدك ياقسطنطين. تدارك النعمة قبل حلولها . فقال : والهدايا؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئني منها .

وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل اليَّ كسوة عربية وخنجراً مكياً ، وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ، الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الالقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الاعلاق لا يحوزها غير المقربين .

لبست القميص البدوية ذات الاردان ، ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ، وتمنطقت بالخنجر[1] ورحت تواً اشكر صاحب الجلالة . فلما رآني في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست من شدة التأثر بشيء غشى عيني ، فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد ، فما وجدت حتى الجيب فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء قنصل فرنسا وبعض التجار مسلّمين فانتقل جلالته الى البدو – اكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة – وحدثنا في حقوق الحماية والخوة .

– ثلاثة لهم حقوق الخوة والحماية : الضيف السارح[2] والطنب السابح[3]

---

(١) يدعى الخنجر في الحجاز قُدمية ، والقاف تلفظ جيا – جدمية – لانه يحمل من قدام ويدعى في اليمن جنبية لانه يحمل على الجنب

(٢) من كان في سفر

(٣) من دخل الديرة مستنجداً . يراد بالطنب البيت بيت الشعر ، وهو من باب تسمية الشيء بجزء منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .

ورفيق الجنب[1] واذا دخل الضيف السارح بلداً او « ديرة » يضيفه اول بيت يمر به . له الحق الاول في الضيافة . اقول : الحق الاول . فاذا تجاوزه السارح الى جاره يعدها اهانة فيطالب الجار به — مر الغريب بيتنا قبل ان يمر بيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار . . . ومن اضاف سارحاً ايها العزيز ، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرتحل . والاستنجاد ، نعم له حدود . يرفع العرب الاستنجاد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستنجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قتل عمداً بحياتين .

وللبدو طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . من تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلالته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لاثبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصمه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزّامون ، واربعة هم المساوون . ويحلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزّام : القضية كذا وكذا ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا : ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزّام يبسط الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتمدنة بل فيها ما هو اقرب للحق واضمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصمه . وما اشبه المساوين

(١) اي رفيق السفر

عند البدو باﻟ« جوري » عند الاوروبيين .

قلت ذلك لجلالته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الاوروبيين بكل فضيلة . عندنا نحن العرب بعض الفضائل وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك . ليس كل ما يجيء من اوروبا خالياً من الغش او من الشوه والشين . قد يجهل الاوروبيون اشياء نعلمها ونعلّم بها . خذ الطب مثلاً . قد شاهدت ايها العزيز اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية . وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبنا ، فتقول لهم اذ ذاك : جاءني الشفاء من جوار مكة من الله .

ثم قال : وقد يكون في ما تشكو منه بعض الوهم ايها العزيز . اقول : بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل . من النوق ، لمزاج فيهن او لعلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهنّ فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى وهذه لا ترضعه لانه ليس بولدها . فيحتال الاعرابي على الناقة ، يسلط عليها الوهم . اقول : يسلط عليها الوهم . وكيف ذلك ؟ انه يضع في حيائها خرقة مطوية او شيئاً آخر يسمونه الدُرجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياما ، فيأخذها غم كغم المخاض . ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدُرجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضعه .

وكان ينتقل جلالته من موضوع الى آخر وفي كل منهـا المستغرب من اللذة والبسيط المفيد من الحكم والامثال . وهي تتعلق ببلاد وشعب يعرفهما كما يعرف الكتاب الكريم .

— ما حرمنا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمنا كل ثمرة من خيراته . قد انزلناك بواد غير ذي زرع . هذا صحيح . ولكن الحجاز ، على فقره ، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمانه . عندما جاء الخديوي عباس حاجاً اكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين : واشهد ان لا عسل

في العالم مثل عسل الحجاز . اما الرمان ، وهو يجيء من وادي ليّه قرب الطائف ، فيصير كبيراً كالجبس (البطيخ) وهو كبير الحبة خال من البذر . اكبر والذ ما في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا اجمل رمان جاء من اجمل بقعة في ارض الله وهو يليق بالهدية . كذلك ينادي بائع الرمان : من وادي ليّه ، للهدية . نعم ايها العزيز في عسلنا ورماننا برهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب، عرب الحجاز .

وكيف ينساهم وفي جده مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله في غير مكان . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام . هو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد ، فيصلون المغرب اولاً ، ثم يبادرون الى اكرة من حديد فيتمرنون ويتبارون في رميها ، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الادب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة ، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل ، بعد الرياضة الروحية ، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها . لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله ، ولا اظن ان فريقاً من الناس غير اعضائه ، غربيين كانوا او شرقيين ، توصلوا قولاً وفعلاً الى غايات الحياة الثلاث القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معاً .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها ، ثم نذكر نعماءه في الاجسام فنسعى دائماً في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعماءه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطاً .

ان نادي الصلاة في جده هو مقاصد الحياة كلها . ويصح ان ندعوه

نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفوة الناس ، كلهم اتقياء عقلاء حكماء . وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على نقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبني شيخهم الاكبر في رمي الاكرة ، وغلبني شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الاكبر الذي يرمي الاكرة كالشاب ومن هو الاصغر ؟ اما اذا أدخلت القارىء الى النادي الفريد في قصده وبينه فينبغي لي ان اتمم العمل فاعرّفه الى الاعضاء ، وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط .

هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الاكبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بمباي وتعرفه وتحبه كل الاولاد في جده . ذاك لانه في عيد رمضان يخصهم بقسم مما كسب في الاتجار . فيجلس في ايوان داره والى جنبيه اكياس من النقود الفضية ، ريالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء وخصوصاً على الاولاد . يمرون امامه صفوفاً في ذلك اليوم وكثيراً ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبور .

وهذا اخوه الحاج عبدالله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الاكبر وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد وان عدل الحاج عبدالله في الحكم ليجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية التي انشئت في جده .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جده الاكبر وامير الكتب فيها . فان عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف لا يقتنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع بها . يجيء الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية فيعيرهم ما يشاؤون منها ويشتري ما يعرضون من مخطوط او مطبوع .

وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى مصادر الثقة في العلوم الادبية والتاريخية والفقهية.

وهــذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل يشركون بين الاثنين ، او بالحري يجعلون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون الدمقس والاستبرق ويتطيبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخمس الجنيهات يدفعونها ثمن زجاجة واحــدة من الروائح الطيبة ، ولا الخمس الصلوات يصلونها كل يوم

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وآنقهم كساء ، والطفهم مبسماً ، واقدرهم في عــد الاموال وتصريفها . اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي . وعليه دفع الكبيرة والصغيرة . فاذا شاء جلالة الملك ان ينعم احداً بمنة روبية يحيله على الطويل ، واذا شاء شراء باخرة او سرباً من الطيارات فالدفع على الطويل .

ولا نظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محــمد في علمي الادارة والاقتصاد . ولا يفوقه يقيناً في النزاهة والاخلاص

وهذا الملّا حسين الشيرازي العالم باسرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح القناديل وآلات الخياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين الرومي باللغة الفارسية فيشدو ولا شدو البلابل . فيجاوبه الحاج زينل بتلــك اللغة الفخمة الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف .

قال مولانا جلال الدين : اني عود قُطع من الشجرة وصُنع منه الناي فهو في صوته يحن دائماً الى الغاب .

واني وان كنت ضيفاً سارحاً احس باني عود قُطع من تلك الشجرة المباركة شجرة نادي الصلاة في جده ، وصُنع ناياً صغيراً . والناي يحن دائماً الى الغاب .

الفصل الخامس

قرون السياسة

الضدان والقبلتان – البعثة الفنية ونتيجة اعمالها – النقابة الوطنية – شروط الامتياز الذي طلبه النعماني – مدرسة الزراعة – المدرسة الحربية – الضغط على تجار جده – قصة الاسطول الانكليزي والاسطول الهاشمي – تعليم اولاد العرب خارج الحجاز – « سيدنا لا يأذن به » – الموسيقى وشرب الخمر – الطيارات والدبابات – يا ذي الكاس – مفزعة الحجازيين – شيخ الاسلام وبابا رومه – البدو جهل مسلح – « الهاشميات » لا تصلح شيئاً – ذوو حسن – بدو الروس – الباتوم – جاء سيدنا – شيخ حزين – « انتم من تختارون » – التساهل في المؤتمرات – فيصل ضمناً وصراحة – وزيد وعبدالله – « ان ابناءنا اعداؤنا » .

في كل كبير تجتمع الاضداد . ولكل كبير من العرب اليوم قبلتان ، قبلة الدين وقبلة الدنيا ، فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم ، ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه . يا قبلتي ساعة نلبس ، وساعة نأكل ، وساعة نركب السيارة . ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب ، كثيرة النفقات . فينبغي لنا اذاً ان نستعين عليها اما بالمعاهدات الدولية ، والقروض المالية ، واما بالبعثات الفنية والامتيازات . وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد .

منذ خمس سنوات في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني الى سوريا ليبحث له عن اخصائيين ، مهندسين واطباء . فعاد قسطنطين الى جده ومعه بعثة كاملة من الفنيين ، ابناء العرب النجباء ، المخلصين للقضية العربية ، والمخلصين كذلك للذهب الوهاج ، كما اتضح بعدئذ . جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين ، فاقاموا في الحجاز سنة ينقبون ويبحثون ، ويقيلون ،

ولكن اعمالهم لم تسفر عن شيء مفيد . ولا يعلم جلالته اليوم اكثر مما كان يعلمه قبل قدومهم . نعم ، ان في جوار الوجه نفطاً ينبع على الشاطئ من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطلقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية ذات قوة فنية تستثمر هذه المعادن ، فتخلص جلالته من ظل مخالب الشركات الاجنبية .

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الحظوة لدى جلالة الملك . وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة الممتازة[1] لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات . وقد يكون « لشركة المشاريع العامة »[2] في جده كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه .

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شيء مفيد . وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة . وقد انزلناك بارض غير ذي زرع .

---

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عملية الاستثمار وتحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسعار تبنى على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبا .
وتتكفل الشركة بانشاء خط حديدي بين جده ومكه وخط ثان بين ينبع والعلا لحساب الحكومة وذلك عند مباشرة استثمار البترول . وتسلم هذين الخطين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها فيصيران ملكاً للحكومة . ثم تستوفي الشركة قيمة ما تصرف على انشاء الخطين مع الفائدة القانونية من كامل واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة . ومتى تم استهلاك ما صرف على انشاء الخطين ، تعود اليها الاربعون بالمئة كاملة .

(٢) هي نقابة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ويدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل ان تعطي امتيازاً لاحدى الشركات .

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها . ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو ، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق وقد يستنكرون ذلك . اما اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو ، بدل ان يدفعوا لها ، راتب التعليم . وليس لجلالة الملك من الموارد الان ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة ، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكانته وقوته قبل وقعة تربه[1] وما وقعة تربه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها .

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيد اليهم ، بواسطة الجيش النظامي ، عزاً قضى « الاخوان » عليه . ولا غرو انه يخص التجار بما يستوجبه تسليح البدو . فاذا ابوا يستشيط غيظاً ويسترسل الى نزعة فيه تركية اكتسابية . قد قيل لي انه في ساعات الغضب مخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة ، بريئاً كان او مذنباً ، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته .

رسا الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جده وكان حديث الناس ، فقال احد الظرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه . ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً فوصلت الكلمة الى جلالة الملك ، فطلب الرجل الى مكة ، وأنزل السجن عند وصوله اليها ، فظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه ، ودون محاكمة . ثم جيء به الى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الاكبر ، فقرصت اليد الملكية اذن ذاك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها .

---

(١) هي وقعة تربة في البلد التي تدعى بهذا الاسم وقعت في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبدالله المنظم الذي كان محاصراً المدينة والتي لم ينج منها غير الامير وبضعة من رجاله . راجع تاريخ نجد الحديث الفصل ٢٧ صفحة ٢١٩

حدثت احد وجهاء جده في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله — لا الى اوروبا — بل الى مصر او الى سوريا ليتلقى العلوم فيها . فقال : وهذه رغبتي ولكن سيدنا لا يأذن بذلك . وقد تأكدت ان في جده غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز — في مصر او في بيروت — ولكن سيدنا لا يأذن به

الا هو الشرع ، لنعد الى الشرع والى الكتاب والسنة . وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملاً ، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن المشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان كفر كبير ، فهو من الويلات التي يحاربها المشرع الحكيم والحاكم العادل ، البعيد النظر . اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود .

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهمهم فوق كل شيء سعادة المسلمين الدائمة السرمدية . وهذه السعادة التي نص عليها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلاً لا تقوم بالموسيقى ، او بالرقص ، او بشرب الخمر ، او بكسب المال ، او بالتعلم في المدارس الاجنبية .

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمدية » بضر ، كالطيارات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كآلة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحاً ، او كمعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الاذهان ، ويفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة .

— لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ، من الانتفاع بالكمالات .

ان في جده افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين ، عالم المادة وعالم الفكر ، وخبروا الزمان ، ولم يفقدوا كنز الايمان . وهم يرون في التعلم ، حتى في مدارس الاجانب ، غير ما يراه صاحب الجلالة . ولكنهم ....

اذا قلت المحال رفعت صوتي   وان قلت اليقين أطلت همسي

وفي جده اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف ، فيطربون لصوت العود ، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسنون لعب الـ « بوكر » ولكنهم ، اذا جاء المعلم ، يتأدبون واذا غاب يلعبون. يكفي ان اقول ان في جده غير نادي الصلاة. فيها نادي الكأس ايضاً، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزن العدد المقدس اي سبعة لا يجتمعون الا مثل الفوضويين سراً . حدثني احدهم وكان الاحرى به ان يستعمل ضمير الجمع الحاضر بدل الغائب ، قال :

— عجيب يا استاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي انَّ في جده خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون. فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مسترسلًا في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم، وهو البارع الحاذق في افانين الحديث، فيغير الموضوع دون ان ينتقل منه او ان يسيء : عندما كنت في الاستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني : لا يُصلح هذا الكون الا بامرين ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصلحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيله علم مسلح .

ـ احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه الغاية .

ـ اقول لك بتجربة ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو حسن[1] الى آخر الدهر لصوصاً عصاة ، وبدو الرويس[2] لا يتغيرون ولا يصلحون . والبقوم[3] يتذبذبون وينافقون ولا يذعنون الا للقوة وانتم — صل على النبي .

بينا نحن في هذا الحديث جاء الامير زيد يُنبئني بان جلالة الوالد قادم لزيارتي . فارفضت الجلسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . فخففنا الى استقباله ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلاً من رجله يلبسه فوق حذائه ودخل فجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء الخادم بالقهوة وجاء عبد جلالته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظلٌّ في وجهه الصافي الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي الانكليز ، وفي فيصل .

---

(١) هم اشراف ذوي حسن يقيمون بين الليث وجده يقطعون الطرق براً وبحراً فيسلبون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديبهم .

(٢) بدو الرويس . مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال بين ينبع وجده .

(٣) البقوم عشيرة تسكن تربة والخرمة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي ، اشراف الحجاز ، والسلطان عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهابيون . وقد فصل السيف ، سيف نجد ، بينها في وقعة تربه .

– لا تظنني اشكو يا ايها العزيز النجيب اقول : اننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعبت الاسباب وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب. والسوريون من صميم العرب . فاذا صعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفاسد المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استثني اقرب الناس اليّ – اقول : اقرب الناس اليّ . يخونون او يخطئون – فالحجاز يتبع سوريا وانا يا حضرة الفاضل اتبع من تختارون للخدمة والزعامة. اقول : اتبع من تختارون ..

وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر جلالته يحمل حقيبة فأمر بفتحها فقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً رسمية اطلعني عليها .

– ما جئتك شاكياً يا ايها النجيب العزيز ، ولكنها العهود ، وحقوق الاب على بنيه .. ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ، لو امتثلوا لامري ، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات فتحوا للفرنسيس باب سوريا ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية .

قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضمير في « اتبعوا » « وامتثلوا » « وفتحوا » هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الى سوريا ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول . اذن هو ناقم على فيصل . وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبا الى الحجاز لم يتنزل جلالة الوالد ليلاقيه في جده كما كان يفعل سابقاً .

انها لمن المحزنات . اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف . فلو مثّل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكن الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب . ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في

سوريا ، يضيع ما قد يكون كسبه في مفاوضة الاحلاف بباريس ذلك لان السوريين كانوا اميل الى فيصل منهم الى والده لعلمهم انه عصري، رحب الصدر ، دمث الاخلاق .

فالصلابة التي تفيد في لندن وباريس لا تفيد في الشام . ومهما قيل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يعزز زعيماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت اديانها ، واشتدت من جراء ذلك النعرات والنكبات .

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويمحو اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل . وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريدته . يهز على اعدائه السيف واليراع ، ولا يهمه من الملك ما ضاع ، او ما لا يعطى منه ولا يباع فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير « ملك العرب » لقباً وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقنفذة جنوباً ، رضي امراء العرب ام لم يرضوا .

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية . ولا يلوم العربان ، وفي صدره من العربان دملة دامية . ولا يندم على ما تقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة اولاً وآخراً ، وهو لا يزال باذن الله قوياً عصياً ، مهما كان من امر « فيصلنا » و « زيدنا » وعزيزنا في شرق الاردن . قد قال بلزاك « ان ابناءنا اعداؤنا » . وما اصدقها كلمة ولاسيما على الاسر الشريفة المالكة .

الفصل السادس

بين الاستانة ومكة

اكبر ملوك العرب واضعفهم – ملك الحجاز وملك العرب – فضله الاكبر الثورة على الترك – نشر الدعوة في اوروبا – سيرة الملك حسين – اقامته في الاستانة – رجوعه الى مكة – عون الرفيق – قبر امنا حوا – في ظل الشريف عون – الرجوع الى الاستانة – عضو في مجلس شورى الدولة – امير مكة – الحال في الحجاز مدة امارته – اعلان الثورة – منشور الاستقلال – سورة البقرة – العرب غير المسلمين – الدين في النهضة – الاصلاح التركي – انتصار الترك – عبد الحميد الصغير – مكه وفروق – السجن والبسفور

ان الملك الحسين اذن لاكبر ملوك العرب سناً ، واظهرهم جلالاً ، وارفعهم من الوجهة الدينية مقاماً ، واغمضهم في السياسة مسلكاً ، واضعفهم اليوم سلطة ، واشدهم كرباً وغماً . هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية ، وملك العرب في الجريدة الرسمية ، والمنقذ الاكبر في عين اولئك الذين لا يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز . وليس من ينكر انه كان منقذاً في برهة من الزمان لا اظن التاريخ يعيدها ، او الاقدار تسمح بتمديد اسبابها ، فتمكن الملك حسين من تحقيق امال المتهوسين وآماله الوطنية ، بل احلامه الهاشمية .

ان فضله الاكبر لفي ثورته على الاتراك ، وان كانت المصلحة والمساومة فيها مرعية اكثر من المبادىء التي اعلنت من اجلها . ثم في نشره الدعوة العربية في اوروبا ، وان كان ذلك ضمناً في سبيل آل البيت الخاص . ثم في الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام .

ان في النهضة العربية مجد الملك حسين وانجاله البواسل الذين حاربوا في سبيلها ، وان في الوحدة العربية المفازات التي ضاعت فهلكت فيها كل

امالهم . ومن المسؤول في ذلك ؟ ان في سيرة الملك حسين ما يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية .

واليكها بالايجاز . هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون[1] ولد سنة ١٢٧٠ ﻫ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكه مع والده وجده ، ثم عاد والده الشريف علي الى فروق واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ ﻫ وكان في خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وُعين عضواً في مجلس شورى الدولة . فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية .

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبدالله بضع سنين وتزوج بابنته عبديه خانم[2] كان الشريف عبدالله يومئذ امير مكه . وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكسبته شيئاً من الكياسة الاسلامبولية واشياء من السياسة التركية .

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبدالله ، منهم الحسن الصالح ، الذي قتل في جده ، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته

---

(١) في ما تسمى الطبقة الرابعة ممن تولوا سدانة الكعبة ، التي تبتدأ سنة ٥٩٨ ﻫ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير نبغ في قومه فالفرع الذي اسسه في مطلع القرن الماضي في زمن ابرهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيد الذي تغلب عليه . وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعان الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نمي . ويتصل نسب ابي نمي بكبير اخر في السلالة الهاشمية هو قتادة ابن ادريس . وقتادة من ولد موسى الجون . وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول

(٢) هي ام الاميرين علي وعبدالله والملك فيصل . وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام الامير زيد .

الى الوهابية . فحمل حملته المشهورة على الاولياء ، فأمر بهدم القبور والمقامات ، وكان جهاده يذهب حتى بقبر «امنا» حواء لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون : لك ما تشاء في الاولياء ، ولكن حواء ام الناس اجمعين ، ونحن نحتج على هدم مقامها . فاقتنع الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر[1]

وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتلألأ ذكاؤه واشتد عزمه وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً ، غيوراً على قومه وبلاده ، لجوجاً متهوساً . ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى . فراب الاستانة امره ، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ هـ ليكون ضيف البادشاه واسيره مثل من تقدمه من الاشراف ، فأشرب هناك روح السيادة العالية ومبادىء السياسة التي اشتهر بها المابين .

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واسندت اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة ، فاستمر في وظيفته الى سنة ١٣٢٦هـ اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة . ثم عاد الى ام القرى اميراً عليها ،

(١) هذا المقام او القبر هو في جده ، طوله خمسة وسبعون قدماً ، وامنا حواء مدفونة فيه . وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد منها يبعد مئات الاميال عن الآخر . قد يكون قايين فر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن ، ومات ودفن هناك . فان الصيادين يدلونك على كهف عال في الجبل الى اليمين وانت سائر من النواحي الى عدن القديمة — هذا قبر قايين ! اما قبر ابوه آدم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي . فهم اي الزوار ، عندما يقفون تحت القبة المباركة امام ضريح الامام ، يسلمون قائلين : السلام عليك يا علي وعلى ضجيعيك آدم ونوح . ابونا آدم مدفون اذن مع علي في النجف ، وبين النجف وجده حيث قبر امنا حواء ما يزيد على السبعمئة ميلاً . لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير . اللهم لا تشتت هذه الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما شتت العائلة البشرية الاولى .

وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانية من الحرب العظمى عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك .

ان ما يستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام راتب باشا السوداء ، كان نهباً للناهبين ، ومحط رجال السفهاء من الاتحاديين ، فتعددت من فوضى الاحكام المظالم ، وغدا العدل شريداً ، والامن طريداً ، فكان الحجاج والمطوفون يُسلبون حتى في ظل البيت الحرام في رائعة النهار . ومع ذلك فلم يُغضب الشريف حسين اثمٌ من مآثم الترك يومئذ اكثر من خروجهم ، وهو في نظره الاثم الاكبر ، على التقاليد الاسلامية البالية . انها لعمري فضيلة فيهم يستحقون من اجلها احترام الامم المتمدنة .

اما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام . وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي اصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦ و ٥ رمضان سنة ١٣٣٤ فجاءت قسمين ، قسماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصبر جلالته ثماني سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه ، وقسماً نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة . وقد ذكر من الذنوب الاخيرة في منشور الاستقلال « مخالفة نصوص الشرائع الاسلامية » و« اهانة النبي » و« التبديل في شريعة الوراثة الشريفة » و« المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل » و« اعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و« اصدار الاحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج على اعدام الاحرار في سوريا .

ومنشور استقلال العرب هو اساس الوحدة العربية ! أفما حان لنا ، أوَ لا يحق لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمين : ماذا يهمنا من نهضة اساسها سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذاك السبيل ولتيك الاسباب الدينية ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده .

لست انكر اخلاصه في احتجاجه على ما يعتقده بدعة في سلوك الاتحاديين. الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد . قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سوريا الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سوريا ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الراقي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس في ما يجلو الحقائق مثل الايام ، ولا في ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث. ولعمري ان ملوك العرب لا يفلحون، لا يفوزون فوزاً تحسن نتائجه وتدوم ، ما زالوا يتخذون الدين وسيلة لتأييد سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهان شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرين سنة ونيفاً ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يحاربهم بسلاح هم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتنك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبا الجهاد ولم يفلحوا فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام ؟ انها لمن المحزنات . ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين اولاً فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الخيبة والفشل في سياسته كلها .

يدعونه عبد الحميد الصغير . ولعمري اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز ، لان الامور تقاس ببيآتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان

مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروق ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من اعماق البسفور . فما قول اهل جده وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذاك الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم ، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم . هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة او المعروف .

الفصل السابع

بين مكة ودوننِ استريت

رسول اللورد كتشنر – التجنيد في الحجاز – الشريف يعتزل السياسة – الاظلام في سوريا – احتجاج الشريف وجواب جمال باشا – فيصل في الشام – حيلة الشريف في الانقاذ – رجوع فيصل الى المدينة – رسل الانكليز والمفاوضات – الشروط الخمسة – التأهب للحرب – كتاب من السر ارثور مكماهون – الشريف يطلق بندقيته – اعلان الثورة – تسليم الحاميات في مكة وجده والطائف – الشريف حسين ملك الحجاز – اعتراف الاحلاف به – تهنئة الاميرال الافرنسي – كتاب من مندوب بريطانيا العظمى في مصر – السر رنجينالد ونغات .

بينا كان جلالة الملك ونجلاه الاميران عبدالله وزيد جالسين ظهر يوم من الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يبغي سيدنا . وكان الرجل رسولاً خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى الشريف حسين من مندوب بريطانيا العظمى في مصر اللورد كتشنر دعوة للانضمام الى مصاف الاحلاف . فابى يومئذ الشريف . ثم كتب اليه خلف اللورد كتشنر السر آرثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودد .

وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى المدينة ليسلم على انور وجمال عندما زارها في طلائع سنة ١٩١٦ . وقد كان نصح الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ، ولكنه بعد دخولهم عرض عليهم المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سوريا والعراق، واعطاء البلدين نوعاً من الاستقلال اي انشاء حكم لامركزي فيها . وعندما رفض الترك طلبه والحوا عليه – رغم ذلك – بالتجنيد في الحجاز راح الى قرية خارج مكة يعتزل السياسة الى حين .

ثم حدثت الفظائع في سوريا ، ورأسها شنق احرار العرب ، فاثارت غضب الشريف فكتب الى جمال باشا يحتج على اعماله القاسية ، فأجابه جمال ان يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواه وكان الامير فيصل في الشام يومئذ فخاف الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من الخطر هناك . فكتب الى جمال باشا يقول انه مهتم بالتجنيد وسيشترك العرب مع عساكر الدولة وحليفتها المانيا في الزحف على ترعة السويس اللهم اذا اسرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . فجازت الحيلة على جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة آلاف ليرة واربعة آلاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف المتردد المتودد ، فارسلوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكماً على القدس والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقاً خليج فارس ، وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض ، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبها في خليج فارس ، ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود . وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي اجرتها بريطانيا العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او من الافراد .

ثانياً : تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية

والبحرية من كل تعد، ايا كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة . وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى الى ان تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية . ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعي فيه حالة الحكومة العربية .

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها .

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق الذي تم في كانون الثاني من سنة ١٩١٦ يعد ويسوف الانكليز ويعد العدة سراً للعمل الخطير ، يتأهب للوثوب . وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتاباً يعلمه بذلك فاجابه السر آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ في ١٠ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمادي الاول ١٣٣٤ هـ) يقول :

« قد تلقينا رقيمكم المؤرخ في ١٤ ربيع الاخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الامين. وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها وترونها موافقة للاحوال الحاضرة . ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها ويسرني ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا . وستحضر الاشياء الباقية بكل

سرعة ممكنة . فتبقى في بورت سودان تحت امركم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت الينا اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذلون الجهد في اعمال السفن ليبثوا بواسطتها الالغام في البحر الاحمر ، ولالحاق الضرر بمصالحنا هناك . فنرجوكم ان تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاق الانكليزي العربي قبل ان يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، وانقطع الحجاج عن الحج ، ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون الدُخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الاعداء ، ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفد عداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ هـ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر وبيده بندقيته اطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى في جده والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في مكة وجده في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد بجنوده قلعة « اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبدالله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً في جده ، والاميران علي وفيصل ، وقد خرجا من المدينة ، يجمعان العربان ليحاصروا الترك فيها .

وقد برهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم اظهرها القتال ، وعززها الجلد في النضال ولم يمر شهر على حصار قلعة «اجياد» التي كانت تصب نارها على مكة ، وخصوصاً على قصر الامارة فيها ، والشريف في غرفته الخاصة في ذاك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت تخترق السقوف والجدران ، فلم يمر شهر حتى كلل الحصار بالنصر . سلمت « أجياد » في ٤ رمضان . ثم استولى الامير عبدالله على الطائف في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة .

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (٣١ تشرين الاول ١٩١٦ م) بويع الشريف حسين بالملك ، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى ، اي انكلترا وفرنسا وايطاليا ، ملكاً على الحجاز ، وجاء الاسطولان الانكليزي والافرنسي الى جده يحملان الى جلالة الملك تهاني تلك الدول احلافه ، فخطب في حضرته اميرال الاسطول الافرنسي ودعاه باعظم امراء العرب .

قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذاك الاطراء من الاميرال الافرنسي ولكنه لا ينسى ما خُط على الورق وما لديه من الوسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة هوذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر ردجنلد ونجت ، مؤرخ في ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و٢٧ جمادي الثانية ١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي :

« وأؤمل ان لا يبرح من بال جلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل ، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود . »

الفصل الثامن

الوحدة العربية[1]

رأس البلية فيها – معاهدة سيكس بيكو – كتاب المستر ادوارد غراي الى سفير فرانسا في لندن – بشرط ان تكون المدن الاربع ' حمص وحماه والشام وحلب ' للعرب – تنازل الملك عن جزء من سوريا – وماذا في شبه الجزيرة – قبلة العرب الفاتحين – الاهتمام بسقف البيت قبل الاساس – فضل الحسين قبل ان صار ملكاً – طموحه – عداوته لامراء العرب – الخطل في سياسته وثباته فيها – امانيه واماني ملوك العرب – الشرط الثاني من الشروط الخمسة – ' حلفاء بريطانيا العظمى – خداع وكلائها او جهلهم – سذاجة العرب – دولة سوريا هاشمية – تنازل الملك والسحابة – « لا ابقيها » .

انه ليصعب على من انعم النظر و كان منصفاً ان يقول من هو رأس البلية في القضية العربية . واذا ما بغينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع، اي موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعة اجزاء تجسمت في انكلترا وفرنسا ، ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . رأس البلية اذن تنين ذو اربعة رؤوس .

ولكن هناك عاملًا واحداً يعد من اسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل اخر . الا هو السياسة الدولية السرية . لنجتنب التعميم . ان المعاهدة السرية – التي كانت سرية – بين فرنسا وانكلترا ، اي معاهدة سيكس بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً . فبينا كان المستر ارثور مكماهون يفاوض مكة ويقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب في اخر الجزء الثاني

سيكس قد اتما عملها المشؤوم فقدا البلاد السورية الى مناطق سياسية اقتصادية ، زرقاء وحمراء وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحة البلاد مناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او دون شرط وقيد . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير فرنسا في لندن المسيو كمبون كتاباً مؤرخاً في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح الاحلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب ويكون لهم المدن السورية الاربع اي حمص وحماه وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها ، ثم تنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربع والسواحل ايضاً . ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشارفة — وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالاشغال — على ولاية الموصل . نعم ان الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء مشارفة كان ام اشغالاً . والاستيلاء يبدأ غالباً بالشروط وينتهي بالاطلاق

ايجوز ان نقول اذن انه لولا المعاهدة السرية بين فرنسا وانكلترا التي تقدمت المعاهدة بين انكلترا والشريف ، لكانت تحققت اليوم الوحدة العربية ؟ ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال ، في سوريا وفلسطين . ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة . واني في هذا القول لا انطق بغير نصف الحقيقة .

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه بسوريا وفلسطين ، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة، اذا مال بوجهه اليها ، غير الامراء الاعداء ، والقبائل المتمردة ، والصحاري

والقفار ؟ اما سوريا وفلسطين ، قبلة العرب الفاتحين ، فينبغي ان تكونا جزءاً من الحجاز او يكون الحجاز جزءاً منها. لا فرق عند الشريف. وفي ذلك الانضام تتحقق الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس؟ وليس الاساس ايها العربي الغيور في سوريا وفلسطين ، بل هو في نجد واليمن وعسير ، في الامراء الاعداء والقبائل المتمردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ، وجمع شتاتهم تحت رايته ، لكانت له سيادة تذل عندها عقبات الشمال ، وتزول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقد فشل في سوريا وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز . وانه في ثباته ومضائه ، وفي دهائه وابائه ، عندما كان يمهد السبيل الى العمل الخطير ، ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة ، من سلاح وذخيرة ومؤنة ومال، واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها ، انه ، وان كان مبدؤه المساومة ، لجدير بالاعجاب والاجلال . ولكنه بعد ان صار ملك طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكين اضمر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقاً، فان الخطل في سياسته العربية تقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجاً ، وقد انكشف الستار ولم يعد في القضية سر يستثمره الدهاء ؟ انه لوهم قديم طُلي بذهب حلم جديد ولكن الملك حسيناً اصلب ساسة الارض اليوم رأياً وايبسهم عوداً . فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي

العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهراً سيف السياسة والدهاء على اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية . ما اعظمها وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل ، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا العظمى غير رجل طماح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهم ؟ ومن من امراء العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه واخوانه في الجزيرة يعلل النفس بتحقيق تلك الاماني، اماني الشريف ، واماني الملك ، واماني المنقذ الاكبر؟ وهي كلها واحدة لا تتغير .

ولكنها لا تتفق مع اماني الآخرين . قلت انه اضمر لهم العداء في الشرط الثاني من شروطه الخمسة . فقد جاء فيه ان « لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء » تتعهد بريطانيا العظمى ان تساعده « مادة ومعنى » عليهم . ولا ريب ان ابن سعود والادريسي كانا في ذهن الملك عندما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط . ولا ريب ان معتمد بريطانيا العظمى كان يدرك ذلك لما بين الملك وابن سعود والادريسي من العداء القديم . ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيا العظمى واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجب عليها محاربتهما من اجل الملك حسين ؟

وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته معاهدة سيكس بيكو ؟ ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر . وان في تلك الشروط دليلاً على سذاجة في المنقذ الاكبر مهما كان دهاؤه السياسي . وان في قبول بريطانيا العظمى بها دليلاً على جهل في معتمدها ، او حماقة في رسلها ، او خدعة في حكومتها مهما كان من قول رجالها في برها بالوعود ومحافظتها على العهود .

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعورة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ، يريدها اولاً سورية ، وقد لا يريدها الا هاشمية. فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى فخامة نائب الملك في مصر كتاباً يقول فيه : « فمتى اضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم عليّ الانسحاب من الامر والتنازل عنه » . . . ثم قال وهو لا يزال يصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوى الاعتزال والانسحاب . . . وانها (اي بريطانيا العظمى) لا ترتاب في اني واولادي اصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم . . . ثم تعينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها لاسفر اليها في اول فرصة . »

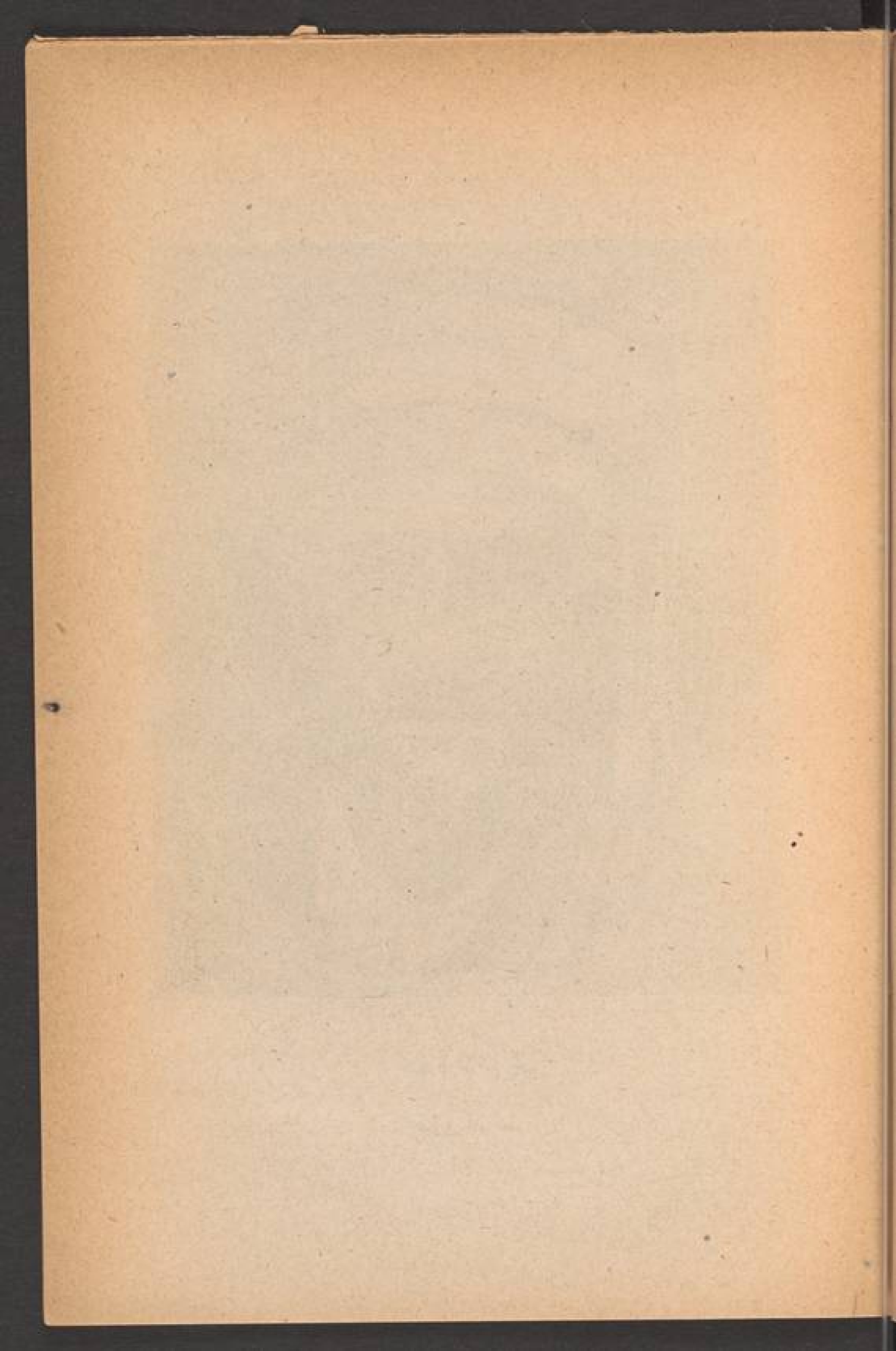
ولا تزال هـذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذاك الحين الى يوم تشرفت بمقابلته في جده ، وقد قال لي يوم ودعته . وهو يقبض على لحيته : « اني لا ابغيها (اي الزعامة) لا ابغيها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل. ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فأنسحب اذا شاؤوا واشاركهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت او متبوعاً . اقول ، يا حضرة النجيب ، تابعاً كنت او متبوعاً . »

وهـذا ما وطد فيّ يومئذ احد المقاصد من رحلتي ، فشجعني في رسالتي الوطنية العربية ، وحبب اليّ خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه وبين امراء العرب.[1]

انتهى القسم الاول

---

(١) في تاريخ نجد الحديث للمؤلف ، صفحات ٢٠٣ – ٢١٦ تتمة تاريخ الملك حسين .





حضرة الامام يحيي

تصوير المؤلف

القسم الثاني

الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الاحمر الى تعز فاويه فقعطبه. شمالاً خط يمر في بلاد خولان وبني بشر الى نجران. غرباً البحر الاحمر من الشيخ سعيـد الى ميدي وشرقاً البحر الساقي او الربع الخالي .

الويته : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعده .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون ٢٫٥٠٠٫٠٠٠

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو اسلام وبنو مطر والمكارمه .

اهم بلدانه : صنعاء وذمار ويريم وإب وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخه.

مذاهبه : الزيديَّة والاسماعيلية والسنة (شوافع) واليهود .

الفصل الاول

التبليغ في الترويع

« والله لذبحه » – « سفرك الى اليمن مستحيل » – وصولنا الى عدن – « بامر من الحاكم » – القنصل الاميركي – وكيل بريطانيا العظمى – المعري وعمر الخيام – الخطر في السفر الى اليمن – « لا يمكننا ان نحميك » الاشاعات والشبهات – سلطان لحج يرحب بنا – زيارة بقيود – الاعتراض على رفيقي « الحجازي » – الجواسيس – السياسة في الترويع – وكيل الامام يحيى في عدن – اللغة العربية في المهجر – سفير يحمل سيفاً وخنجراً – المفسدون – حبال المحنة – ومیض الامل – كتاب من دار الاعتماد – كتاب من وكيل الامام – الجاسوس الثالث .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان يبغي كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية . فسألته : من اين انت ؟ فقال : من اليمن . وكنت يومئذ في اهبة السفر الى بلاد العرب فأستأنست بالرجل وبلهجته وقلت، وانا راغب في الاستفادة: اجلس وحدثني عن بلادكم . فقال على الفور : بلادنا طيبة الهواء والماء ولكن اهلها دائماً في احتراب . فقلت : ومن يحاربون ؟ فاجاب : حاربنا الاتراك ، وحاربنا القبائل ، وحاربنا الادريسي ، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً .

– وهل الامام يحيي حاكم اليمن كله ؟

– لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد دائماً . نحب الحرية ونحارب من اجلها . نذبح اقرب الناس الينا لنكون مستقلين . نقول للامام : هذا الرجل لا نشتهيه (لا نريده) حاكماً ، ونقيم منا شيخاً علينا ونقول له : انت حاكمنا انت امامنا .

قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة : والله نذبحه .

ثم سألته ما اذا كان من اجانب في اليمن فقال : لا . وانه لا يؤذن لهم لا بالاقامة ولا بالسفر هناك .

— واذا جاءكم الاجنبي .

— والله نذبحه .

— واذا ساح متنكراً .

— اذا عرفناه فوالله نذبحه .

— اوَ ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

— اذا كان مسيحياً فهو والفرنجي سواء عند اهل اليمن . وقد يحميه لسانه او يصرف النظر عنه .

قلت واذا انكشف امره فعرفتموه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته الناعمة اللطيفة : والله نذبحه . كأنه يقول نضيفه ونكرمه .

سافرت من نيويورك وفيَّ من قصة « نذبحه » ما يضحك ويزعج معاً . ثم رُوِّعت في مصر . قلت في بيت احد الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان الاديب السوري نعوم شقير[1] حاضراً فقال على الفور : غير ممكن ، فذكرني رحمه الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد « نذبحه » . فقلت : ولماذا ؟ هل من خوف على حياتي ؟ فأجابني ثانية . مستحيل . غير ممكن . ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر .

— ومن هم اولياء الامر ؟

— الانكليز .

— وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟

(١) له تآليف ادبية وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في تأليف « تاريخ لحج »

— هم في عدن يرصدون الابواب . ما لك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج وهذا يكفي . في اليمن حرب اليوم ، والاخطار كثيرة ... زد على ذلك ...

ولم يزد شيئاً جديداً . سكت فروع ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن مستحيل . ودعاني للعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا تقول ان سفري الى صنعاء مستحيل فقبل الشرط رحمه الله وما لمسنا في تلك الليلة في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدة واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني . وخطر لي ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب تلطفاً سؤلي . فسافرنا متوكلين على الله ، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً ، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلائق بين الانكليز والملك متراخية في ذاك الحين كما اسلفت القول في الفصول الاخيرة من القسم السابق .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلاً : بامر من الحاكم . فقلت : وهل هو امر عام او انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو امر عام يا سيدي . ثم اخذ عنواننا ووعدنا بان يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دائماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطون فقدمته للقنصل الاميركي وسألته ان يطلب من الحاكم اعادة جوازي . ثم اعلمته بقصدي فصفر مدهوشاً ثم قال : وقد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك ... انصحك لا تسافر — هذا اذا اذن لك .. في البلاد حرب اليوم ، والطرق

بغير امينة ، وانا لا اقدر ان احميك .

فقلت وكاد يملكني الغيظ : اسمع يا رجل ، قد تنازلت في العاصمة وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني اليه وتقول له اني ابغي مقابلته . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير ولكني اجتمعت في النادي مساء البارح بالمعاون الاول . تعالَ نزوره الآن . فذهبنا الى دار الوكالة فاستقبلنا المعاون قائلاً للقنصل : قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت[1] وكيل بريطانيا العظمى والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهل طويل القامة طلق المحيا . صافحنا وامر بالجلوس فجلس معنا الماجر ويلي معاونه الاول . وكان القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال يخاطبني : قيل لي انك شاعر . فقلت : صدق من اخبرك . فضحك وتتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم . فذكر الجنرال عمر الخيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الخمر واللهو والغناء.. ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية . . . فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وقلت كلمة اجابة لطلبه في الفرق بين الشاعرين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الخيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبهني ، كما يفعل موظف اميركي ، في الحديث عما ابغي منه . وكان في ذلك اشبه بموظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . تطرقنا من

---

(1) Maj. Gen. T. E. Scott. C. B., C. I. E., etc.

الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : او لا تهمك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين . ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال ، هذا قنصلي وقد غسل يديه مثل بيلاطس في قديم الزمان . وانا راض بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟ . . . اني مسافر الى صنعاء يا حضرة الجنرال وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي باية حكومة من حكومات العالم . الا اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت . فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة انكلترا انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميركا بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية . فاذا كنت استطيع ان اخدم انكلترا في ما اعتقده نافعاً للعرب افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسألكم مكافأة غير الاذن بالسفر الى صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكراً وفي ما فيه مصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال : لا دخل الحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً اتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلا : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة : يظهر ان الجنرال يعرفك وسأبحث لأعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن ٠ وما كان موانياً او مبطناً . فأوقفني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين السياسي الى الامام يحيي . والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر الى صنعاء وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميركا من قبل بعض الشركات المالية ابغي امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بامري ٠ فكيف يأذنون بالسفر الى صنعاء وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ، فانما يبغونها لانفسهم .

وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحاً في البلاد ابث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان . . . سبقنا في البرق الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى ادارة الشرطة بمراقبتنا انا ورفيقي ؟

ولى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت اثناء ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد القنصل مرافقتي فقيل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك الانكليز . فكتبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من الاول مؤهلاً مرحباً ، وجاءني ورفيقي بواسطة القنصل اذن من الثاني مصحوب بكتاب يقول فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع . وان السفر بدون حرس لا يكون ، وان امر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة

الحاكم . اظنه خاف ان نسافر من لحج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس. على اننا والحق يقال بتنا والخطر الاكيد احب الينا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب الي وحذرني من اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون الماجر ريلي بعد ان يزوروك . ثم قال: ويظهر ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك. فأكدت له ان رفيقي صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، واني ارفض الاذن بالسفر اذا صدر باسمي فقط .

بعد ثلاثة اشهر اي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء سعادة الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن ، وبوزارة الخارجية الاميركية بواشنطون . ومن هو امين الريحاني ؟ وهل يؤذن له بالسفر الى صنعاء ؟

عند ما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخذت خطة اخرى فسعت بواسطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدة هو اسهل طريقاً واقل خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي فاري في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم حضرة الامام . فرفضت بتاتاً وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان يتفضل فيرفقنا بالحرس اللازم الى حدودهم اي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم. فجاءني منه جواب يقول فيه : قد كتبت الى سلطان لحج بخصوص طلبكم وسأعلمكم بما يجد .

اقف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر اخر من مصادرها الغريبة. بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحت اقصد الى وكالة اخرى سياسية. يممت

في فم البركان ، في عدن القديمة ، ومعي رفيقي قسطنطين ، بيت القاضي عبدالله العرشي وكيل حضرة الامام يحيي وسفيره الى الانكليز في عدن .
فلما وصلنا الى دار السعادة اليانية بادر الى استقبالنا عند الباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء . وفي رجله الخف ، وعلى رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقية بيضاء . هو القاضي عبدالله سفير الحضرة الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى جانب مسند القاضي عدد من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة نيويوركية اشار اليها فضيلته قائلاً : نعم الغيرة غيرة ابناء العرب في اميركا على الوطن واللغة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عند الفاظ فيها وتعابير ليست من العربية بشيء . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساتذة من العرب هناك ؟ . . . . اما هذه — واشار الى مجلة مصرية ، فاسلوبها « ناهي » (جميل) . . . ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا برقيتكم من بورت سودان وصلت هذه المجلة وفيها مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنا باللقاء . . . ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . . . يوم وصلتنا برقيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالسلك (تلغراف) حضرة الامام . ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب . . .

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابساً ثيابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في النزل . وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما عليّ يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالي وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدومه لما عرفته لاول وهلة . اين القميص والطاقية والخف

من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها. وهذا البرد اليماني المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني. وهذه العمامة العامرة الباهرة الالوان، والسيف يحمله بيده، والجنبية في زناره. هوذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها.

والغريب ان حضرة القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه. فما انعش لي املاً، ولا قال انه زار كذلك صباح ذاك اليوم الوكالة البريطانية. فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري، وانه لا يقدم على عمل لا يُستحسن في دار الوكالة، وانه يقبض منهم، لا من الامام، المشاهرة. وقال بعضهم - بئس المفسدون - انه يقبض من الاثنين، وانهم، اي الانكليز، اذا شاؤوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لقنصل اميركا، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبدالله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاخطار، فلا يستطيع ان يرفقني بالحرس اللازم، وغيرها من الاقاويل. لله منك يا عدن ما اكثر الدسائس فيك والجواسيس.

جاءني بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي «مجدداً للوعاد مؤكداً للوداد» يبشرني فيه بوصول برقية من حضرة الامام مجيباً بالايجاب. ثم قال: فاي وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الجيش في ماويه[1] واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم ويوفقكم بمن يقوم بخدمتكم وحراستكم الى السدة الشريفة. انتم منا وعلينا واجب الحب والاكرام...

وصلني هذا الكتاب وانا في لحج ضيف سمو السلطان عبدالكريم فضل انتظر الفرج من الوكالة البريطانية. وكنا، على جميل ضيافة سموه وحفاوته

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبية وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عدن

بنا ، في حالة تعددت همومها . فقد مرض اولا الرفيق قسطنطين بالحمى ومرضت انا بـ « القال والقيل » وكان داء الجدري متفشياً في البلد فخفت ان يكون قد اصيب رفيقي به . واطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم : لا تأذنوا لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن منا . فاذا تمثل القارىء تلك الحال ، وقد بقينا اسراء في القصر بلحج ، يدرك شيئاً من سروري بكتاب القاضي عبدالله العرشي .

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر . ومرت خمسة ايام حسبتها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكليز الظن . ولكني سئمت التسويف والمماطلة ، ونفرت من الاثرة في امر اربعة اخماسه بيد سواهم حقاً وعملاً . ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم . فها ان صاحب البلاد يرحب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق من ماويه الى صنعاء . والسلطان عبد الكريم ، رغم رسائل الوكالة ، يرفقنا ساعة يشاء بحرس الى حدوده . وانا ورفيقي ، وحياتنا على كفنا ، مكتفيان بهذه الضمانة .

— واذا مت يا مولاي (كان السلطان عبدالكريم يحاول تسكين خاطري) اموت والله في حبكم ، في حب العرب .

فضحك سموه وامر لي بمداعة[1] وامر كاتب سره ان يكتب الى الحاكم في عدن يقول انه مستعد ان يرفقنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه . فجاءني والحمد لله بعد يومين الكتاب التالي :

---

(١) تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واظنها تحريف مدعاة لفظاً ومعنى . ففي القاموس المدعاة تفيد الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور . وقد قال الشاعر فيها : مداعتي انيستي جليستي في وحدتي
تقول في كركرها بالله خذني باللتي

دار الوكالة . عدن . في ٥ نيسان سنة ١٩٢٢ رقم ٣٩٥

الى المستر امين الريحاني —

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل ، ولكنه رغب اليَّ ان اعلمكم بان البلاد في اضطراب ، وان في السفر فيها خطراً على المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً لديكم بان الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات المحمية .

لكم باخلاص

ب . م . رَيلي

المعاون الاول للحاكم بعدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي : قد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك . . وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا احتاجه في السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين . في بيروت وفي نيويورك . لينعيني في الاقل الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيَّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة العلمية . نعم قد كنت مزوداً بكتب التوصية من الملك حسين . وقد رأى القارىء في ما تقدم ما له من الاعتبار عند الانكليز الذين حاولوا ان يمنعوا صديقي من السفر لانه في خدمة جلالته . واما اولياء الامر من رجال الامام يحيى فسيرى القارىء ما لملك الحجاز عندهم من الاحترام .

اما الخطر وان جسمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز اليقين وخصوصاً في بلاد الحواشب ، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز ، الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي . وكانت عساكر الامام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت الى الحواشب ونكلت بهم ، فارسل الانكليز على اليانيين طيارتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا وعادوا خاسرين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب . ولذلك اطلقوا الرصاص على رجال الوفد الياني عندما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء . فماذا عسى ان يكون حظنا منهم ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية ؟

قيل لنا اننا اذا اجترنا سالمين المُسَيمير ،عاصمة السلطنة الحوشبية، نكون قد اجترنا منطقة الخطر الاكبر في طريقنا . ولكن كلمة قالها القاضي عبدالله العرشي في صفته الرسمية — اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من اجلكم — وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل . اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين ، فيطلع القارئ اولاً على اساوب المراسلة في اليمن اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالعه في مجلة عربية . قال عافاه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

امد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين .

وبعد فصدورها للسلام ، مقبلة براطن الاكف والاقدام ، وهي لكم

صحبة السيد الماجد . . . امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من المملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة للزاورة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة . وقد وجدته على جانب عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف . . . وعرفت ان لا مانع من توجهه الى حضرتكم . وكتبت في التوصية به وتسهيل سفره وحسن وفادته الى امير الجيش في ماويه ، حماها الله . وسيتضح لكم حسن نيته وما هو عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند المواجهة وربما تستفيدون منه ومن نصائحه ومعرفته بالاحوال ما يكون فيه نفع الوطن وعمرانه . وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد نوركم الله بمعرفة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه . وفي هذا كفاية . والله تعالى يصلح بكم جميع الامور والسلام عليكم .

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠ — من المملوك
عبدالله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكه معاً ينبغي ان اسجل على اولياء الامر فعلة قد يفيدهم نشر خبرها . عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها واعطته الوكالة كتاباً مختوماً ليفضه بعد ان يخرج من لحج ويعمل بموجبه .

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة . زد على ذلك انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما احتواه سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها .

الفصل الثاني

في الطريق الى صنعاء

حدود لحج – الحواشب – اجسام العرب – وادي دين – جبل وروه – حديث الولد الجندي – الخندق – ابن السلطان يلاقينا مرحباً – القصر في المسيمير – العشاء – السلطان علي بن مانع – اعداؤه واحزانه – اخلاصه للانكليز – راتبه الشهري – «عند الانكليز مال وحكمة» – صباح غير مبارك – رمي النار على رجالنا وهم يحملون – «هم يطردوننا عجلوا بالرحيل» – اطلاق البنادق والقطور – السلطانة تكرم الضيف – ماوية – الزيود – جيش الامام النظامي – السيد علي بن الوزير امير الجيش – مجلس القات – «هل انت حسني او حسيني؟» – وجاءنا الفرج في بيت من الشعر – الملك حسين واولاده .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدُكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية انكليزية من الهنود. وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن، ورسول القاضي عبدالله العرشي الى امير الجيش، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع، جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم. والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب. ليس في العالم جندي اخف منه حملاً، واشد منه بأساً. ولا اظن ان في جنود الامم المتمدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل . هاك الحوشبي مثلاً وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول، وعضلاته الشديدة المفتولة تتحرك كالاجزاء الدقيقة في آلة كهربائية، وقامته المتناسقة الاعضاء. كُسر بالعري فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بها عورته – هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يثب صاحبه، والبندقية على كتفه والامان في قلبه، كالغزال الشارد امامك.

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو

ينظر اليَّ من حين الى حين كأنه يبغي الحديث . سرنا في وادي دُبَن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيدان تشوي الضب . وكنا بدأنا في التصعيد ، فتراءى لنا خيال اسحم على الافق البعيد ، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وَرْوَه – جبل وروه – تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال . ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الابصار . وكذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه. كان يحدثني وهو ينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على بؤس حاله سامد الرأس .

– العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بالايجاب .

– وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال : سعيد باشا[1] رجل طيب. كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلط[2] كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذاك الجبل . وراءه الصبَيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الامن . الحوشي فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال . سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة يا حضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن للعباد ، وحضرة الامير – العفو – لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا

---

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب

(٢) الظلط اي النقود الذهبية والفضية

وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت امر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .

— ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

— يحكمني الان الانكليز . هل تحب الانكليز ؟

— يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— اي والله نحبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو الحوشبي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الخُندق وهي قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سَمسَرة[1] للقوافل والمسافرين . فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدومنا .

أستأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الخُندق والمسيمير بفرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً جواداً رائعاً . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في ذاك الوادي اصوات البنادق ترحيباً اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الحافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها .

---

(١) الخان في اليمن يدعى سمسرة والقهوة مقهاية

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبيه الحقول المزروعة وهي تتموج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلب المكان لينبىء بالسلم القروي ولكنه مفقود فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول ؟ سيجيب السلطان على سؤالنا هذه جنود تطلق البنادق ثانية ولاء لا عداء ، تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكأن السلطان وهو ينظر الينا ، أعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا . . .

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي[1] هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد[2] اما الاربعة فالواحد منهم فوق[3] يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والاخر تحت[4] يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزانة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك[5] لا يخاف الله . والرابع[6] عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ،

---

(١) قد توفي في عام ١٩٢٣ (٢) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسيجيء ذكرها (٣) اي امام صنعاء الامام يحيى (٤) اي عرب الصبيحة (٥) اي عرب الضالع جبران الحواشب شرقاً (٦) اي سلطان لحج

وتحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا . . لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيديا واحداً على كل جمل · والامام يأخذ مجيدين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

—وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي الي ويده على لحيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية . احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ، وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتتركهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة ·

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه عدوهم كذلك في الدين ، وفي المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان المكارون والخدم يحملون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء اخر تبعه — رأيناه يرمى من النافذة

ولم نرَ الرامي – فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا – اقول قلبي ولا اتهم رفيقي – يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم ما فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر قبل ان نفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها رأتنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها او ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

اكثر الله ايتها السلطانة من فخّارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . وكيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل . تروعين ايتها الحوشبية الالمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع

اعجابنا حتى في بلاد الزيود ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود[1] شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فأستأنسنا به ايما استئناس . كأننا عند حدود الامام عندنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندي بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم امير الجيش .

وكانت فاتحة الالطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف بنشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر مسترسلي الشعور ، اللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المساحين بالبنادق والجنبيات . وعندما وصلنا الى الباب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ، اوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في اجسامهم[2] كنت وانا اتلمس

---

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وهم وان قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع زيديون بل زيود كأنهم يريدون بذلك ان زيداً متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيود .

(٢) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم

طريقاً اتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون[1] وفي

ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عساكر الامام وكثيرين من اهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بل حداداً على الحسين . على ان الوهم في هذه العادة اصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحداد لا يتنيلون ثيابهم .

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم وافيونهم والمسكر عندهم وهم يدعونه ادمان الاوروبيين الخمر .
قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقاتا يصفو به العيش احياناً واوقاتا
ياعاذلي عن حصول القات مت كمداً لا تترك القات احياء واموانا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براك معراج قلبي حين يصعده جبريل روحي الى اعلى سماواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الاولى اي الكيف ، وشيئاً من خاصة الافيون المخدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة اخرى هو يطرب النفس ، ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن . بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل . قد تحققت بنفسي انه يورق ، ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعفوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس . ولم ينتبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً ، ويفضلونه على خبز يومهم .

كل الناس في اليمن ، من رجال ونساء واولاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون

الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل .

القات ـ يخزنون . والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً بطيئاً طويلاً كما يمضغ بعض الاميركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « اي كتلة » في الفم يجترونها . ولكنهم لا يبصقون مثل الاميركيين الا عندما تذوب التخزينة فيبصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها ان مجلس القات لا يتم بغير اباريق الماء وكووس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكووس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . اما الاغرب من ذلك فان اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكثرون من قهوة قشر البن الذي يغلونه كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على ما اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل ، ويفسد اسباب الهضم ، ويحدث مثل الافيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي (Catha edulis) وهو نبت شبيه بالبطن الا ان شجرته صغيرة ، وورقة مثل ورق العفص ، يزرعه اهل اليمن في البساتين . مثل اشجار الثمار ويبيعونه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . ثم يقطفونه اغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر ، ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الارض . ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل) فتمسي الغرفة في تلك الساعة كقهوة الحشاشين في دخانها وكربونها ، وكالاصطبل في فرشها .

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرفه اما خطأً واما تلطفاً ، الى السيد[1] امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ، فسألني قائلاً : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمدلله في بداءة الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى داروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك — اصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن امام الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او داروينيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناء ذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي — من الفشل ، من

---

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم والحضر .

الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً ولكنه سبحانه، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات، فتح علي فقلت مجيباً: انا عربي يا حضرة الامير، احترم كل المذاهب الاسلامية، واحب كل العرب، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر:

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي[1].

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة. وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا واياه الثقة والولاء. فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير: حضرته من سادات لبنان.

فبدت منه، بارك الله فيه، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين. بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين. يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية. يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين . . . الى ان قال: الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه. وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده؟ في سبيل الله؟ استغفر الله.

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز. ثم قلت وانا اتوق الى الهواء: قد يريد الامير ان يصلي المغرب. فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتنوا بامرنا. صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء. في مجالس القات تقل الترهات.

---

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً.

الفصل الثالث

اليمن الاخضر القديم

الطيارات – الفاتحة – الامام – وادي الذهب – وادي نخلان – نقيل – المحرس – نجد الاحمر – رياحين لبنان – جبل بعدان – ساحة الاستقبال – موكب الزيود – اسماعيل باسلامه عامل اب – مدينة قديمة عالية – وادي المرفد – شجر البن – نقيل سماره – ثمانية الاف قدم فوق البحر – قاع الحقل – يريم – الرهائن – ذمار – امير الجيش ابن الوزير الثاني – خطبته المدهشة – « لا فسق في البلاد ولا زنى » – والزانية – حديث الجنود وشكواهم – رفيقنا السيد محمد – الغرض من زيارتي الامام – البيوت في اليمن وعسير – الوحشية والاستقلال

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة ، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأنزلنا في الطابق الاعلى ، في غرفة سقفها واطٍ ونوافذها ضيقة صغيرة ضاق منها صدري ، فهربت الى السطح ونصبت سريري هناك .

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما فيَّ من الانقباض والاضطراب ، يحاول تسكين خاطري وتسليتي بما قصه علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل . فقلت له ، وانا احس ان الحيوان المسجون فيَّ وفي تلك القلعة يشتهي الفلاة : اننا نروم الوصول الى الحضرة الشريفة باسرع ما يمكن ونلتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك مخلًا باداب الضيافة ، ان يسهل امرنا فنسافر في الغد . فوعدنا خيراً .

ثم جاءنا بعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل الينا هدية من القات . فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وتناقش واياهم في موضوع الطيارات . نقرأ عليها الفاتحة فتسقط كالطير المذبوح الى الارض . وأفحم القسطنطين ، وبادر الى القات يكتشف فيه اليقين . اما انا فاعتصمت

بالسطح ابغي العزلة والهواء ، فصحبني ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان ، فشكا اليَّ اموراً واسرَّ اخرى : لا شك ان حضرة الامام رجل كبير قدير ، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة ، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ، فقد استنزل على جنوده هول طياراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ، ولا يعزل الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطيارات وبما عدَّده الشافعي من سيئات حكم الامام . فحلمت حلماً غريباً عجيباً ما ذكرت منه عندما استفقت غير اني كنت والامام يحيى نطير في طيارة صنعت في انكلترا ، وكُتبت على جناحيها فاتحة القرآن ، ونقشت على الواحها سورة التوحيد . فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طيارة المؤمنين ؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطيارات ، مصحوبين بحرس من جنود الامير المنيَّلة اثوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم . فتهنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليَّ الاحلام ، وانا على ظهر الدابة شطران ، شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يا مقدم ، فيخيل اليَّ اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح تتكلم كالعرب .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح ، فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم . فنام رفقاني في كن صغير لا يليق في بلاد الله بغير المواشي — ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل اليمن — ونمت انا في الفلاة على سطح ذاك الكن ، ساعتين لا غير . ثم نهضنا

قبل الطيور نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس وسرنا في ارض خضراء تفوح من ادغالها روائح النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم . فهو من اجمل الاودية واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة . رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان[1] ثم اجتزنا وادي نخلان وفيه رأينا لاول مرة سلك التلغراف الذي يوصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من الوادي في نقيل[2] المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضراء والجرداء دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء صخورها تعلو اربعة الاف قدم عن البحر ، فجف الهواء ، وبرد الماء ، وتعددت حولنا النباتات والرياحين التي ذكرني بعضها بلبنان فهوذا البيلسان وذاك اليانسون، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى اعلى درجات نقيل المحرس تراءى لنا منها جبل بُعدان ووراءه جبل حَب اعلى وابعد منه ، وانكشف امامنا مشهد اخر من السهول والهضاب ، في وسطها ، عند منحدر من جبل بعدان ، مدينة اب القديمة . التي تتساوى في علوها ووادي نخلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال . هناك يترجل المسافر اذا كان معروفاً وينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر يبني . العامل بقدومنا ، فبتنا ننتظر « استقبالاً يليق بنا » كما قال رفيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي .

---

(١) من مزروعات اليمن الحنطة والشعير والذره والدخن والعدس والبطاطس والورس والحلبة والقات

(٢) النقيل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية .

وما عتمت ان تحركت الجموع وخرجت من المدينة ، فشاهدنا عسكراً زاحفاً الينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول . جاء العامل اسماعيل باسلامه بخيله ورجله ، وبجنده وجمعه ، وبنوبته واهازيجه ، يستقبلنا ويرحب بنا باسم الامام. وبعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذاك الجمع المثيل المهلل نحسب انفسنا في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجان ، والجنود مسترسلو الشعور ، مكحلو العيون ، المزينة عمائمهم بالورد والريحان ، حولنا وامامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب :

يا من يخالف امر مولانا ويعصيه لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يرسي في سماه

دخلنا المدينة دخول الفاتحين ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت العامل اسماعيل ، المشهور في بلاد اليمن ، اعلاها واسفلها ، بكرمه وفضله وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته ومثلما اسرعنا من ماويه ابطأنا في اب ، بلا حياء في الحالين . فجاءنا ونحن هناك برقية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون لفراقنا فأخجلنا وعاد بنا الى ما كدنا ننساه من التأدب في الغربة . على ان التأدب في المشقات اجتهاد يزيد المرء بلاء ، والخجل في السياحة ولاسيا في البلاد العربية ، يمرض ويميت.

من حسنات اسماعيل بك باسلامه انه لا يخطب في ضيوفه ، ولا يفاخر بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادىء الخاطر ، وديع النفس ، غني كريم ، يحبه كل من يشتغل في ارضه ، كما يحبه كل من في حكمه . وهو يخلص الى الامام اخلاصاً لا يشك الامام به ، ولا يخشى من تقلبه . انه العامل الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة[1] منه .

(١) سمعت بالرهائن في لحج فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت انكر صحة ما سمعت . الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامام

وقد يكون السبب في تساهله ورحابة صدره انه سني حضرمي. وقد تكون هذه الخلال من فطرته وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذى خصوصاً في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هو شافعي ، واول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على اني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار، يظل في فضائله الجمة قريباً من الله والناس .

جاءنا صباح اليوم التالي يسلم علينا وبيده طاقة من ورد نيسان قدمها لي. وزرت واياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار انواعها ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فرأينا الزيتون ، والموز ، والعَمب ، والعنب ، والتفاح والرمان زاهية كلها زاهرة ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل، لان تلك البقعة من الارض تعلو خمسة الاف قدم عن البحر ولا تبعد اكثر من عشر درجات عن خط الاستواء . فتستوي فيها لذلك حرارة الهواء والتربة .

اما مدينة إبّ فمسوَّرة ، وهي وسخة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تُستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء ، ولا نقطة ولا حبة من الدواء . ويكثر فيها الجدري والحمى واكل القات . اننا

يحيي يتقاضى كل موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهينة واحدة ، ابناً او اخاً او نسيباً عزيزاً ، يبقيه في حوزته كفالة الاخلاص والاستقامة في الخدمة ، وضمانة الصدق والوفاء في التابعية . وهؤلاء الرهائن – عند الامام على ما قيل اربعة الاف منهم – يقيمون في المدن المختلفة كل بعيد عن اهله ومسقط رأسه . فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض وتمنح الاخرين ، بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيها .

كلما صعّدنا في اليمن لترى « التخزين » في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر لاسيما في الاولاد. فان وفيات الاطفال في اليمن كثيرة، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً اكثر من سبعة او عشرة اولاد . واظهر ما فيهم النحول ، والشحوب ، وضعف الاعصاب .

قلت ان اب جميلة من بعيد ، فالقادم اليها من ماوية او تعز يراها في السهل وحوله الربى كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر، مفروش في بحيرة جفت مياهها . والقادم اليها من يريم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مَرج او كبرج في جزيرة. ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال. مشى معنا اليها اسماعيل بك ومعيته ، وارفقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي . فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى ان يزاد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء .

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفد الذي يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً، وشاهدنا فيه لاول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه وزهره الليمون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب . وبساتين غضة من العنب والموز، تجري في ظلالها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره . وبدأنا بعد الظهر نصعد في نقيل ذاك الجبل، وهو اعلى نقيل في اليمن، فوصلنا الى وسطه عند الغروب، وبتنا تلك الليلة في قرية تدعى المَنزل، خبزها دون واهلها اشعبيون.

ولما صلنا الى رأس النقيل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة، والهواء، على حمو الشمس ، بارداً ، فشعرت بالبرد لاول مرة في اليمن ولا غرو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيب في لبنان. ومن تلك الذروة الهائلة، المدهشة المنعشة ، رأينا منبسطاً امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منه ظفار[1] التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها.

(١) ولا يزال في ظفار اثار حميرية رأينا من شكلها الحلي الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان وبينون وسلحين .

ان ذاك القاع في مزروعاته المتنوعة ، وبقاعه المحصودة ، لشبيه بطنافس خضراء وصفراء وبيضاء وسمراء تملأ العين بهجة والنفس سروراً . نزلنا اليه وسرنا معجبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء .

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مَرْيَمه في عهد حِمْيَر فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . وكيف لا وقد خرج لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون ويهللون مرحبين . ما فهمت من النشيد غير كلمة الله والمسلمين ، والمجاهد الامين . ولكني علمت ان الاولاد هم من الرهائن عند الامام . انه لحكم عسكري قاس شديد ، بل حكم اشتباه وارتياب . فلا عجب اذا اخلص العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولد عنده او اخ او نسيب عزيز .

سألنا في سمسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال صاحب السمسرة : لا غنم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شبابنا في عسكر الامام ، واولادنا هاربون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ، السيد عبدالله ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل حضرة الامام بلاد الحق والعدل والدين والصدق والوفاء . الحكم الكامل العادل تراه عندنا في اليمن ، فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ، ولا رباء ولا رشوة ولا اغتصاب . كل ذلك لاننا محافظون على ديننا ، عاملون بكتاب الله ، مجاهدون في سبيله تعالى ... ثم قال : نحن نقول ونفعل ، وغيرنا يقولون ولا يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب كذابون ساقطون ، يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن حاربنا الاتراك مراراً ، وجاهدنا الكفار الخونة في تهامة ، وسنحارب كل

من يحاول اختلاس فترٍ من ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا نتقهقر . نحارب ونرجع الى الشمال ، نحارب ونعتصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطىء الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ، واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟ اين فيصل اليوم ؟

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في مُلك عربي زمامه بيد الانكليز ؟ لكان احسنَ فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه وبين ابيه الحسين . الملك حسين ! ان قلامة ظفر الامام والله لخير منه . يا للعار ! ايفتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟

حاولنا اصلاح ظن الامير في ما أشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت من تأكيداتنا سورة غضبه .

— العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء الله مثل اهل اليمن . هذا اذا اقتدى امراؤهم بمولانا الامام واخذوا من احكامه مثالاً لاحكامهم . فتتطهر البلاد كلها من الفسق والفجور ، من الزنى والخمر ، من الرباء والرشوة كما تطهَّر اليمن .

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناها عندما ذكر الامير في مطلع حديثه الفسق والزنى . ثم عند ذكره ذلك ثانية همَّ رفيقي بالكلام فمنعته باشارة من يدي ، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه . وما جوابه ؟ قد اضحكني من الامير ما غاظ القسطنطين . ذلك لاننا في احدى الليالي السابقة ، جاءت الامرأة التي طبخت لنا العشاء ، والنساء في اليمن خارج المدن الكبيرة سافرات ، تعرض نفسها علينا بثمن فسطان من الشيت . وقد قال لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار : لولا السيد

معكم لكانت النساء تجيئكم في كل سمسرة[1]

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس ، فاسمع الشريف والبدوي ، والجمال والجندي ، والتاجر والسياسي ، فادون احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذاك ابديه . واني اسألك ايها القارئ، وانا اشاركك الآن في ما سمعت وشاهدت ، ان ترجئ رأيك كذلك الى ان تسمع الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه . وها قد اسمعتك كلام ابناء الوزير وهم من كبار رجال الامام ، وحديث احد الشوافع العقلاء وهم باطناً اعداء الامام ، وحديث صاحب سمسرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام . واليك الآن بحديث من يحارب لتعزيز وتمديد حكم الامام .

كان في حرسنا جندي اسمه احمد ، حارب على صغر سنه ، في ثلاثة حروب مع الطليان في طرابلس الغرب ، ومع الانكليز في الهند ، ومع الترك في اليمن . قال احمد : أُخذت خدعة من عدن قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاتراك والكفار فركبت الباخرة ونزلت في طرابلس وبعد ان صرت في عسكر الطليان عرفت انهم يحاربون الاتراك المسلمين . ولكنهم اعطوني مالاً واسمعوني الكلام اللطيف، وعاملوني معاملة حسنة، فحاربت واستغفرت الله . . الطليان احسن من الاتراك ، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام. اما الاتراك فلا يهمهم النظام ، ولكنهم لا يدفعون

---

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه أنحوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث . فلم لم يلوموا لاني نقلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله ؟ — لا فسق ولا زنى في اليمن! أيخفون الحقائق التي تدغدغ نفوسهم دون سواها ؟ على الرحالة أن يصدق قراءه الخبر في كل شيء . اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد الناس ولولا خطبة الامير عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكني اسف لاني دققت في التسجيل فذكرت اسم البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت بالمرأة للاهانة . اني اعتذر اليك ايتها المجدلية اليابنة واسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال .

مثل الطليان . والآن يا افندي — اقترب مني ليهمس كلمته همساً — لا مال، ولا نظام ، ولا لطيف كلام .. اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن عماله طماعون يشتهون دائماً الفلوس . . . قسمتنا خمسة ريالات في الشهر — عندما يدفعونها . ولكنهم يسيرونا في البلاد من طرف الى طرف وليس في قيصنا بغشة — اي نحاسة — واحدة . والاهالي لا يحبوننا لانهم يدفعون ضرائب كثيرة . ولا يطعموننا ولا يُؤووننا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في هذه القميص شيء . — نفضها ليريني انها فارغة — وثمنها يا افندي انا والله دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النيل لأقي جلدي من البرد . والقات ؟ من يدفع ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزيدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : أين زوجتك ؟ ففرقع اصابعه وهو يشير اشارة يمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل . وهو لم يزرها منذ سنة . « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلط[1] فقال احد رفاقه : مسكينة تموت ولا تراك .

وقال آخر لحيته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والنبي ! لا ازال في الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا — واشار الى قلبه وسكت . ثم راحوا كلهم ، ويد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرّج وفك العسر
يا مفرج على النفس في ضياقها[2]
بدّل العسر بكل اليسر
وفتّح ابواب قطّال[3] غلاقها
كيف قوم محوّز[4] وقوم اخر

---

(١) نقود فضية (٢) في ضيقها (٣) قد طال (٤) محاصر

في المقايل[1] على شرب تنباكها .

لم ارَ عرباً يتكتمون في امورهم مثل عرب اليمن وخصوصاً الزيود . ولكنهم اذا سنحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجهرون، فيفصحون اذ ذاك ويصدقون . والسيد والاعرابي واحد من هذا القبيل . ارفقنا امير الجيش في ذمار باحد السادة اكراماً او استعلاماً ، لا فرق ، فكان يركب بعيداً عن الجنود ، ولا يقترب منهم الا آمراً او ناهياً . وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني . فما كان بيننا من الكلام الا السلام .

ولكنه في اليوم الثاني سألني همساً ان اطلعه السر في حفظ الماء بارداً في قنينة الـ « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء . فدهش وقال : الافرنج اصحاب عقول — عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدم عقولنا الا في الحروب . سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً . . . اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، ويظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذها وخبأها في طية من طيات عمامته البيضاء . وقال : ستبقى سراً بيننا . وعندما نصل الى صنعاء انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ، وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفي اليوم الثالث اقترب مني وانا اكتب فقال : ما الذي تكتبه في دفترك ؟ فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن اسماء بعض النباتات والازهار : ما اعلمتني به . فقال : وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار والاشجار والحجار ؟ فقلت : قد تهم معرفتها من يجيء بعدي . فاقتنع ظاهراً

---

(١) جمع مقيل

ثم قال : هوذا اليوم الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب سؤالي . هل انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك او بأمر من امير الجيش ؟ فاجاب : لي حاجة في صنعاء ولكني لولاك ما جئتها اليوم . ارسلني الامير رفيقاً حباً واكراماً وما قصدك يا امين من زيارتك اليمن ؟

– مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها .

– وهناك مقاصد اخرى .

– نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لحضرة الامام فعسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام . فيفتح المدارس في البلاد ويمهد سبيل العلم والتعليم .

العلم ناهي[1] ولا ريب في ذلك . انا من رأيك ، واقسم بالله وبهذه الشمس الغاربة اني صديقك . فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا .

– لا اعلم . قد اصدق اذا قلت لا ، وقد اصدق اذا قلت نعم .

– الست رسول الانكليز الى الامام ؟

– لا ، ولا رسول دولة من الدول . لا ناقة لي في السياسة ولا جمل . ولكني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب ، واشتهي ان اراهم كلهم في ائتلاف بعضهم مع بعض . اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها .

– ناهي ولكن كيف تتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمن كله باسره . ثم الى حكم البلاد العربية كلها باسرها .

– قد يكون الامام رجلها وابن بجدتها . ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك .

---

(١) ناهي في اصطلاحهم حسن جميل

— ولكن كيف يجتمعون واين ؟ ومن يدعوهم ؟

— يا حضرة السيد، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابلغها الامام. فلو اطلعتك انت على كل شيء. فباذا احتفظ للحضرة الشريفة ؟

ابتسم السيد محمد وقال : كلام حكيم . ولكني انا اطلعك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة. فلو سحت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلم . اتعرف السبب ؟ لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوفٌ دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير — وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه — هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامرٍ طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ — واخذ بيده فنجان القهوة — ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن. واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفيء ، يتساءلون : وما السبب في القتال بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون. هذه طريقتنا في اليمن، نحارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟

فقلت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاتراك ؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

— وهل في اليمن اناس من الباطنيين ؟

– كان منهم طائفة فافنيناهم بالسيف .

– أهذه هي طريقتكم في اليمن ؟

– نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم . لا حق في البلاد لغير اهلها . ونأبى الشركة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب ليسلم الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

الفصل الرابع

صنعاء اليمن

وعلان – حزيز – الإبن المطري – جبل نقم – صنعاء – جمال الاسماء وجمالها – جبـل عشار – جبل آنس – معادن الفضة والطلق – نشيد الزامل – ابو العزب – الدوشن – بيت من بيوت الشام – ازهار لبنان – طباخ متمدن – الحمام – السيد علي زباره – القاضي عبدالله العمري – الطواف في المدينة – الهندسة العربية في البناء – الاحياء درجات – اجرة البيوت – اسعار لوازم المعيشة – « وهم مع ذلك يشكون » – حصار صنعاء ووقعة شهاره – الحضرة الشريفة – المظلة المشهورة – البنود والطبول – قصة الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام .

في صباح اليوم الثاني عشر ١٨ نيسان سنة ١٩٢٢ بعد خروجنا من لحج وصلنا الى حزيز ، المرحلة الاخيرة في رحلة مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في الذاكرة وفي الفؤاد. اني وانا اكتب الان اتمتع بها واستأنس بترداد ذكرها . كأني في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء .

بتنا الليلة السابقة في وعلان ، وهي قرية صغيرة عـلى مسافة خمسة عشر ميلاً من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يُستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضاً من الارض . ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر[1] هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة

---

(١) هذه اصح قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدام الانكليزية

١٠٠٠٥ جبل سماره	٩٥٠٠ جبل ذفار قباله	٦٧٥٠ مدينة اب
٠٩٠٣٠ يريم	٧٦٥٠ ذمار	٧٥٤٤ صنعاء
٠٩٠٠٠ بوعلن	٨٠٠٠ مناخه	٩٨٤٠ جبل شبام

عند اشتداد البرد يجمد الماء في صنعاء وقد سقط الثلج في ذمار لاول مرة في حياة من شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠– سنة رحلتنا .

الى طقس اشبه بطقس الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحر بقرن صغير من قرونها الذهبية كل ريح تهب فتدميها ، ثم تحييها ، وترسل الحرارة فيها .

وصلنا الى حزيز ، وما هي الا بضعة بيوت وسمسرة ، ساعة الضحى فجلسنا هرباً من الشمس في فيء حائط نتناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . وهما بنو مطر غرباً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، ونُقُم شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الخاف الشفاف من الهواء . بينما نحن ندنو من نقم الذي اصبح على يميننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار .

اثنا عشر يوماً في المشقات والوهلات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . اي صنعاء ، مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ، ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير . كنا نظنها اسماء ابتدعها

الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها من الحقيقة في اعلى مكان . أفما صعدنا واياك ايها القارىء في نقيل السيّان ، واجتزنا وادي نخلان ، وغنا في يريم ووعلان ، وتقيّلنا في ظل بعدان ، وها نحن نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املا . وكلما دنوت منها ، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء . وفيها البرد ، وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفاء . وهي قائمة في قاع سنحان ، ترينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين. ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها. اقربها اليها عُصُر وهو يظلل المروج في الاصيل ، ولُقُم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج — تلغراف المرايا — الذي يوصل اوامر الامام من قنة الى اخرى . وهذا عِشار وفيه الرخام والمرمر. وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيها معادن الطَلق . وهنالك رضراض وفيه معدن الفضة . وهنالك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق .

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده . وسرنا في موكب الغناء وما مللناه لان « الزامل » اي نشيد الزيود عكس ثيابهم المنيلة راقنا جداً . وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب نمثلهم على العدو زاحفين ، وبمجرد الزامل غالبين منتصرين .

سرينا على موز[1] حل[2] السحر

ليلة مغدرة[3] ما قرها هليل[4]

---

(١) نمر معروف (٢) وقت (٣) مظلمة (٤) ما هل فيها قمر

واصبح الصبح وحنا[1] براس النقيل
فنحور[2] العدى غارسين القتيل
نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يهزجون فروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء. والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك. ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى، افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعاء والحيّ الجديد منها الذي يدعى بير العزب. هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال اليانية مشهداً اخر كان له في لبنان مثيل. الا وهو « المشوبش» الذي يدعى في اليمن « الدَوشن » فشرع يصيح مرحّباً بنا صياحاً فيه نبرات وغنات جمعت بين رديء الخطابة والنشيد، علمنا منها اننا نور شمس الكمال، وقمر الفضل والجلال، وغيرها من آيات المحال.

وعندما وصلنا الى بير العزب، اي الحي الذي يسكنه اغنياء صنعاء وفيه قصور الامام ومركز الحكومة، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه عيدان الشرارة، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام ابهج واتم. البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير. ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان، وحوله القرنفل والريحان، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان، يغرد فيها القمري والحسون، وتتلألأ خلالها الشمس فتكلل حبال الماء المتصاعد من البركة لجيناً رجراجاً.

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة، على طاولة، تحت المشمشة، عند الشاذروان، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسي، وان في ايدينا الشوكة والسكين، وان ما نأكل قد طبخه طباخ متمدن، وان بالغ بالابازير. ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر —

(١) نحن (٢) في نحور

الحمَام. فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام :
الحمام يوم وصولكم لا يجوز . ولكني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت
الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل
على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام يأمره بتنظيفه
واعداده لنا — لنا وحدنا .

ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اجتماعنا
بالناس ومحادثتهم وذلك عملاً بامر الحضرة الامامية الشريفة التي كانت يوم
وصولنا متغيبة في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال سريح استفحل امره.
وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤساء تلك القبائل كانوا يفاوضون السيد
الادريسي لينضموا اليه وينصروه على الزيود . فلما أُخبر الامام بقدومنا امر
الأ نقابل احداً من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبدالله العمْرى
وهو يد الامام اليمنى ورئيس ديوانه ، فاستأنسنا بحضرته وسررنا بحديثه .
ألفيناه على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة والتساهل ،
فحملنا زيارته على المقابلة بينه وبين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا
الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ،
ويحسنون الرأي والموازنة .

سألنا زائرُنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبنا بما نعلم فقال : له
سنة في عدن ولم يفعل شيئاً (اي في مذاكراته مع الانكليز بخصوص الحديدة)
وسألناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود
وبعض الخلل . ولكنها نتيجة غيرة اخطأت السبيل . الشافعي والزيدي
اليوم متساويان . وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، ممح الخلق ،
قويم الخطة ، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير

والصغير او بين الزيدي والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون . نياتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأت كما قلت السبيل . . . نعم حضرة الامام يضبط الامور بيد شديدة . لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في الاطراف حيث لا يزال بعض الاضطراب ٠

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبة الامام، وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل آخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زباره فقال : حينما يرجع الامام وراح ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستأذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا عسكريين وأحد الموظفين . مشينا في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ، ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام، اي بوابة الشمال، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد ملوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البحث عن اجابة طلبتي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك ٠ دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها لا في اسواق التجارة .

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً اسواقها مثل اسواق جده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية، وبعضها ست طبقات، فبناؤها اكثر اتقاناً واجمل هندسة لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . وهي المبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن ، وبين كل طابق والآخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد

يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امتن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة ، يستخدمها الناس للاستقبال والقيلولة فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد. ومنهم من يستعملون الزجاج الملون في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ،اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات.

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رفيقي، ونحن ننتقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور .

ما عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والاجور. ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيويورك الى الاقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حالاً الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيها المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها غير اربعة ريالات نمساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زناران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فلا تقل حسناً ولا تزيد نفقة بالنسبة الى البيوت[1]

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غلاء حاجات المعيشة لان ارضهم، ولا تزرع كلها، تطعمهم، واموالهم تكسيهم، فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . هاك اسعار بعض لوازم المعيشة هناك سنة ١٩٢٢ :

وهم مع ذلك يشكون - يشكون وقوف الاشغال، وقلة المال، وعسر الاحوال. ومنهم من ينسبونها كلها الى حكم الامام، ومنهم الى الله وحده، ومنهم العاقلون الذين يبرئون الله والامام من شرور هذه الايام، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم. اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة كما قاوم تلك يكثر الضرائب، ويذخر الاموال، فتقل ولا غرو في ايدي الناس فتسبب قلتها وقوف الاشغال وعسر الاحوال فضلاً عما يعتري اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الاهلية . ناهيك بالعشائر وكلها مسلحة فيندر في البلاد ذاك الغرس الطيب، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذاك الجهل، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

قال المأمور دليلي : بعد ان حاصر الامام صنعاء[1] وسلم الترك غنمنا من

لحم الضان ثمن الرطل ٦ غروش
لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش
السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً
القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً
البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً
القدح ٤٠ اقة، والاقة في اليمن كيلو وثلاثة ارباع، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية

(١) هو حصار صنعاء سنة ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير حتى والفيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن الستين الفاً . ولكنهم اعادوا بعد ذلك الكرة على صنعاء فتقهقر الامام وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شهارة المشهورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور ايضاً يدحرجونها عليهم . واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام .

البنادق خيرات – اي كثيراً فكانت الموزر تباع بريال واحد . وبعد وقعة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته أعطي له . فلا عجب اذا كان في العشائر من يناهض الامام ويعصي جيوشه المنظمة .

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانه قد سبقنا الى بير العَزَب ودخل مفسداً حيث لا يستطيع سواه . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في النزهة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا : الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم ويزعجونكم .

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام . والاسير لشدة ما يحدّق بالجدران يصبح حاد النظر ، وتتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة – تك تك – تك تك تك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفتْ شريط السلك اي التلغراف وعلمت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت . وكان لمنزلنا باب موصد من الخارج بينه وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون . ثم جاء واحد وهو يقول : هم عرب مثلنا . وفتح الباب فاستأذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشاً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها تقية ، ورعة ، عالمة ، عادلة فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس الرسمي ففي الطابق الثاني من البيت .

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً – وقال المفسدون تحفظاً – جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية ، ومما لا ريب فيه ان الزيود يتقون كثيراً ويتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قريبون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها . زد على ذلك انهم

يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفخة والابهة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الامام يوم يؤم المسجد الجامع، فتحف به السادة والعلماء، وتمشي امامه ووراءه الجنود ، وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة في وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب ، وقد مشى تحتها القمر المنير سُبل الدنيا والدين .

هي ذا المظلة التي طبق ذكرها الآفاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان . قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي كالخيمة ، قطرها ثلاثة اذرع، وكانها مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش ، وعلى اطرافها من الخرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة .

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس . والى جانبها البيارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتي . فتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً . والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف . والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة .

سررت بخروجي الى الحوش وبدليلي اكثر من سروري بالطواف حول السور وفي المدينة . ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفعني بشيء من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً بطرائق الامام .

« كان قبلك في هذا البيت فتحي بك[1] وكان الامام يزوره ليلاً وحده. سافر الاسبوع الماضي وهو رجل « ناهي » اعطاني هذه « الساكوة » واستدان مني عشرة ريالات اعادها اليّ عند سفره عشرين. . . لا ادري والله ولكني سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) . »

ولكن الجندي في اليمن ، مثل من يقرأ الجرائد في البلاد المتمدنة ، لا يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها. فغداً يحدّث عنا فيقول: اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية.

(١) جاء من قبل مصطفى كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيي في ذاك الحين مفاوضات سياسية .

الفصل الخامس

الضيف المأسور

الامام في مجلسه – فراش الملك – خطاب ابين فيه قصدي ومذهبي – كتاب التوصية من الملك حسين – الوحدة العربية والوحدة الاسلامية – محط رحالها – « هل عندكم كلام مضبوط ! » – قصيدة الامام – المهنئون – تقبيل اليد والرجل – ملوك اليمن قديماً – التقاليد والعادات – جرجي النمساوي – شيخ الاسلام – « مسيحيان من لبنان » – رجل المسيح المسحاء – عدد سكان اليمن – السياسة الاوروبية – ما يؤثر عن جورج واشنطون – العرائض – عريضة تغيظ الامام – « اذهبوا اذهبوا » – الوشاية والظن – ضيف مأسور – كتابي الى الامام يعاد الي – السلك يشتغل – باب الفرج – اصل المحنة .

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة . ثم عاد الامام الى صنعاء من رحلته السلمية موفقاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ، فكنا بعد استئذانه اول المسلِّمين المهنئين . لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب ، شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماويه وذمار . حاجب واحد ، وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رآنا قادمين .

دخلنا وفينا ما يعتري كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن . اترى الامام مثل امراء جيشه ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ أيشف ظاهره عن باطنه ، فترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يخدع بما يكنه مما لا تفصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا أن في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين

القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روّاعة.
وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من
القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعمامته البيضاء الكبيرة
ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير،
تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبيه الوسائد يتكيء عليها ، وامامه
زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها
له . وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلّمين فرد
السلام مرحباً بنا دون ان يقف جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والغرفة
الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط البلاد
العربية واليمانية باللغة التركية .

كان في نيتي ان القي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً . ومما قلته
بعد تهنئتي بعوده سالماً موفقاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً
بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها فاننا مهما استرسلنا في
حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الخاص . وهذا
الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية . فاني ، وان كان لبنان
وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني
الاكبر . . واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين
كل من اقام حقاً وازهق باطلاً . بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرائها
الكبار كالغزالي والفارض والمعري ابي العلاء . بل ادين بدين كل من قال
بالوحدة العربية ، وتجديد مجد العرب ، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً
خالصاً لوجه الله . فمن أعز العرب أعز يا مولاي الاسلام . . . ولا غرو اذا
جئت بلاد اليمن حاجاً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة
كعبة الاسلام الاولى . على اني لقيت في جده ، في مقام الملك حسين الرحب
العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً

مفتخراً. واول مرة ذكرت في حضرته اني ارغب في زيارتكم كان — حماه وحماكم الله — اول المستحسنين بل اول المحبذين والمشجعين. فجئت يرافقني باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين يني، وهو في حب العرب والعربية على جانب عظيم من الغيرة والاخلاص.. والبلاد اليانية مهد العرب! جئناها متجشمين المشقات، مذللين العقبات، مصعدين في الجبال الشامخة، متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى. وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد الله عليه، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً.

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب. ثم وقف قسطنطين فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسر بها واثنى عليه. ثم قدمنا لحضرته كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال: ولكن الكاتب اهمل الاسم فيه. فقلت: وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً. اما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جده كان قد كتب كتاب تعريف احمله الى حضرة الامام، فلم يستحسنه جلالة الملك، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب آخر يعرف فيه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من غوامض السياسة الهاشمية

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ. ونحن، والخاطر جال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به، نقاسي من نتيجة ذلك ما سيجيء ذكره. افضنا في الحديث بالوحدة العربية، فكانت اول كلمات الامام في الموضوع: وصلتم الى محط رحالها. بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية اصح اساساً واسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية. ومن أعز العرب أعز الاسلام.

وكنت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحافل تهيم وتذري الدمع تهيام ثاكل

والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين ويحثهم على الاجتماع والتعاضد.

ايا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا وحوطوا ذمار الدين عن كل مائل
كما فعلت اصحاب طه ومن تلا – همو قافيا اثارهم من حلاحل

فقلت : ان الجنسية تجمع الشعوب والدين يفرقهم . وانا نحن المسيحيين في سوريا مثل العرب المسلمين فتجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين . ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص – من مجمل القضية الى اجزائها – فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك . مما دلني على انه ذو عقل عملي حاذق . واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين دخلوا اذ ذاك فمر بيده على فمه ، فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى وقت آخر .

دخل الزائرون المهنئون وفيهم بعض السوريين من طرابلس الشام وبعض الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية تقبيلات متنوعة لها درجات ومقامات ، ان العظمة « والمحسوبية » في صنعاء اشد منها في الحجاز . ان التبعة في ذلك على الاتراك الذين علموا الامراء هذه الاباطيل في الرسميات ، وروضوا عرب المدن على هذا التسكسك والخنوع . على ان تأثير الاتراك من هذا القبيل في اليمن اخف منه في الحجاز . وملوك اليمن من قديم الزمان كانوا شغفين بأبهة السيادة واباطيلها .

قرأت كتاباً لرحالة افرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى

اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذاك الحين بالقرب من ذمار[١]
ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفاً ينبئنا بما لعادات اليوم
هناك من الجذوع في التقاليد . وهذا الامام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة
يجلس على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث ويأذن بتقبيل
يده وكفه وركبته ورجله . بل يأكل فوق ذلك القات ويشرب من الماء
ويحمد الله . ولا يقف مسلماً الا لواحد في ملكه .

على انه تزحزح قليلاً عندما دخل محمود بك نديم اخر والٍ من ولاة
الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد . فاستقبله واقفاً نصف
وقفة ، وبادله قبلة اليد بقبلة في وجهه . ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياشينه
وجزمته فركع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان . ثم ذلك الافرنجي
اي النمساوي الموكل بعمل الخرطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، وخصوصاً
في عدن وجيزان حيث يودونه في غير اليمن . فقدمه الامام الينا قائلاً : هذا
منكم . ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه
اميركياً من اميركيي نيوانكلند القدماء . فاستوى الامام واقفاً وصافحه مصافحة
الاقران . هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية . وكان قد تقدم
حضرته ثلاثة صبيان ، منهم اثنان من اولاد الامام يرفلون بالاثواب المخططة
ذات الاردان . وعلى اكتافهم البردُ اليمانية ، وعلى رؤوسهم عممٌ مزركشة
بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن . دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه .

غصت القاعة بالمهنئين ، وكان حضرته يعرّفهم الينا فيقول : هذا امين ،
وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان . فقلت : حضرة الامام شغف بالسجع .
فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاها ، فسألني سؤالاً

---

(١) هو الامام المهدي لدين الله الذي عقد في سنة ١٧٠٩ م معاهدة تجارة وولاء مع
الفرنسيس . وكان مركزه في مواهب بالقرب من ذمار .

غريباً ثم جاوب عليه فكان الجواب اشدُّ غرابة منه : لماذا دُعي صاحب الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة اثرية وجيزة فلم يقتنع ، فقال : لان رجله كانت مسحاء . واشار بيده الى رجله ، ثم توكيداً بالسبابة الى خط الانخاء اي القوس في كفها .

قد ساءني والحق يقال هذا التشبيه وان لم يكن الاحتقار فيه مقصوداً ، وعاد بي الفكر الى جده ، الى مجلس الملك حسين ، الذي لا يسمع فيه الزائر كلمة واحدة تكدر او تسيء . بل لا يسمع غير ما يسر ويفكه ويفيد . اما الرجل المسحاء والمسيح ! لم اتمكن على تساهلي المعروف من دفع ما وقر من هذه الكلمة في النفس . وقد اكون اسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال سألته لانه في ذاك الموقت لا يليق ولا يجوز . ولكن عذري اني طالب علم — سائح في سبيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال : بالتقريب ، لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم تحكمون ؟ فاجاب وهو يبتسم ويضم انامله الى كفه : اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي باللغة العربية وكان قوله ولا شك تزلفاً : كل واحد من الخمسة الملايين مطيع للامام ، فاعترضه الامام قائلاً : لا لا . ومال بوجهه الي وهو يشير بيده تلك الاشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنةً منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غيرَ القديمة التي كانت تشمل عُمان وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها . .

وكان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلمَ وما يهتم له من اخبار العالم . فهو يطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار كأنه من هذا القبيل مدير شركة اميركية او رئيس وزارة انكليزية — سألني عن ارلنده — وهل

حازت استقلالها ؟ سألني عن لويد جورج – وهل يخلفه في الوزارة كرزُن ؟ وعن زغلول باشا – واين هو الان ؟ وعن الاتراك – وهل عقدت المعاهدة بين مصطفى كمال والفرنسيس ؟ وعن اميركا – وكم سنة يحكم الرئيس ؟ وهل يعاد انتخابه ؟ وكم مرة يجوز ان يعاد ؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج واشنطون الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلاً : ما تحررنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا في هذه البلاد ، اعجب جداً . اما كلمته المأثورة : استعدوا في ايام السلم للحرب . فابرق لها جبين الامام كانها حديث شريف ، واطرق وهو يهز برأسه ويقول : ناهي ، كلام ناهي ، حكمة رائعة .

وما توقف عن اكل القات وشرب الماء اثناء الحديث . ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحملون العرائض والكتب . الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها في الحال ويقضي بها . ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها انظر اليه واراقب عينيه ، وفيها يبدأ الانفجار او ما يشير اليه . انما الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم ، مثل رسول السلم ، يبسم لك مطمئناً . كثيراً ما شاهدت هذه السيماء المتناقضة فيه . ولكنه في ذاك الاوان تغير تماماً فساد الغضب في ناظريه ، وقلص العنف شفتيه فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فاشار بيده اشارة سريعة جافية ان اذهبوا . ولم يفه بكلمة سلام واحدة .

خرجنا كالمطرودين ، وبتنا في امر هذا الامام حائرين . أبدوي هو اذا غضب ، وسياسي اذا رغب ، وشاعر في ما يحب ؟ أعالم مجتهد ، وحاكم مستبد ؟ أغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد – في زيدي رافضي ؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد عن الغلط . ولكنه عادل ، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يحابي ، وعند الاقتضاء سمح حليم .

ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخير من رجاله، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة. رأيته في ليالي رمضان ، وقد انصرف كل كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل . وسيدخل القارىء بعدئذٍ الى ديوانه ، فيرى كل شيء في مكانه .

اما الان فعلائقنا — في لغة السياسيين والصحافيين — متوترة . وما بدا منا ، على ما اعلم ، ما يسيء الحضرة الشريفة بشيء . فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاء » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل البال في غوامض الدين. ولكن رجل حضرته أنيقة الشكل لها قوس بليغ ، يدل بحسب علم الفراسة، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق . فاين هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذاك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوفه ورسل السلم والخير اليه .

مرَّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا البال ، او اشارة تعيد الينا الثقة والامل . ومرَّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً . ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة الريب وسوء الظن، بل نود انفسنا بعيدين عن الزيود وبلادهم . أفلم يرضَ الامام يا ترى بكتاب الملك حسين ، ام هو في ريب من امرنا مما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات . فقد قال لي احد السادة : الناس مشتبهون بكم ، حتى الذين اكرموكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم . فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي زباره بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين . ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال ان المشي في الشمس يتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمن المحرقة .

فالاحسن ان تخرج اذاً عند الغروب · ثم جاء سيادته عند الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينا الخروج للنزهة . وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله . . . .

اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار. فلما فتحت دفتري مساء ذاك النهار لأدون فيه بعض الخواطر اطلعت على ما يلي ، وبما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروب مثلي . قال الرفيق :

ترجو الخروج الى المدينة باحثاً فيها عن الشيء الذي لا تعلم
لكن لسوء الحظ بابك موصد «ان اللبيب من الاشارة يفهم»

وفي اليوم الثالث ، وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق ، حاولت الخروج الى الساحة فردني احد الجنود في الباب . صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز · فنحن لا نزال اسيرين ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كان الامام غائباً . فما السبب وما العذر الآن يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الحضرة الامامية كلمة يمكنني ان انقلها بالحرف لانها أُعيدت الي

مولاي :

حياكم الله بالخير والسعادة . اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم اسير فضلكم ، وموضوع اكرامكم ، وسأكون مدى العمر شاكراً لكم . وجئت الان اسألكم ، واستميح عن ذلك عذراً لعلمي بما انتم فيه من الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم ، ان تعلموني اذا كنتم تسمحون بمقابلة خاصة ومتى . فاني مقيد بخطة سفر تضطرني الى القيام باذن الله بالمحدد من زمانٍ ومكان . وفي كل حال اني شاكر ابداً لمولاي الامام ، فخر العرب والاسلام ، حمى الله ذماره ، واعز بنوده ومناره .

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠ امين الريحاني

فاعاد الامام كما قلت الكتاب الي وقد كتب في اعلاه بخط يده :

عافاكم الله ووفقكم لا بد نطلبكم لما اشرتم
اليه ان شاء الله قريباً ه

والحرف الاخير ه علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويُكتب باسمه.

زادني الكتاب حيرة واضطراباً . فضلاً عما ظننته اهانة مقصودة. أهذه طريقة الزيود في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصارى ، فلا يرغب حتى بورقة من اشيائهم ؟ قد اكون اسأت الظن ساعة الحنق والاضطراب، على ان ما عرفته بعدئذ، وشاهدته اثناء اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير الاول كله تاماً .

كادت تحملني تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء من مظاهر الاجتماع والسياسة . سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم وعمران بلادهم . وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله . فما السبب في الانقلاب ؟

ما نمت تلك الليلة الا قليلاً . وكنت كل مرة استفيق اسمع السلك يشتغل مجداً وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة . ولا حاجة لـ« قد » التوقع. فان سبب كربتنا كما تحققنا انما هو الملك حسين ، او بالحري كتاب التوصية منه . فرأى الامام الحكمة في تثبت الامر قبل ان يفاوضنا بشيء ، فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما اكرمنا من اجله ذاك الاكرام الجميل في الطريق . فاذا كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى ان تكون نتيجة كتاب التحرير ؟

الفصل السادس

حكم الامام

الامامة بالسيف – شروطها – سبب الفتن والحروب – الرهائن – اعداء الامام – اليمن في الماضي – اول امام زيدي في اليمن – الفرق الزيدية – الائمة الاقدمون – اليمن الاكبر – القرامطة في اليمن – اول دخول الاتراك – اول ثورة عليهم – خروج اشراف ابي عريش على امام صنعاء – خروج لحج وعدن من حوزته – رجوع الاتراك سنة ١٨٦٩ – انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ – ثم سنة ١٨٩١ – الامام المنصور – احمد فيضي باشا – الامام يحيى – ثورة ١٩٠٦ – حصار صنعاء – الصلح – ثورة ١٩١١ – عزت باشا – معاهدة ١٩١١ – رجوع الامام الى شهارة – الحرب العظمى – رسوله الى لحج والانكليز – كتاب ملوك العرب – اعداء الامام بعد الحرب – التجاؤهم الى الملك حسين والسيد الادريسي – الشوافع – العشائر .

ان الحكم في اليمن ديني وضعاً ومدني عملاً ، له فروع في الأصل مذهبية وله مظاهر في العمل غير يمانية . فقد اخرجهم الامام زيد[1] الذي ينتسبون اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر، وعلمهم الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش . ولكان الحكم هناك قريباً من الديمقراطي لو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعلوا الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف . ولكن عقيدة غامضة باطنية في من انشق الزيود عنهم حملتهم، على ما اظن، على التمسك بضدها . قالت فرقة الشيعة: لا امام بعد الامام الثاني عشر وهو صاحب الزمان[2] فامست من العقائد الدينية

---

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد ليسترجع الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصُلب .

(٢) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٢٦ هـ . غاب عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً . ولكنه حي ابداً ، وموجود في كل مكان ، وسيظهر – هو الامام المنتظر – ليطهر العالم من الفساد والضلال .

حاشية اخرى : قد تفضل احد علماء النجف فاصلح ما في هذه الحاشية من الاغلاط

التي ينمو فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، ويشين اساليب العبادة فيجعلها سخرية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان . كأن الزيديين يقولون لخصومهم : اذا انتم رضيتم بامام موجود دائماً في كل مكان ، ولا يُرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي[1] ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يهتدوا في ذاك الحين على ما اظن الى غير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحقيقاً لاملهم فقالوا : ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، انما هو الامام المنتظر

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر[2] شرطاً ، منها ان الامام يجب ان

التاريخية والدينية فقال ان الامام الثاني عشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ ه ، وانه « غاب من الابصار الغيبة الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ ه ، وغاب الغيبة الكبرى اي عن الجميع الا نادراً سنة ٣٢٨ ه فيكون عمره اليوم ١٠١٨ سنة لا ٨٣٠ سنة كما يظهر من التاريخ المغلوط

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، يحيا ويموت ، ويأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الافاق متنكراً متخفياً الى ان يأذن الله بالظهور » .

قد يشكل على القارىء قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه « يتجول في الافاق متنكراً » والذي اراه على قصر باعي في هذا العلم ، ان في القالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقيم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميركا .

(١) اشتهى في اصطلاحهم الشيء اي اراده واحبه .

(٢) وهي ان يكون الامام مكلفاً ، ذكراً ، حراً ، مجتهداً ، علوياً ، فاطمياً ، عدلا سخياً ورعاً ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الاطراف ، صاحب رأي وتدبير ، مقداماً فارساً .

يكون مكلفاً بالغاً ، وحراً اي ليس بعبد ، ومجتهداً ، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك ، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المحذور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من حكموها من السفهاء والمعاتيه . وهي تحول دون مطامع العبيد والماليك – لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم وبعضهم يرتقون الى المناصب العالية – الذين زعزعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واوهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة . اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم . والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول ، اي الدين والحديث والفقه واللغة . ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحياة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية . اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيها لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني .

ولعمري ان شروط الامامية في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها لولا هذا الشرط الذي يتزل السيف منزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، ونتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً .

وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف تضمن سبل الفلاح والعمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طماحاً ، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامحين اليها ، ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكمين . فاذا احسوا بوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه . فيتسع المجال اذ ذاك لغيره من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتدق طبول الحرب ، ويخنق دخان الفوضى روح الامن والعدل والنظام .

لا نخطئ. اذا قلنا ان الفتن في اليمن حالة مستمرة يتخللها في بعض الاحايين فترات يسود فيها السلم والسكينة. وقد كانت قبل ان جلا الترك عنها ميداناً لسيف الاسلام – الجهاد ثالث الماء والزاد – بل لسيف الامام زيد، بل لسيف كل طماح من السادة المحترمين – ميدان هلاك ودمار، لا يسكن فيه غبار، ولا تخمد له نار، الا في فترة عياء عام او تفوق شخصي مثل فترة الامام يحيي بن حميد الدين، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد، وبالعدل – والرهائن.

ولا عجب، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة، اذا كانت الرهائن اساس الملك. لكنه، ولا ريب، اساس فاسد، لا يسلم حتى في ايام الحرب. اجل، ان الرهائن دمل في حكم حضرة الامام، بل دمل في نفسية اهل اليمن، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة، وان كانت سليمة العقيدة، فليست بسليمة في وطنيتها. لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامة، واعداؤه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً. ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكتة، وسُبل التجارة والسفر فيها آمنة، فهو دائماً في احتراب ظاهر مع الادريسي، وفي احتراب خفي مع الشوافع، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل، وفي احتراب سياسي مع الانكليز، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن. هؤلاء اعداء الامام، فضلاً عن السادة اقرانه، الطامعين بمكانه ليس فراش الامامة بالفراش الوثير، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في نزع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية، في المبايعة بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة.

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي، في عهد اسلاف الامام يحيي، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة. وسأعود بالقارئ الف سنة الى الوراء ولا

اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين ، فيها حقيقة الزيدية والامامة او الخلاصة التي تهمنا في هذا المقام .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيي بن الحسين القاسم الرسي يدعو الناس الى المذهب الزيدي . فاقام في صعده يعلم عدة سنين ودعي الامام . هو رسول الزيدية الاول في اليمن . ولكن الذي اسس الامامة في صعده هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالرسي المذكور .

بيد انه لا تخلو هذه السليلة من التقطيع لان الشرط الذي ذكرناه — الامامة بالسيف — فتح الباب للحسني والحسيني من السادة والاشراف . فتشعبت الزيدية الى ثلاث او اربع فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي سمي سرحوباً . والسرحوب كما قيل شيطان اعمى يسكن البحر . وهذه الفرقة تقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف والفرق الاخرى في الامام المنتظر . والسليانية تتبع سليان بن جرير وتقول ان الامامة شورى بين الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسلمين . وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليفتين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول بوجوب السب ، ومنهم من يقول بوجوب الاغضاء .

كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين « ٩٣٠ هـ » الذي مدحه موسى بن يحيي بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً كما اسلفت القول ولم تكن

دائماً مستقلة . فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء الترك، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر « ١٥١٧ م » ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عتم ان ثار اهل اليمن على الترك فاخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فثار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن . سيجيء ذكر هذه الحوادث في الكلام على الادريسي . ثم ثار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واعلن استقلاله وسيجيء ذكر هذه الثورة في كلامنا على سلاطين لحج .

وفي سنة ١٨١٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا على ابي عريش ، وتقدموا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى . الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد ، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا بالترك فدعوهم الى صنعاء . ففازوا هذه المرة ، ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين لان اهل اليمن الذين يثورون على ساداتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يوالون الاجنبي طويلاً ففي سنة ١٨٩١ نهضوا على الترك فحاربوهم واخرجوهم من صنعاء . وكانت تلك الثورة فاتحة حروب وفتن استمرت ربع قرن ، يوماً تضطرم نارها ، ويوماً تهمد تحت الرماد وعند ما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعث الدولة الفريق احمد فيضي باشا لاخماد الثورة ، فتقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها ، فتقهقر الامام المنصور الى صعده .

وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى ، فاعاد سنة ١٩٠٤ الكرة على الترك، فحاصرهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر — « اطعمناهم النار والفار » — فسلموا بدون شرط . وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيناً في نواحي اليمن الاسفل ،

فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الف من الجنود لتأديب العصاة، فأستولى ثانية على صنعاء، ثم تتبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره . ولكنه دُحر شر دحرة هناك[1] فعقد بعدها اتفاقاً والامام – رقّع صلحاً – لم يدم غير بضع سنين .

ففي سنة ١٩١١ كانت العشائر قد تاقت الى الحرب، فهجمت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام ولكنها لم تفز فوزها في حصار ١٩٠٤– ١٩٠٥ . وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ايطاليا . فسعى عزت بما كان له من حنكة، وفصاحة، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام ليمنعه على الاقل من محالفة العدو كما فعل بعدئذٍ السيد الادريسي .

وقد كان عزت كريماً جواداً، فاستغوى العرب بالمال، واستمال الامام بفصاحته وحذقه . فعقدت معاهدات ١٩١١ (شوال ١٣٢٧) لمدة عشر سنين وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها . قد تعهدت الدولة كذلك بان تدفع للامام ولرجاله السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسمئة ليرة ذهباً . وبما ان الزيود، بموجب مذهبهم، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالمئة بدل الجباية .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الحبيد في شهاره، وظل والاتراك على ولاء ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به بعد دخولهم في الحرب العظمى، ومع ذلك فلم ينقلب

---

(١) راجع الشرح في صفحة ١٢٦ من هذا الجزء

عليهم ، ولا ساعدهم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن ويظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا يفاوضونه بطريقة غير رسمية . لينضم الى الاحلاف في الحرب فارسل بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى لحج لا الى عدن ، يطلعهم على احواله ويعتذر . وقد كان يومئذٍ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب »[١] المعاون الاول للحاكم في عدن فذكر هذا الخبر في كتابه .[٢]

الامام يحيي بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزيدي الاول في اليمن السيد يحيي بن الحسن الرسي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا نفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور . وبعد وفاة المنصور ظهر ابنه يحيي المتوكل على الله بالامامة . وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثانية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات وحضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون

---

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي ينحصر موضوعه باليمن وعسير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٣٦ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوحت اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انفسهم .

(٢) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد علي شريف الى لحج ليستطلع مقاصد الانكليز . وقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان لحج وحليف الانكليز) حاضراً . قال الرسول ان الامام لا يخلف مع الترك وبينه وبينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتباته ومرتبات عشائر حاشد وبكيل . ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ولكانوا ينسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . فقد اقنعوا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد » .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ١٥٩

فمنهم محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهر ، والقاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات .

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله بن حميد الدين المعروف بالضحياني وهو لا يزال حياً . ولكنهم لم يفلحوا . ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب الامام من السوده جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يبغي الامامة . وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماؤه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام . هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم . كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سراً اليها عن طريق مارب سنة ١٩١٩ وقصدهم السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين . ولكن الانكليز لم يأذنوا لهم بالمرور فرجعوا الى بلادهم . قد سمعت من مصادر شتى ما يدهش ويضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعداءه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة .

قد استتب لحضرته الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد . وانتفع بمن تخلف من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه . وانتفع بنصراني نمساوي فأسس معمل الخرطوش . وانتفع بمذهب اجداده فحارب الادريسي وتغلب الزيود على الشوافع مراراً . الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يحاربون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله . ان المرء ليأسف على امة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة .

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً يمانياً لا حكماً زيدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ

ذاك يدينون له طائعين راضين، او انهم يأبون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية في يد اعدائه . اما اليوم فهم قيل في عدله الجم ، وحلمه الشامل ، فالشوافع في حكمه غير راضين ، والذين في الجيش منهم يحاربون الشوافع اخوانهم مكرهين . ومن المظالم التي يشكونها انه يجمع الزكاة والاعشار منهم بالتضمين كما كانت تفعل الدولة في الولايات. والعشار مثل الجلاد ، مكروه في كل بلاد .

الفصل السابع

الضرائب والسلاح

المسموع واليقين – قوة الامام – عزلة اليمن – المذهب والجنسية والوحشية – الجند النظامي – المجاهدون – العرض يوم الجمعة – انواع المدافع والبنادق – معمل الخرطوش – قصر همدان – غنى الامـام – قصص الكنوز – حكاية السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام ، وحديثه – « الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام » – الضرائب – العشور – الزكاة – رسم الجمارك والقوافل – والجزية يدفعها اليهود – بيت المال – اليوم المنتظر – غليوم العرب .

كنت اسمع الناس في جده يتكلمون عن الحكومة العربية فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها ، وكأن الامام ، وهو العربي الصميم – هاك قصيدته في جريدة القبلة – يبغي الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيماً . وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طيارات تبدد صفوف الزيود وتشتتهم في الاودية والجبال ، فتنسيهم الامام ، ووحدة الاسلام . ولكننا سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الامامية الشريفة ، وشاهدنا جنودها النظامية . لا نظن ان عدناً تشاهد ما شاهدناه ، وان الحجاز يسمع ما سمعناه ، لان الحقيقة في البلدين مشوهة ، او مطموسة ، او مجهولة .

وهذا مما يؤسف له . فان ملوك العرب وامراءها نائون بعضهم عن بعض ، وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين قد يسمع احد المسافرين كلام مثل ابن الوزير ، فيحمله الى الحجاز ، فيظنه الناس هناك كلام الحكومة . وقد يسمع احدَ رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورةً لآراء الامام ومقاصده . لا انكرُ ان شيئاً منها ينعكس في كلام الاثنين . ولكن الامام الكبير ، الكبير باستعداده وبقصده وبطمحه ، لا يظهر في كلمة يقولها هو او يقولها احد رجاله .

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل — قد سمعته يتكلم · ولكن اعماله ، وقد ادهشنا بعضها ، وبعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا تنحصر بالزيود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط[1] وانما هي في تلك العزلة التي توجبها العقيدة ، ويثبتها التاريخ ، وتعززها الجبال . اجل ، ان قوة الامام يحيى لفي ثلاثة يقدسها اهل اليمن ، هي المذهب والجنسية والوحشية[2] وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه القوات الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكتم طبعاً فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زيدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، ويأذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي ، يرغب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شراذم من الجند في ماويه واب ويريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها واجزائها ، بنوبتها ، بسريتها ، بمشاتها ، بمدفعيتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ابن اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ، خطوة البط ، Goose-step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى . وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

---

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنيين الشوافع ، وعشرون الفاً من اليهود ، والباقي من الزيود .

(٢) اني استعمل هذه اللفظة ، وحشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك انهم ينفرون من الغريب .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها[١] ، بعضها مجلوب وبعضها مغنوم ، وبعضها مشترى من رجال عسير . وان معمل الفشك في قصر غمدان[٢] الذي يديره جرجي النساوي يشتغل دائماً ، فينجز اربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة[٣] . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي[٤] ثلاثمئة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخلو من المبالغة .

في كل حال يحق للامام ان يردد انشودة الانكليز الحربية الاستعمارية فيهتف قائلاً : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال . اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ، وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجن والكنوز المرصودة . فالامام غني ، غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بير العزب خزنة من الذهب والفضة . لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعنده في شهاره ، في قنن الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليها سواه . واذا اكتُشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا عُرف الحجر فلا يستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكلٍ سرّه ، مفتاحُه ، عند الامام . دعنا والكنوز .

ان الضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها مثل الاكليروس عند النصارى تأخذ ولا تعطي . في ايام الدولة كان

---

(١) قيل ان عند الامام اربعمئة الف بندقية . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كالطليانية القديمة وعنده مئتا مدفع متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقد رأيت يوم العرض مدفعين من طراز الهاون .

(٢) قصر غمدان القديم دُرس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنعاء فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش ، والسكة ، والسجن .

(٣) هم يجلبون الرصاص ويستخرجون من ارضهم ملح البارود .

(٤) عدد الجيش النظامي خمسة آلاف .

اهل اليمن يدفعون الزكاة فقط ، وكانت العشائر معفاة منها . اما اليوم فهم كلهم يترحمون على الاتراك . قد اسمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح. واليك الان بحديث غريب لرجل غريب ، ما عرفته من ثيابه أجندياً هو او فلاحاً او سيداً . فقد كان يلبس فوق ردائه معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر عليه وشرب ، وهو في رقاعه وطوله ووسعه وازراره البيضاء والسوداء آية في الزي والاختراع ، وكان الرجل يشد فوق هذا المعطف الجنبية اي الخنجر ويحمل بدل البندق العصا .

استوقفت هذه القيافة المبتكرة نظري فسألت الرجل عن مهنته فقال : مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً . فقال : نعطي ولا نأخذ . فاعتذرت واستغفرت فقال : تريدها بلغة الفقهاء . قلت : بلغةٍ من فضلك افهمها . فاجاب وهو يهز برأسه . حياتنا هبة من الله ونحن نهبها الامام . لا نربح ولا نخسر . فقلت ولكن للهبة طرقاً واساليب . فقال ضاحكاً وهو يلطم صدره بيده : كلها عندي . انا اصلاً ، كما يقول الفقيه — وماذا يقول الفقيه؟ — يقول : انا اصلاً واحدٌ امّارٌ بالسوء . اما انا فثلاثة وفي كلهم الخير . ثلثي يا افندي شيخ ، وثلثي فلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

— نعم انا سيد ، وان كان السادة ينكرون ذلك علي . الثلث الاول خدم الامام فجمع له الزكاة . جمعتها بهذه — وهز بيده العصا — جمعتها « ظلط » « نقوداً » ، جمعتها مالاً « مواشي » ، جمعتها اعشاراً ، وحتى ثماراً . وما اكلت والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطخت يدي بنقطة دم من شاة او حمامة . كلها للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فلا ارجم العشّار ، ولا اخيء الحمام . دفعت خيرات « كثيراً » وما بقي شيء بعد خمس سنين من الارض او المال او الظلط . كلها للامام . والثلث الثالث يا افندي ، خاض من اجل الامام ساحات الوغى . وفيّ شاهدان ، هوذا

الاول ، وذا الثاني – قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين – وما عدت الى بيتي وفي جيبي « بُخشة »[1] واحدة . لا والله .. خمس ريالات ، هذا الرسم ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . نقبضها بخشات . ست بُخشات كل يوم – والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت اشتري القات من كيسي ، هم يوزعون القات على « النظام » « العسكر النظامي » القات والبُر « الحنطة » . اما المجاهدون فلله امرهم وعلى الله – ست بخشات كل يوم . والظلط مخزون ، مخزون ليوم شديد . . . نقول لحضرة الامام : من شروط الامامة السخاء . فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر : ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها ليس بالتبذير . . . الامام رجل كبير عظيم ، ينظر الى المستقبل بعينين . له مقاصد كبيرة . ونحن كلنا للامام . نعطيه ، نعطيه ، ولا نأخذ منه الا ما شاء ان يتفضل به . الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة ينبئك بها هذا السيد . فقد صرت سيداً يا افندي لاني لا اخدم اليوم الامام بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر اليها نظر هذا السيد الظريف . فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً . والخضرات اي الثمار – والقات منها – تثمن فيدفع اصحابها العشر نقداً . ثم زكاة المواشي والدواجن و « القراش » « الدواب » وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة الاصلية[2] ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة الحلي حلي النساء من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهاد عند الحاجة . اضف الى ذلك الرسم المفروض على اليهود وان كان قليلاً . فاليهود في اليمن

---

(١) الريال النمساوي يقسم الى ثمانين بخشة ، والبخشة نحاسة ضربت في صنعاء ، والليرة العثمانية تساوي تسع ريالات نمساوية فتكون قيمة الريال احد عشر غرشاً تركياً وقيمة البخشة ثلاث بارات .

(٢) تبلغ قيمة الزكاة الاصلية خمسمئة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

ذميون يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريالات في السنة على الغني ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسمين ، ما يدفع من الجنس وهو العشور ، وما يدفع نقداً .

كل ما يجمع من العشور والاموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في كل الاقضية . وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الحبوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شيء منها الا بأمر من الامام . على ان من حسنات بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه ويستوفي الدين منهم من الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً ، في التجارة وفي المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملاً .

وما سوى القرض فلا ينفق من بيت المال الا القليل ، لان عند الامام مصدر خراج آخر هو الجمرك ورسم القوافل . فكل ما يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً . وكذلك كل جمل وكل دابة محملة . فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته . اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او اثيمة . كل ما فيه مذخور بعون الله ، وبفضل الامام والرهائن ، مذخور لليوم المنتظر . فليوم العرب الامام ، المال العرب الزيود .

الفصل الثامن

الشمائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء – شهادته في الامام – رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في الناس – دعوا الصغار يأتون الي – التناقض في سلوكه – القصد من الجلوس في الفلاة للناس – كيف يقضي الامام يومه – مكتبة من المخطوطات – كتاب الاكليل – « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » – المدارس – العلماء والقراء والعامة – ذكاء الاولاد – حب العلم والحرب – الامام الامبراطور – الامام الطبيب – الكرامات والتشويه .

ا

كان للرفيق قسطنطين خادم مَدَني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف بمكة ، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين . استصحبه الرفيق ، فكان اضحوكة الطريق ، واعجوبة الخطر والضيق . وكأن الاقدار تحسن الامثال ، فكان ينطبق على المدني ومطيته – بغلة كانت او ناقة او حماراً – المثل المشهور : شبيه الشكل منجذب اليه . وكم وهلة روّعتنا واضحكتنا معاً ، والمطية فيها تضرب بقوائمها الهواء ، والمدني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن ضاحكاً ، وان غلطة في فم اللعنات ، ويروح راكباً فوق احماله كأنه سيد السادات . ولد لا يعرف النوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا اسوأها . فما رافق احداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا بمعلوماته عنه ويحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة ، فراح يطوف فيها ، وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ ، وعيناه تبرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، ففضلها حتى على جده . فقلت : افلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب :

في مكة امي . وهذه ، اي حبه امه واحترامها ، هي بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة . قلت انه نقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره . ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده .

— اين رأيته ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد . ولما رآني قال : حي الله الجاي . وقام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده فقبلتها . وسألني عن اسمي وقال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمد لله . فقال : بارك الله فيك . هو حياني ، والله وامي ، قبل ان حييته . ما رأيت احسن منه ، والطف منه رجل متواضع كريم الاخلاق — والعدل! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه . هو جالس الان في الساحة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امام ، يا حضرة الامام . جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني . دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي ، ما اقول غير الصدق . . . لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الامام .

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها . على اننا نضرب صفحاً عن رأيه وننظر في ما تضمنه حديثه من الحقائق . قد حياه الامام عند ما رآه قادماً وقام له . وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يجهل ما اذا كان مسلماً او مسيحياً . هذا جميل منه . ولكننا تساءلنا ما السر يا ترى في ما تناقض من سلوكه . ينهض لخادمنا ويستقبلنا جالساً . والسر لا يزال سراً نزفه الى القارىء ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناهه .

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ،

على شكاوي الرجال والنساء . وهذه بذاتها ثناء على الامام لا يقارنه في النطق ثناء . نذكرها اجلالاً ساكتين حائرين . ان امر هذا العربي اليماني الشريف لغريب . يشبه المسيح بالرجل المسحاء ، ويشبه المسيح في عطفه وحنانه ، دعوا الصغار يأتون اليّ . من فم مسلم زيدي تتساقط درر حبك ، وفي اليمن يُسمع صدى كلماتك ، ايها السيد الكبير الاوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم الحدود ، ويحصر الحقيقة بالنصارى والزيود .

قد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدَني ، بل رأيت حضرة الامام وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكاوي الناس واعياً صابراً ، طلق المحيا ، عطوفاً شفيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها ويحيل البعض الاخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في تعميم العدل والانصاف . قد علمت ان الحجّاب في بابه يردون احياناً من ينبغي ان تسمع دعواه ، او تُقدَّم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظلون في مكمن من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب . فيجلس الامام حيث لا حاجب بينه وبين الناس . انما هي عادته كل يوم صباحاً عندما يخرج من قصره الى الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، ويقف وراءه جندي حاملاً السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتتح الجلسة التي تستمر من الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوباً ببعض الموظفين والجنود ومن شاء من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر ويرجع الى القصر راكباً في موكب رسمي تتقدمه النوبة ، وتعلو فيه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل . وبعد الغداء والقيلولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب ، وهو يأكل اثناء هذه المدة او بالحري « يخزن » القات ، بل يظل في بعض الاحايين حتى الساعة العاشرة مساء في الديوان قائماً بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . على انه يغار عليها من عيون الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أُخبرت — واني اروي حديث المكتبة كما رويت حديث الكنوز — ان كتاب الاكليل[1] كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء .

ان للامام يحيي رأياً في العلم والملك جميلا . هو من اكبر العلماء والمجتهدين ، وعنده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة وترفعه الى سدة الملك . وكيف لا وهو القائل : قبّح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انه ابعدهم نظراً ، واشدهم همة ، وادقهم اجتهاداً[2] وقد قال لي احد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في حبه العلم لا يحب على ما يظهر تعميمه . لم نرَ مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداؤه في احتراب . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن

---

(١) كتاب الاكليل للحسن بن احمد الهمداني . لم ارَ منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندها ووفياها ومراثي حمير في عشرة اجزاء . الاول : اصول الانساب . الثاني : نسب ولد الهميع بن حمير . الثالث : فضائل قحطان . الرابع : السيرة القديمة الى عهد تبّع بن ابي كرب . الخامس : من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي النواس . السادس : في السيرة الاخيرة الى الاسلام . السابع : في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المتحلة . الثامن : ذكر قصور حمير ومدائنها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدَن . التاسع : امثال وحكم باللسان الحميري . العاشر : في معارف همدان وحاشد وبكيل .

(٢) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين ، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة . والامام يحيي يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد ابن علي بن زين العابدين وفي بعض الاحايين على اصول الامام احمد بن حنبل .

اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد وبالصلاة وبالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتدين .

اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقه . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا من هم من السادة . وليس الفقيه دائماً فقيهاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة فقط . ومن هذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء ويدعون بالقراء ، والعامة . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة وبيدهم مقاليد الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئاً من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافظة على كل ما فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك تراهم يكرهون السيد ويسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولداً ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتهي « اي يحب » السفر . فقال : عندنا والحمد لله ما يغنينا عنه . فقلت : ولكن الاسفار تفقه وتفكه . فقال : الذي عندنا يكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يبذل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس ، كان عندنا في ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والورق والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير — كل شيء ، وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ، لا يحب التعليم ، ويأخذ مع ذلك ثمانية ريالات في الشهر ، وينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتر والورق والالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

– ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .

– بلى ، ولكنه . . . سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟

– وهل عند الامام كتب ؟

– خيرات ، خيرات .

– وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟

– اشتهي ان يكون لي هذا القدر – وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض – من علمه .

– أوَ لا تحب ان تكون جندياً ؟

– بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق .

– وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راغباً في الحرب وفي تقتيل اخوانك ؟ العرب كلهم من بطن واحد ، والمسلمون اخوان .

– صدقت ولكن حضرة الامام اعلم منا . فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب . كلنا نحارب من اجل الامام . وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة وبما يجب على المسلمين . قد امرنا الله بالجهاد . . .

اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هذا الشعب اليماني وبين ذاك الشعب الذي قام في اوروبا منذ عشر سنوات يلبي امر امبراطوره بتأديب العالم وبسط السيادة الالمانية على اوروبا جمعاء . وكلمة الامام اليوم مثل كلمة ذاك الامبراطور بالامس ، تكاد تكون منزلة في نظر رعيته .

ان الامام يحيي اذن رب الحرب والاجتهاد ، رب السيف والقلم . هو الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن . وهو القاضي العادل الشفيق يجلس في الفلاة كي لا يقف احدٌ بينه وبين المظلوم . قد علمت ذلك ايها القارىء ولم تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب الحديث . تداوي المريض

بالايمان وتشفيه بالصلوات . اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب الاوحد في اليمن .

اخبرني احد الذين عالجهم انه كان مصاباً بداء الصرع وكان في رأسه اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البدو، واكتوى، واحتجم وظل في رأسه الصرع والاهتزاز . فجاء الى الامام ضارعاً مستشفياً . فلباه الامام . أخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه . ثم تناول ورقة وكتب فيها آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات . ثم اعطاه الكأس قائلاً : اشرب باسم الله . فشرب المريض الماء . فقال الامام : اذهب في شأنك ، قد شفيت باذن الله . وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها .

اما التشوير[١] وحضرته القدسية تشوّر ايضاً ، فاليك بمثل واحد منها . جاءه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقين ، فمنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الامام . فاطل حضرته عليهم وأنبهم فثارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية فاطلق بندقيته . فقال الامام : رصاصك بين عينيك قبل ان تغرب هـذه الشمس . وعاد الى مجلسه ، الى فراش الملك مطمئناً . وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون ويستغفرون . ولكن الذي اطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية بين يديه ، وفمها تحت انفه . نعس الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ، فأطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بين عينيه ! وكان ذلك قبل غروب الشمس !

---

(١) التشوير ، مثل « العين » ، يصيبك منه الشر المقصود دون تحديد . ولكن في هذه الحادثة حدد الامام الوقت والمكان ، فكان ما شوّر بل تنبأ به . وقوة التشوير عند العرب تنحصر بالسادة الاشراف .

الفصل التاسع

الجو ينجلي

فوائد السفر البطيء – حصون اهل اليمن الثلاثة – ضعف الزيود – القرن الثالث للهجرة – العزلة والتعليم – جو الظنون ينجلي – زيارة الامام – حديث خطير – خير اليمن في السلم لا في الحرب – « افتحوا البلاد للتجارة » – الانكليز – الادريسي – خطبة الرفيق الحربية – ثغور وزور – عدن والاجانب فيها – مندوب الامام الصنو صفي الاسلام احمد بن يحيى الكبسي – بداءة المفاوضات – رمضان – ابطاء السيد احمد – نحشه بالقوافي ونهجوه ·

من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف . كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالاً متجسماً ، سؤالاً حياً متحركاً ، اذا أذن لنا بالاستعارة . وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين ، فيجيئنا صاحب الامام مادحاً ، ويجيئنا عدو الامام قادحاً · فضلاً عن الفلاحين والجنود ، وقد عضهم البؤس والفقر فيجيئوننا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات . فوصلنا الى صنعاء وعدنا « خيرات » من اخبار الامام واليمن والزيود . قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الان تمهيداً وافادةً انها تتفرع الى فرعين ، الاول وفيه تظهر قوة الزيود الطبيعية ، والثاني وفيه ضعفهم الكامن في تلك القوة . اما هذا الضعف فله في حياتهم الاجتماعية مظاهر شتى كلها قديمة .

قد علمتَ مما تقدم ان الامام هو الزيود ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة – ثلاثة حصون – هي المذهب والجنسية والوحشية اي الاعتزال . اما المذهب فلا رأي لي فيه . واما الجنسية فالمدارس توسع نطاقها لتشمل في المستقبل – القريب ان شاء الله – ربوع العرب كلها ولكننا الوحشية ، اي النفور من الغريب والنزوع الى العزلة ، تؤثر في السائح اشد

التأثير واسوأه . وهي مع ذاك اول الحصون المقضي عليها ، لانها لا تقوى في هذه الايام على تيار العلم والتجارة ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بواسطة البرق والبخار بعضها من بعض .

اما ضعف الزيود ففي جهلهم الكثيف وتقهقرهم، لا بالنسبة الى الاوروبيين بل بالنسبة الى المصريين والسوريين حتى والعراقيين . كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة قولاً وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة . لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن . ان الامام لكل شيء . هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن . هو الاب الاكبر ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا سمح الله المنون . على انه ، وان حافظ كالاب الرؤوف على ارواح ابنائه ، وعلى صحتهم ، فقد اهمل عقولهم اهمالاً محزناً مفجعاً . وهوذا النقص في حكم الامام.

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها . ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تضاعف ما فقدوه . ولا بد مع التعليم من تحسين الصلاة وتمكينها بين الحضرة الامامية وسائر ملوك العرب ، ولاسيما من يحكمون الشطر الغربي من شبه الجزيرة اضف الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية والاقتصادية بين اليمن وعدن ، وهي من الامور الجوهرية التي لا تتم الا بموالاة الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة البلاد وشيء من المصالح المشتركة .

اثنا عشر يوماً في الطريق واسبوع في الاسر انضجت فيَّ هذه العقيدة وحصَّنتها بالمشاهدات وبالمعقول . فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة فيَّ متمكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي ولا عقيدة لي في رجاله وفي شؤونه ، فلو الفيتهم كالمصريين او كالعراقيين على الاقل لكان حديثي مع حضرة الامام غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز .

وهناك مسئلة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات . الا وهي مسئلة الحديدة . الحُديدة ! لا ينام الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعاء ، في يد الادريسي والانكليز . سأبسط قضيتها ، وهي قضية اليمن السياسية الكبرى اليوم ، في الفصل التالي . اما الان وقد اطمأن بال الامام في تثبته صدق دعوتنا وحسن قصدنا فانقشعت غيمات الظنون والشبهات ، انجلى الجو ، فانفتح في اليوم السابع من الاسر باب الفرج والسرور .

ولا تسل ايها القارئ كم كان ذا السرور عندما دخل احد الحجاب يبشرنا بقدوم الحضرة الشريفة . جاء الامام يزورنا في منزلنا ، والحمد لله مُزيل الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل من رافقه من الحرس في الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة غير العمامة شكلاً لا لوناً وذؤابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشراف الحجاز وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا النعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراءه فامر ان نجلس على الديوان وجلس هو امامي على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فانقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته تواً بعد المقابلة . فما اتكلت على الذاكرة آنئذٍ ولا أتكل عليها الان . ليتيقن القارئ اذن صدق الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يُخدع من كان يجيد التفرس مثلكم . انظروا اليّ . ان قصتي كلها في وجهي . فاذا رأيتم ما يريبكم ، او ظننتم فيّ شيئاً من التلبيس ، فروني فاسكت واعود غداً حيث اتيت .

فاعتذر حضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعاد الكلمة

التي وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون — هل عندكم كلام مضبوط ؟ فقلت : غير ما توجبه الوطنية العربية وتثبته المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله . ولكن قبل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا علاقة سياسية او تجارية مع اميركا ، ولست امثل رسمياً الملك حسين . انا مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وها هنا اعدت ما قلته في المقابلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في السفر . فاذا ساعدتموني في تحقيقها تعززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد حتى الان في حبي للعرب واخلاصي لهم . ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل المصارحة يشك في ما اقول .

فاعاد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامره شيء من الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعني الان بيت القصيد . فقلت : هما بيتان . الاول ان تتفقوا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز . ينبغي لكم يا مولاي ان تفتحوا البلاد للتجارة وللسياح . لان اليمن لا يحيا ولا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم خارج اليمن اتصالاً حديثاً . فلو عقدتم مع الانكليز معاهدة تجارية وِلائية دون ان تمس استقلال اليمن بشيء او تقيد بشيء سيادتكم التامة ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم معاهدة مع ملك الحجاز وانكم اتحدتم لتعزيز شؤون البلادين ومصالحهما المشتركة ، يتساهلون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدها . سأتجنب في ما اقول التعميم . اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديدة على طريقة ترضيكم . بل اعتقد ان الحديدة ، وهي ميناء صنعاء التاريخية والطبيعية ، تعاد اليكم اذا استعضتم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضتكم والانكليز اذن واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا يخفى على مولاي انه اذا

فتحتم بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الامن والسلم في البلاد . واما عزلتكم اليوم ، فاذا دامت، تتلاشى فيها قواكم . انكم تبذلون اموالكم وحياة رجالكم في الحروب الدائمة وفي الاستعدادات الحربية التي هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يا مولاي وهذا لا يكفي فالامة تحتاج الى ثياب تقيها من البرد، والى تعليم يقيها من الجهل والامراض ، والى تجارة تقيها من الفقر والشقا. . ولا تنال ذلك الا بالسلم وبالعلم وبوسائطها الحديثة . لست ممن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب ويستبشرون بها ، بل من مبادئي وآمالي ان تتحسن العلائق بين البلادين ، وان تكون العروة الوثقى عروة تفاهم وولا. بين اوروبا وبين العرب على الاقل. واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً ، ولكني اغار عليها من الجهل يا مولاي كما اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين ؟ انما السبيل القويم في اتحادنا يا مولاي ، في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ، ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي . اضعفتم انفسكم بالحروب . قتلتم البلاد بالحروب . أفما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، الولا. والاخاء والتفاهم والتحالف ؟ بل فيها الحياة والعمران والعزة القومية .

كان الامام وهو مطرق يصغي لما اقول ، ويهز رأسه مبتسماً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادريسي حليف الانكليز وعدونا، يأخذ منهم المال والسلاح ويحاربنا بها . وهو بيننا وبين الحجاز ، هو المانع الحاجز .

— هو ينضم اليكم عندما تتحدون. لا يقف الضعيف عدواً بين قويين .

— ولكن الانكليز يساعدونه .

— الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد، ادعوكم اليه — الى حد فيه تتم المحالفة اليمانية الحجازية ، فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلونها ويسعون في عقد معاهدة ولاء وتجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن وعسير ، وفي عقد معاهدة ولائية تجارية بينها وبين بريطانيا العظمى ؟ اما الحديدة فتعاد اذ ذاك اليكم ويسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسكلة اخرى وعنده اللُحيَّة ومِيدي وجَيزان والصَليف ، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تعمير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذاك تحديد الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام : ناهي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم . ولكن لم تثمر المفاوضات ثمرة حتى الان . هم يماطلون ويسوفون ونحن صابرون .

— لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعلموا بها .

وكان قد نفد صبر القسطنطين وهو يتحفز للكلام، فقال مخاطباً الامام: بل يعيدون الحديدة اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذاك نضرب الادريسي من الشمال ، وانتم تضربونه من الجنوب ، فتأخذون الحديدة منه كرهاً وترغمونه فيضطر اذ ذاك ان ينضم الى المحالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب ، فشرع يخطب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديثة واصوات الطيارات. فخفت منها على بناء السلم الذي ابنيه. وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره، واعدت بعدئذ عليه ما طالما قلته

في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتمدين ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا والله ، ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن .

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الاناة . فمها كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم — نشتهي عدن — دعنا نزحف على عدن فتأخذها بعشرة ايام ! — فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة . وقد احسست بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم عن استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت طماح يحلم حلماً سياسياً باهراً ، ويعد لتحقيقه العدات ، ويجمع الاموال ، الذهب والفضة ، ويخزنها لذاك اليوم العظيم . وان لعدن مرقداً ولا شك في حلمه ، وعَلَماً في محيط علمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودرة في تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات . ولكنه لا يعلم على ما اظن ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء : في عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملونهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته ، يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهو « الرفيع الجناب الوسيع الرحاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع شكاوي الناس .

وكأنه سمعنا نئن ، سمع النفس الصامتة تشكو الاسر ، فأذن لنا في ختام تلك الجلسة بالتطواف والتنزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد سررنا بهذا التعطف

الامامي، عدنا بعد بضعة ايام مرت دون كلمة او اشارة من حضرته الى الريب المؤلم والظنون . وقد كان ظني، سامحني الله، ان القسطنطين افسد علينا الامر في خطبته الحربية، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . ومما زاد في الطين بلة ان الرفيق، ونحن في تلك الحال، شرع ينظم القصائد في مدح الحضرة الشريفة وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ. فرحت انا ابحث في المدينة عن ترياق لسم الجزع والقنوط .

ان حياتنا في صنعاء في الايام العشرة الاولى كانت والحق يقال كادوار من الحمى يتخللها فترات نقه قصيرات . ولم نشف الشفاء التام الا بعد ان زارنا ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب. دخل حضرة السيد يتقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدثنا بجمال صنعاء الذي يفوق بهاء مصر وجلال الاستانة . ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة ويشم النسيم ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هذه السياحة التي اتحف السائحين باخبارها تمهيداً وتعريفاً، رفع العمامة عن رأسه واخرج من احدى طياتها رسالة من الحضرة الشريفة، بل خطاً امامياً، انبأنا بان السيد احمد بن يحيي الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومعتمدها في المفاوضات بشأن المعاهدة . وقد خط الامام الخط بيده، بالحبر الارجواني، على طريقته الخاصة، اي بضعة اسطر منها متنا والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالهلال، وختمه بالحبر الاحمر[1] اما نص خط الاعتماد فهاكه .

---

(١) ختم الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

يحيى حميد الدين

(صورة الختم) امير المؤمنين

المتوكل على الله رب العالمين

الصنو صفي الاسلام احمد ابن يحيي الكبسي حرسه الله . كل المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مع السيد محمد علوي السقاف[1] باطلاعكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقه قسطنطين ومعهما كتاب من ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ ارادة انجاز الكلام والمراد منه البغية المقصودة والضالة المنشودة فليكن منكم الكلام معهما لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداء وانتهاء مع لوازمها الذاتية والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من الجميع عن كل احد . واعرضوا هذا عليهما . وقد اعلمنا الحاجب بالاذن لكم بالدخول اليهما والسلام عليكم .

في ٢٨ شعبان الوسيم ١٣٤٠

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجّاب في الباب لا يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الامام . فكان السيد احمد الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم فيستنشق هواء المدينة دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة ومجاريها المضرة . والسيد احمد جسيم وسيم ، بطيء الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ، لطيف الاشارة . وله عين في الفتن السياسية ثاقبة اللحاظ ، وعينان في كشف

---

(١) والاثنان تقدمانا في المفاوضات بين الملك والامام بخصوص المعاهدة .

الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما ما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا واياه في رمضان فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء .

— هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السحور ، ثم وقت النوم ، ثم اوقات الصلاة — ظاهر وماشي ؟[1] ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجيئنا بعد نصف الليل او بين المدفعين مدفع السحور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده بين الشمس والزرقان وكان يجيء حرسه الله والطيب ينتشر من اردانه ، وبقايا القات بين اسنانه ، فيسأل اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ بنداً واحداً من المعاهدة واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذاك الطبول مبشرة بمدفع الافطار ، فينهض السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا نراه بعدئذٍ الا بعد ان تتعدد منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحجلة ومني المخجلة . اجل قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

في ١٦ رمضان الكريم

لقد هيّج فيَّ القسطنطين نهمة الى الشعر كانت راقدة . لقد طالما تاقت النفس وتشوقت العين الى شيء يخصني من ذاك العنوان الجليل في الدواوين : وقال يمدح فلاناً . ولكني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً ، فقلت وانا في صنعاء أهجو سيدي وصديقي السيد احمد بن يحيى الكبسي ، قدوة السادات الكرام ، وأحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بطء ومطل من الكبسي ... وقلت هو الصوم المطيل لذا الحبس
ولكن ظني قام يشكو جهالتي ... ويكشف عما في الوعود من اللبس
فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا ... وخرنوبه لا شيء فيه من الدبس

(١) ومعناها في اصطلاحهم الهمت ? فهل هي تحريف اظهر الك شيء مما قلت ?

الفصل العاشر

المخيّم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق – البروتستانيون والكاثوليكيون – الزيود – امام الزيود – الضيافة العربية – رسم الامام – المخيم المنصور – الامام في المخيم – نباته في العمل – حسن الادارة – كتاب المخيم – الاخصائيون – الامام الشاعر – قصيدة قسطنطين في هجو القات – هيام الشعراء في صنعاء – قصيدة الامام في مدح القات.

ان للدين تأثيراً في الاخلاق يفوق تأثيره في العقول. فانك لتلقى امرءاً ذا فكرة وقادة، ونظرة نقادة، سليم الذوق والعقل، كبير النفس والخلق في كل اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه. فتلقاه اذ ذاك سخيف الفكر وان ضن به، سقيم الذوق وان عالجه بالاعذار وحلو الكلام، عقيم العقل وان اغرق في الاجتهاد، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله. وقد تتفاوت هذه العيوب في الناس تفاوتهم في شدة العقيدة، وتختلف عرضاً لا جوهراً اختلاف المذاهب وضعاً وعملاً.

خذ البروتستانيين مثلاً. فانهم بوجه الاجمال اسلم عقيدة واوسع حرية في العقليات من الكاثوليكيين. ولكن في البروتستانية مذاهب تضيق عندها جادة الحياة وتربدّ آفاق الطرب والسرور. فلا يحب لذلك تقيها، ولا يُرغب في مجلس عالمها، وقلما يطاق قسيسها اذا كان من الطراز القديم. بينما ان رؤساء الكنيسة الكاثوليكية، وان ضيقوا على العقل وقيدوه، لا يطفئون انوار اللهو والسرور في جادات الحياة.

ان الزيود مثل بعض البروتستانيين عقيدة وعملاً. وان امامهم الاكبر في سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليذكرني بذاك القسيس المحترم الذي يحمل الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه، فيسعى، والغم يخيم فوق حاجبيه، في

نشر كلمة الرب في الناس. الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن الضيافة والمؤانسة ولا يحزن اذا ظنك في ضلال عليك ، ولا يقف مبشراً بين يديك .

انك لا تجد في ملوك العرب اليوم من هو اعلم من الامام يحيي في الاصول الثلاثة اي الدين والفقه واللغة ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه . وهو اوسع نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض وقته في المطالعة . بل هو الشاعر الوحيد في حكام العرب كلهم . قد اشرت الى قصيدته المشهورة التي يدعو فيها الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارىء على شيء من رقيق شعره ايضاً

ولكني الان مثبت ما قلته في تأثير الدين او بالحري المذهب في الاخلاق . ليسمح لي حضرة الامام اذاً ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة الى ما يعد نقصا في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة واحدة لولا انني احسب نفسي من العرب وانتسب مثله الى قحطان ، فاغار عليه وعلى شريف تقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال . فهل يخل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا آكل ضيفه الاجنبي ولو مرة واحدة ؟ أوَ ليس « الخبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ؟ وهل يقصر العربي في الضيافة او يخل بشروطها ؟ واذا كان الضيف عالماً تلذ له مطالعة الكتب ، وخصوصاً المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطلعه على بعض ما عنده منها ؟

اما اذا استأذنه الضيف باخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين الامرين . الزيدي زيدي جندياً كان او اماماً . واذا كان من تحريم في المذهب او في الدين يختص بتصوير الهيئة البشرية فالتحريم يشمل طبقات الناس كلها . على

ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح وأسفاه من صور الجيش صورة واحدة . وقد كنت في ما منع مصراً لاني كرهت ان اعود من صنعاء وليس لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام .

العفو يا مولاي . اننا في زمن ادبي فني يحل الرسم فيه غالباً محل الكلام، وله في احوال شتى المقام الاول. فضلاً عن ان الناس غربيين كانوا او شرقيين يرغبون في مشاهدة عظام الناس . فاذا حرموا ذلك فلا يحرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات .

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة احد كبار ملوك العرب ليقصر في واجب التصوير ، كلمة ورسماً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه . وديوان الامام يسمى « المخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من كل كتابه . ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « تخزينة » مضغة من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود تتخلله خيوط صفراء ، وقد نزع سيفه وبردته وعمامته كما ينزع احد الغربيين القبعة و« الساكوه » تجرداً للعمل . كأني به اميركي كبير يغوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يملي على كاتب سره .

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه . ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا رفعة ولا ترفع فيه . يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وحبر وورق واقلام . ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العمري ، والى يمين القاضي عبدالله ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على ركابهم يكتبون ،

وقبالتهم من زملائهم ثلاثة اخرون . وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الختم الامامي والمحبرة الحمرا. يختم الرسائل والخطوط والاوامر التي تدفع اليه ، وبيد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيده الاكبر .

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مسا. فيجيء جندي بعريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، ويضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها . فينضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكير صغيرة وكبيرة ، ويقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام . ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف م اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الختم فيختمه ويرمّله ، ثم الى من يلفه لفافة ويكتب عليها اسم صاحبها

الديوان الامامي او المخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلمون ويجلسون ويسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والصياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوته ولا نرى وجهه — الوجع بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين . . . ناهي ، ناهي . جوابك تحت الختم . . . البلا بروحك ظل مكانك . . . اسكت يا يهوده ، البرص بعميك . اسكت . . . «ذ» در له البندق يا آنسي . . على رأسي . حسن الحرازي يا سيدي — لينتظر . — هو يشتهي السفر ذا الحين . — لينتظر . — يقول ان العامل . . . فيحتدم الامام غيظاً ويصيح مثل حاجبه وبه — ضربك الله بروحك اسكت . اخرج !

وعند الامام يحيى اخصائيون يستشيرهم ويستعين بهم . هذا السيد احمد الكبسي المقدم الاول ، العالم بشؤون العشائر واطماع رؤسائها وطغيانهم ، قد

اقترب من الامام وفي فمه « تخزينة » عامرة ليهمس كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زباره امير القصر ، قصر غمدان ، ومدير السكة والسجن فيه ، يطالع استدعاء طوله ذراعان ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهذا «جرجي» ابو الخرطوش يعيد النظر في رسوم قنابل رسمها ولا يستطيع صنعها في صنعاء . قد جثا امام فراش الملك ورائحة الخمر تفوح من فيه — وكم يلزمنا من هذه ؟ فيجيبه الامام : الف . — ومن هذه ؟ الفان . — ومن هذه لمدفع الهاون ؟ — خمسمئة فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الختم فيختمه ويرسله .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر الى احد ولا احد ينظر اليه ، فيتبوأ مجلسه في الزاوية ويأخذ كتاباً مخطوطاً يقلب في صفحاته ، فلا يتجوع برأي او يتلطف بكلمة الا نادراً . وهذا — قد انتصف الليل — احد الموظفين في دائرة السلك « التلغراف » جاء برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبدالله ويقدمها بعد ان يطالعها للامام هكذا يستمر العمل الى ما بعد نصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانباً ويتناول غصناً من القات بيده او يشرب جرعة من الماء ويتلمظ هاتفاً : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد نصف الليل تدق الطبول ثم يطلق مدفع السحور فينهض الكتاب واحداً بعد الاخر ويخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام وكاتبه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية وبعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازه في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شيء من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد لذلك ترى الامام وكاتبه الاول الاخيرين غالباً في الخروج من الديوان .

والامام يحيي ، على ما هو فيه دائماً من اشغال الملك وهموم الامامة ، يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر . اجل ، قد نظم قصيدة يدافع فيها عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحي ذات يوم بواسطتي تحت شجرة الجوز الى الرفيق قسطنطين . قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صنعاء بخمر قصائدك ، وكلها مديح وتباريح . فما نجا احد ، حتى ولا ولد الساقية ولا مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية. فلماذا لا تغير النغمة والحنان ، وتستبدل القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك. فاجاب الرفيق : اتريد ان اهجوك ؟ فقلت: انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوك اياي مثل مدحك الامام مبتذلاً. فقال: أتريد ان اهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي ان اسمعك هاجياً . اهجُ – اهجُ – ولم ادر اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل. ولكني سمعت صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو فيها القات .

فنهض الزعيم الشاعر في الحال وبادر الى القلم والسيكاره ، وجلس في البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثبأ الى الديوان وبعد ساعة في الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة بيده يكرمني ، يجربها فيَّ على عاداته :

القات فيه عجاب كما يقول الصحاب
درّت به الشاة لما ان طاردتها الذئاب
ذاقته فاستعذبته وسال منها اللعاب

الى ان قص القصة التي يروونها في اليمن . اضاع الراعي شاة من غنمه فراح يبحث عنها فرآها نائمة في فيء صخرة وورق القات في فمها. فجربه مثلها فاستعذبه

و أمسى يجمع منه حتى تملّى الجراب

مثى يحدث عنـه وفي الحديث الصواب
فصدقوه وذاقو – هُ مثله واستطابوا

وبعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن ويعدد الفضائل التي يرونها فيه. يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعـه انبئوني هل عند شخص جواب؟
جربته واختبـاري يجدي به الاسهـاب
تنتاب جسم الفتى قشـعريرة والتهـاب
وفيه يفعـل ما لا يقوى عليـه الشراب
والصدر فيه من الوخــز والعذاب خراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتياب
لا نفع في القات لكن فيه الشقا والعذاب
وترهق النفس منـه والقلب والاعصاب
والجفن يذبل حتى يغشى العيون سحاب
وسؤ هضم وقبض منـه يغيب الصواب
والراس يثقـل وطئاً وبالدوار يصـاب
ويعتري، بعد هذا المفـاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه اشد من عرفت من الشعراء شغفاً به ، واسرع في نظمه . وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه القصيدة اقتراناً طبيعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارخت ريباً القات للقتل باب

في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النفحة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة

الامام مشفوعة بكتاب تقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء يبغي المعارضة والدفاع فليسرع قبل ان يرحل الشاعر . وكان اسبوع في عاصمة حمير والاذواء أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحروقات منها المهلكات . اجل ، قد جاء احد الشعراء وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكافر الذي تجاسر ان يذم القات وما ذمه ، وهوذا ذنبه الاكبر ، بغير المبتذلات الشعرية والركاكات : فاوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد بضعة ايام جاءنا من الخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم ، على غير العادة اليانية ، ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن القات من الغزل والدماثة والاتضاع — تلك روح الشاعر الحقيقي — ما يزيد الناظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً واعجاباً . وما اجمل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيل القصيدة بها .

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الاشغال وتبلبل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بمزاياه الحميدة ، ان للقات مزايا لا يحصيها الاسهاب فيذكر عشراً منها فقط :

فللعيون جــلاء للضعف منه ذهاب
وللثغور صباغ زمردي يــذاب
أحسن بثغر مليح له المذاب رضاب
يا ما احيلاه ظلما تشفى به الاحباب
وللنفوس مريح وللنشاط انجذاب

. . .

ويشحذ الفكر حتى يخاف منه التهاب

ويطرد النوم عن من   له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر حضرة الاديب العالم في الامام فيقرّبه من كل من آثر الكتاب جليساً . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين فهو سراب
أليس من جاوز الحد   اكله والشراب
يكون عرضة خسر   ويعتريه اكتئاب
والاكل والشرب ما لا   به الكرام تعاب
وانما العيب اسراف منه يبدو العجاب
هذا الملفق يا قسطنطين منا جواب
يُهدى اليك عليه   من الحياء نقاب
لانه ليس كفؤاً   للدر وهو تراب
فاستر ملفق يحيى   فالستر فيه ثواب

ان في الابيات الاخيرة من الدماثة والخفة والتواضع ما يستحب في اصغر الشعراء واكبرهم . فكيف به في احد كبار الحكام والامراء ؟

الفصل الحادي عشر

الزيود واليهود

منزلنا بيت الصلاة – الوفد الافرنسي – ماء الوضوء – الصلوات والبصل – المتداوون – الخنازير النصارى – الحارس احمد يهتدي – السيد والهجري – ظلم السادة – حزام واليهودي – قاع اليهود – السيد محمد يعدد الواجبات – وكلها من اجل اليهود وسعادتهم – يدفعون الجزية راضين – الزيدي واليهودي في حب المال واحد – رسائل اهل اليمن – لا يستعملون الغلافات – حسابات وزير المالية – الصراحة والايجاز – الاسلوب التركي والاسلوب العربي .

هيوا على الصلاة ! هيوا على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي يصلون . الحاجب والحارس والسيد والخادم والعشي والبستاني وولد الساقية الذي يغني لجمله من الشروق الى الغروب : صدر البُنية بستان وانا زرعته ، كانوا كلهم يجيئون خاشعين فيتوضئون في بركة الشاذروان ، ويفرشون حولها في ظل شجرة الجوز بردة او احرامه ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة المساء . ما عرفت ولا رأيت اناساً يصلون مثل هؤلاء الزيود . وما سمعت ولا قرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل هؤلاء الزيود . ولا اظن ان صلاة تصعد من فم بشر فتذهب كالهباء المنثور مثل صلوات هؤلاء الزيود

كان في البيت ازاء بيتنا الوفد الافرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا هناك ، وكان احد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماء من الشاذروان ، فسألته مرة : لمن الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى . فقلت : اليس في بيتهم ماء للغسل ؟ فقال : هم يشتهون الماء للشرب . فقلت : اتسقونهم من هذا الماء ، من ماء الشاذروان ؟ فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير نصارى لا يستحقون احسن منه .

ويجيء هذا الزيدي فيتوضأ في البركة ثم يفرش بردته تحت اغصان الجوز

ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم، . . رب العالمين » ويضرع اليه ليهديه « الصراط المستقيم » . ويجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شيء من البصل واللوبياء والهرسيم . كنت دائماً عندما ارى البستاني في عمله وفي صلاته آسف على الماء الغزير الذي يكفي ليروي حقلاً وسيعاً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزيدي غير حقل زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض ؟ ، بغض العالم خارج اليمن، وبغض الخنازير النصارى، وبغض اليهود في بلادك، حتى وبغض الشوافع اخوانك الاسلام. ان صلواتك وماء الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركة وبركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضيع اذ ذاك ماء بلادك في الارض البور ، ولا تسق ماء وضوئك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهال .

جاءني ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصبغة اليود مرتين فشفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان نشكر الخنازير النصارى لان هذا الدواء اختراعهم ، صُنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين — ورفع يده ورأسه الى السماء — عينه ترى كل شيء . ورحمته تسع كل الناس . ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون اليَّ الآلام من جرح او قرح او التهاب . وكنت كل مرة اعالجهم اذكرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية والمخدرات — بعد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا اجهل العرب — ليزيلوا الامراض ويخففوا الالام البشرية . وكانوا ، وقد جاؤوني زيوداً ، يرجعون مسلمين الى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها : الانسان اخو الانسان احب او كره .

ولما عاد خادم الافرنسيين ليأخذ الماء من الشاذروان انتهره الحارس احمد وهزَّ له العصا . — والله بالله اذا سقيتهم من الشاذروان اشكوك الى الامام. ما سررت والله بشيء في صنعاء سروري بعصا احمد وكلماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسيته ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح التي زرعها الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة او اشارة تحرك فيها الحياة، وترويها بماء المكرمات. اما التبعة في رقاد تلك البذرة وخمودها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس . واذا علموهم شيئاً فمزيجه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمن حقوق في الارض وفي الرجال شبيهة بحقوق ذوي الاقطاع Feudal Lords في اوروبا الا ان لا عبودية فيها . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيلة الفلانية هِجرتنا[1] اي في حمايتنا ، وهذا الرجل

---

(١) جاء في الحديث : من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأةٌ يتزوجها فهجرته الى من هاجر اليه .

حاشية ثانية : جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة من القرآن ، فكتب صلح الخطأ عالمان فاضلان الواحد افرنسي باريسي والثاني عربي نجفي . ولكنت وقفت ند شكر العالمين لو لم يكن اسلوب كليهما في النقد يستحق بل يستوجب هذا التعليق

كتب العلامة المستشرق لويس ماسنيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الافرنسية واردفها بهذه الحاشية : في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال انها من القرآن فيجب اصلاحها . .

وكتب العالم النجفي مقالا طويلا بليغاً في عمود كامل من الجريدة فوبخني توبيخاً، وشتمني شتماً ، وذمني ذماً لا يليق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اميز بينهما

اني مذنب يا حضرة المجتهد النقريس . ولكني اتعزى بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته : ان الملك حسيناً نفسه يغلط احياناً في الايات ويخلط بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٦٥ من جريدة القبلة والعدد ٤٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

هجري فتى كانوا كذلك فالعلم من وجهة سادتهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاء ضغط على رجله فنزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيتي وقال بصوت خافت : كل الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طماع كسلان متكبر . هذا المثل — واشار الى السيد قدامنا — وهذه اعمالهم — واشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله — يحملني حذاءه .

وليس النصارى في مذهب الزيود وفي جهلهم احق من اليهود بالكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، احد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يمر به . — ابعد يا يهوده ضربك الله بروحك ! زادك الله عماوة يا يهوده ، اخل السبيل ! وقد لا يكون المسكين في الطريق . ولكن حزاماً وهو شغف بحب اليهودي يراه على مسافة قادماً نحونا ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن انه يرضيني بذلك . ثم يبصق عليه ويهتف قائلاً : لولا الامام . بلى ، لولا عدل الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفد صبري عليه ، اني اشكوه الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هذه الفعلات . فصار بعدئذ اذا رأى ذا السوالف قادماً في جهة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مرَّ به اتفاقاً يميل بوجهه ساكتاً صابراً كأنه لم يره .

وكان السيد محمد ، رفيقنا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الحائزين على ذا الانعام من حضرة الامام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيهم وهو مدينة معتزلة بينها وبين بير العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشرارة الكائن بين صنعاء وبير العزب . فزادني بذوي السوالف علماً وبالامام يحيى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال : يجب على اليهود يا امين ان يرسلوا السوالف كي

لا تظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأ. ويجب عليهم ان يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل الفخامة. ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف[1] من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد مالهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان لا يتجاوزوا الطابقين علواً فيسلم اليهودي اذا وقع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا اصلهم وجنسيتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السمحاء وفضله عليهم . ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم وبصق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي بذبح فدان . فاذا ثبت الذنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً ما يتمنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان . ولا نجيز لليهودي التملك. الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة ، تسعاً وتسعين سنة . ولا يخفى عليك ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ونجيز لهم ان يصنعوا النبيذ فيشربوا . ولا يبيعوا غيرهم فيحزنوا . ونجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فنستخدمهن في بيوتنا ، وندخلهن حرعنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام .

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال . هم راضون شاكرون ما دامت الجزية وهي تافهة تخلصهم من التجنيد . وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرانية القديمة . فلم يدخل عليهم من جديد، او بالحري من غريب، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه الترك ، فهو لا يزال يدعى حاخام باشا .

قلت انه لم يكن احد ليدخل منزلنا الا باذن من الامام . ولكن يهودياً كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميرية واوصيته على غيرها

---

(١) هو من باب تسمية الشيء بضده . واليهود في صنعاء يرفعون « الزخارف » ويبيعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الوقود .

ادهشني ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان . فظننت ان الحارس حزاماً نائم او غائب ، والا فكيف يأذن له بالدخول . سألت اليهودي فقال : هو في الباب . فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت . فاشتريت منه ما اشتريت ودفعت المال فزال اذ ذاك العجب . مشى اليهودي مسروراً والمال في جيبه حتى وصل الى الباب فأوقف هناك ، فرأيت اذ ذاك حزاماً ويده على تلابيبه والبندق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي ويده في جيبه يخرجها ويقاسم الزيدي ما قبضه مني من المال . الا اني لم اتحقق مصدر الفساد والخلل ولولا علمي بتفوق الزيود واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا السوالف رشى ابا النيل ليأذن له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض ابو النيل على عنقه وابتز منه ليس نصف الربح بل نصف المال كله . وقد يكون الزيدي في تغاضيه عندما دخل اليهودي ، نصب له الشرك الذي وقع بعدئذٍ فيه. كأنه قال لنفسه: القنص للقناص . ليربح من ضيف الامام وانا اربح منه . ان بيت الاول من زجاج مصبوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط . الواحد يحب المال ، والثاني يشتهي « الظلط » وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين ؟ وهل في الاقتصاد ما يستقبح وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الاكبر ؟

اظن ان الامام يحترم اليهود ويحبهم ويقيم فيهم العدل فيأمر بذبح الفدان اذا اهينوا ، لانهم المثال الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام الايمان . المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فاذا كان اليهود في عهده آمنين مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين ، فالزيود وقد حرمهم « الظلط » امسوا من امهر الاقتصاديين والناس على دين ملوكهم .

ان اول ما شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن هي طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادرِ ما تلك القصاصات المكردسة التي

رأيتها لاول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ، ونحن في إب ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من « كابون » الدولة العلية . ثم وصلنا ونحن في زمار من عامل اب برقية اخرى مكتوبة على قصاصة من معروض بالتركية مرفوع الى جناب قائمقامية حراز العالي . فالامام يحيي الذي غنم من الترك المدافع والسلاح احتفظ بما تركوه من الاوراق والدفاتر والكابونات والمعاريض ولم يأمر بتقطيعها وباستخدامها في ادارة السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي المخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية . اما في البلاد وبين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة الامام وقد تكون بخطه الشريف ، فتقرأها ثم تنظر في ما لها من هامش فتقطعه وتجاوب عليه ، وتلف الجواب سيكارة وتعيدها مع الرسول . واذا اسرفت في الورق واضعت مقدار ختم منه دون ان تسوده توبخ على ذلك ، وقد تعزل اذا كنت موظفاً في الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف فتشقه وتستعمل ظهره للمراسلة واذا كانت الرسالة من صنو وهي على قدر بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطراً كنعلة الفرس او سطرين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في بيت او بيتين من الشعر . ومما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط وينعق كثيراً في الليل . فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زباره يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير التموين والضيافة . فاغتنم فرصة وجوده عندنا لنراجع ما تكردس

على رأسه – ومكتبه ايها القارئ، على رأسه – من الرسائل والحسابات . فنزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع القسم الابيض منها ويعيده الى مكانه ثم يمزق الباقي . ومن الرسائل التي اطلعنا عليها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو ريالاً في ريال في ريال
فسمن والحبوب وما سواها لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع مئتي ريال الى احد العمال . فقلت له : أتمزق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول : اذا دفعت الفي ريال لا أسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان تبرز الامر فاجاب قائلاً : لا ينسى ولا يسأل . فعجبت لهذه الصلة ، صلة الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين ، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللفافات وفيها الشكايات نظماً ونثراً ، اني لا ازال اذكر منها رسالة جاءتني يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعني الى الجوزاء وتركني هناك ، ان القات في شهر الصوم غال جداً وان الله لا يخيب امله « باميو المحسنين العزيز امين » وما اغرب ما ترويه هذه الرسائل واحزن ما تفشيه ، وفيها شكوى البارح وراء شكوى اليوم ، وبين الاثنين او على هامشها بياض يسوده الغد بما قد يكون ابعد غرابة واشد حزناً .

ان الاقتصاد فضيلة . ولفضيلة الاقتصاد بالورق في اليمن شقيقة اجمل منها ، الا وهي الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وبما يوجبه الايجاز من اهمال الالقاب وعبارات التبجيل . اوَ ليست الصراحة والايجاز والخطابة البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم في ما دخل

من بلادهم في حكم الاتراك كالحجاز مثلاً وبعض نواحي اليمن وعسير ، امسوا اتراكاً في ما يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون ويفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فلا يزالون من العرب العرباء . الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الالفاظ وضخامة الالقاب . وهاك مثالاً من تباجيلهم . اذا كان المخاطب اميراً قالى : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة النجباء الفخام ، عالي المجد والمقام ، فخر العرب والاسلام . . . . واذا كان اماماً قالى : خلاصة الاطهار الامجاد ، وروضة المجد الرفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال ، الركن الاسند والسند المستند . . . واذا كان سيداً بسيطاً قالى : ذي الاخلاق الزكية ، والشمائل المرضية ، الهمام المقدام ، الرفيع المقام ، التقي النقي . .

على انه يسر كل من يكبر في العرب شمائل الاجداد ان يرى في خطوط الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجاز اللذين امتازت بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندي فوق ما اشرت اليه نموذج باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة . قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه تتم الامور والسفر يوم الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم تتم تلك الليلة ، ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرّف الصديق في الساعة السابعة او العاشرة من ذاك الغد . الا انه جاءنا في اليوم التالي والطيب ينتشر من اردانه ، « والتخزينة » بين اسنانه ، « وظاهر وماشي » تتمشى في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان تتعشوا عندي . فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح يشكو الصداع ويداويه بالقات وبالآيات .

الفصل الثاني عشر

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدة – وعد من وعود الحرب – الترك والامام – الترك والعرب بعد الهدنة – تسليم الترك في لحج – اخراجهم من الحديدة – احتلالها – احتجاج الامام – جواب الانكليز ووعدهم – تسليم الحديدة للادريسي – سياسة الانكليز العربية – المفاوضات – بعثة الكرنل جاكوب – عرب التحراء يوقفونها في باجل – الانكليز في الاسر – الامام يسعى في التاخير – رجوع البعثة وفشلها – الامام يحمل على النواحي المحمية – احتلال الضالع وغيرها مما في حماية الانكليز – المفاوضات – الهدايا – الدسائس – التسويف والمماطلة – شروط الامام – مقاصد الانكليز .

الحديدة كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء . هذا يبغيها ولا ينفك يطالب بها ، واولئك ، وقد وهبوها صديقهم الادريسي ، يودون لو كان بامكانهم ان يهبوها كذلك الامام . وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بعدن . وما العمل ؟ ايمكننا ان نقسم المدينة بين الامامين، الامام الزيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير، فننجو من الكابوس . أوَ يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوبي اليمن بفيلق من زيوده فيضطرهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه؟ انما هي مسئلة المسائل .

الحديدة من المدن العربية المشهورة. كانت في عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الفاً . وكان الترك ينزلون فيها العساكر لاخضاع اهل اليمن فمدوا منها الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة افرنسية امتيازاً بسكة حديد تمد من الحديدة الى مناخه فصنعاء ، فباشرت الشركة العمل بما ارسلته من مواد البناء ، فنشبت نار الحرب في اوروبا فقضت على المشروع وذهبت

تلك المواد نهب العربان .

وقد كانت الحديدة اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم اليانيون اربعين سنة ، فانتزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد . ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداءهم وهم اخوانهم في الاسلام ، فحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في الفصل السادس وظل معتزلا السياسة والحكم مقيماً في جبال شهاره . كان يومئذٍ محمود نديم بك والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتها البلاد كلها من لحج حتى صنعاء ومن اللُّحيَّة على الساحل حتى المخا . اما العرب من شوافع وزيود فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذٍ المال .

ولما أعلنت الهدنة سعت بريطانيا العظمى باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كلحج دون قتال ، وابوا في الحديدة وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولا الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضربت الحديدة البلد الآمن غير المحصن . فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل عساكر الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيي وقتئذٍ الى صنعاء وسلمه الوالي محمود بك نديم[1] زمام الاحكام في اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدة طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يحتج على ذاك الاحتلال فجاءه الجواب يقول :

---

(١) لم يكن في صنعاء يومئذٍ غير ثلاثة طوابير ، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ، في شبه حصار ازدادت شدته في اواخر الحرب .

انا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليكم وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية في المسئلة . اما حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلك الحكم من البلاد أضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية وتقليدية وجغرافية تثبت حقه وتؤيد دعواه .

ولكن الانكليز رغم وعدهم المذكور سلموا المدينة بعدئذ الى صديقهم الادريسي الذي كانوا يمدونه وهو حليفهم بالمال والسلاح ليحارب الاتراك ، عملاً بمعاهدة بينه وبينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين نصروا الاحلاف . انا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان نثبتها ولا نخفي جزءاً واحداً منها والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصروا يومئذ الاحلاف نصروهم لاغراض خاصة ، اغتنموا تلك الفرصة لتحقيقها . فكان الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي بعدئذ ضربتين وثلاثاً . اجل ، قد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود فكان من الخاسرين . وحمل ابن سعود على ابن الرشيد فكان من الفائزين . وظل السيد الادريسي بعد الهدنة وبمعاونة الانكليز يحارب خصمه الامام دون قصد يُشكر او نتيجة تذكر .

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصداقتهم من ساعد الحلفاء في تلك البقعة من الارض على من ظل معتزلاً . ولا نلومهم في تفضيل الادريسي على الامام ، وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين على ابن سعود . فقد كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك . ولكننا نلومهم لانهم استمروا بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت الثلم بين امراء العرب المتخاصمين . وظلوا بالرغم عن معاهدات هي وضعاً تختص بالحرب العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام[1]

(١) كان الكرنل جاكوب المعاون الاول في دار الاعتماد بعدن عندما عقدت

فاذا تساهلنا في تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرقاء في قضية الحديدة .

قد أبرزوا بجزء صغير من وعدهم فخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً. فضلاً عن انهم في هذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدة كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الاعلى اذ سدوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعاء العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي الشرعي فامست في شبه حصار لا اتصال لها بالعالم لا عن طريق الانكليز الثانية في عدن .

لم تنقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعاء. وقد اثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان تبعث بعثة سياسية الى الامام يحيى وزين الامر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدة في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد الى صنعاء . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وتراجمين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير

المعاهدة بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعاهدة مع السيد في جيزان . وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة منها التي تقول : ان حكومة بريطانيا العظمى تتعهد بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من التعديات الخارجية كلها دون ان تتدخل في شؤونه واستقلاله. وقد فسر الكرنل جاكوب مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئذ غير الترك . هذه حجته في ان الحكومة لم تساعد الادريسي على الامام . وحجتنا في ما يفسد حجته هي واقعة الحال بالذات التي يثبتها هو نفسه في كتابه . فقد جاء في صفحة ١٧٨ في كلامه على الادريسي والحديدة ما يلي : قد استنجد (الادريسي) بحاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول بان الادريسي جند بعض اولئك العرب فاخذوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قليلاً معه ثم عادوا الى بلادهم .

من الحديدة كأنها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتتثبت احوال البلاد التي ستمر بها . وقد تكون استعلمت ولكنها خُدعت .

ان في تهامة بين الحديدة وعُبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة هناك ببأسها وسطوتها وعزة جانبها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية ، عربها من السنيين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدة ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان القنصل الانكليزي في الحديدة يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف عنيد ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطأنها .

خرجت البعثة من الحديدة تجر اذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة ومعها الهدايا الثمينة تقدمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطمئنين آمنين ، فمرت بباجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك ، فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نُصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وانزلوهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ في ما يتعلق بالسفر لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي ، بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه[1] خبر ذاك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق . الا انه وقف في بعض الاحايين عند حد توجيه السياسة .

---

(1) Kings of Arabia : Chapter XI . My Mission to the Court of the Imam of San'a . الفصل الحادي عشر : رسالتي الى الامام في صنعاء

وقد يكون احسن الظن في غير محل الاحسان واساء. فهم امور قد تغمض على اثقب الناس فكراً من العرب انفسهم . كان الشيخ ابو هادي مثلاً ، وهو شيخ مشايخ القحراء ، عامل الامام يحيى يومئذ في باجل ، على ان لم يكن له في قبيلته تلك السيادة التي توهمها الكرنل وتوهمها الامام. او ان اباهادي خدع الخصمين ، الزيود والانكليز ، ومكن عشائره من الفوز عليهما .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيالاً ليلاقي البعثة ويرافقها الى صنعاء. ثم ارسل محمود بك نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويمكنها من استئناف السير اليه « وجاء مندوب سياسي الى الحديدة يعرض باسم حكومة بريطانيا العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القحراء ليطلقوا سراح المأسورين ». ثم تداخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز. ثم طارت طيارة من عدن الى باجل قصد الارهاب والترويع وعادت دون نتيجة تذكر .

لم يلن عود القحراء ولم يزعزع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية عزمها . فهي كما علمنا لم تأسر الانكليز لتذلهم وتنتقم منهم ولا كما تبين طمعاً بالمال ، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء. لانها كانت تخشى اتفاقاً يتم بينهم وبين الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدة في الاسبوع الثاني من الاسر لأذنت بذلك .

استمر الاسر اربعة اشهر ، فادركت اذ ذاك الوزارة الخارجية بلندن فشلها واصدرت الامر برجوع البعثة . ولكنها لم ترجع الا بعد فتنة دُبرت لحفظ كرامة الحكومة البريطانية[1] وعندما تم الاتفاق في الحديدة بين

(١) أطلق سراحنا بموجب اتفاق عقد في الحديدة ، بعد فتنة دبرت بين عقلاء

الوكيل السياسي ووفد القحرا. أُطلق سراح الانكليز في باجل وأُعيدت اليهم الامتعة والسلاح المحجوزة كلها[1] واصحبتهم القحرا. بالفين من رجالها المسلحين يشيعونهم الى الحديدة .

اما الامام يحيي والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والانقلاب . أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا العظمى ؟ بل الارجح انها انقلبت علينا فأنها وايم الحق تستطيع ان تبيد القحرا. ، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل .

وكانت النتيجة ان الامام ، وقد رجح انقلاب الانكليز ، بادرهم الى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم الى ذلك ، فلجأ بعد ان نفد ذرع السياسة الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي التسع المحمية ، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ ، جزء لا ينفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش . وكأن الامام في هذه السياسة او الخطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدة او يضطرهم ان يسلموها اليه

زحفت الجنود وكُتب لها النصر في اربع من تلك النواحي[2] فتردد

القحراء ومشايخها فالعقلاء نقموا على المشايخ لانهم اسرونا . . وخضوا عليهم . . فاضطروهم ان يرسلوا وفدًا الى الحديدة للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٣

(١) قبل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء . قالوا : اعطنا وصلًا بها لان الصلاة لا تحل لنا قبل ان نبرىء ذمتنا فاعطيتهم الوصل حالا . فقالوا : ولكنك لم تعد الصناديق . فقلت : ولا انتم عددتموها حين حجزتموها . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٥

(٢) هي الضالع والشعيب والاجعود والقطيبي .

صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المتحمسون : الى عدن ! وقد كان اصدى الصدى في دوائر لندن السياسية وقع سيء. فاستبدلت الحكومة معتمدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استؤنفت بعدئذ المفاوضات الولائية ، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية المأثورة : تهادوا وتحابوا . حملت الجمال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والخيل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن.

كان قدمر سنة على هذه الحال عندما كنا في صنعاء. ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر . واني اذكر كلام احد رجال الامام في هذا الصدد ، قال : ما كنا نهتدي في رسائل المعتمد المتسلسلة تسويفاً وابهاماً الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز . وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلمية يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق . وقد بؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العالية النبأ الثابت القاطع في الامر . . . النواحي التسع لنا هي حقنا . والحديدة كذلك لنا . ولا بد من احد امرين ، اما البر بالوعد من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب . اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم وبين الترك فالجواب بسيط . قد عقد ذاك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فحاربناها وغلبناها واخرجناها من البلاد ، ولا قيمة عندنا لاية معاهدة بينها وبين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي اقتفاء اثارهم .

على ان الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر فلا بأس اذا اقتفى سواهم هذا الاثر الحميد. والسيد

احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاويز ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، ويتأسف على عهد كانت « الظلط » يكال فيه كالبر وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما في اهله وفي تقاليدهم وعاداتهم من اسباب التقهقر والخمول ، اشرف الاقطار العربية اسماً ، وانزهها خطة ، وامنعها جانباً ، لانه وحده اليوم مستقل مالياً عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، ويأبى التقيد بشيء من مالهم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدبين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء من احوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الابر ، والاقتصادي الاكبر ، غني مستغنٍ . وهي وايم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . ولكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيدة » قضية الحديدة ، قلت في نفسي اسفاً : علمت شيئاً وقد فاتتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بل ضعفيها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم وبين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدى اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدي لهم رأيي الخاص بها . اما الرأي الذي صرحت به في دار المعتمد فهو ان الذهب مفسد لاخلاق العرب ، مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم كسلاً وخمولاً واتكالاً . ولا يجوز للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستمروا في بذله مشاهرات ومسانهات ، لا استغواء ، ولا استرضاء ، ولا استيلاء .

ان الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب هي ان يعقدوا والامراء عهوداً ولائية تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنية على الثقة المتبادلة والمصالح المشتركة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها . لا بأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديدة وجيزان والحسا وغيرها من البلدان ، فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدودة . ولكن الامراء وعقلاء العرب لا يستحسنون بل يستنكرون وجود الوكيل السياسي في بلادهم . اني ارى الغاء هذه الوظيفة امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلائق وتثبيتها بين الحكومة البريطانية وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها . هي هي سلاح السياسة الانكليزية في البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السياسي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع ، وتحيط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود التي تقدسها التقاليد الى ما وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيتية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعميم . اذا كان اولياء الامر واحد ملوك العرب في مأزق من المفاوضات او العلائق ضاقت فيه عليهم الابواب ، وكانوا عالمين بان لذاك الملك او الامير عدواً من اهله او من رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بواسطة الوكيل السياسي فيستغوونه بلقب او بذهب او بالاثنين معاً ، ويستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ، اذا حدثتهم في الموضوع ، يبادرون الى السؤال عن حاشد وبكيل . هوذا موطن الضعف في حكم الامام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بواسطة مشايخهم غير المال سبيل . ان حاشداً على الخصوص مقيمة بالقرب من حدود

الادريسي، والادريسي صديق الانكليز وحليفهم ، وللانكليز عنده وكيل سياسي ، وكفى . افلا تراهم ولسان حالهم يقول : اذا كان الامام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل عليه في حاشد وبكيل[1] . ولكن الامام يحاربهم علناً في الفلاة وهم يحاربونه بالتجسس والاغراء .

اما الخلاف بين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديدة . ولكن مطالب الامام يحيى تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد . ان موقفه تجاه النواحي التسع ، اذا كان مجرداً عن الغرض السياسي الخاص ، لموقفٌ وطنيٌ شريف . ولكني اظن ان السياسة تتغلب فيه على الوطنية العربية القومية . فقد قبل الامام ان تخرج جنوده وعماله من الضالع والشعيب والاجعود وبلاد القُطيبي التي احتلها ، على شرط ان تكون ادارتها وادارة اليافع والعوالق ولحج وحضرموت بيد امرائها وليس لحكومة انكلترا ولا لحضرة الامام حق التدخل في شؤونها ، وعلى شرط اخر ، هو الاول طبعاً ، وهو ان يخلي الانكليز والادريسي الحديدة واللُّحيَّة والصَّليف وان تسلم هذه الاساكل البحرية وجميع ما كان بيد الترك في اثناء الحرب الى الامام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شروط فيه .

اما الانكليز فالقصد الاول والأهم في تقربهم من الامام وابتغائهم عقد معاهدة معه هو على ما ارى ان يبقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك صديقاً لهم . ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط ، ولا هي اسكلة تجارية بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المتزهين عن السياسة الاستعمارية ، والكرنل جاكوب منهم . بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً واخراً مدينة حصونٍ بحرية ومركز حربي خطير . فاذا كانت كذلك فتأمينها اهم ما ترغب الحكومة فيه . واذا استطاعت ان تأمنها الى حد تستغني

---

(١) راجع الشرح في صفحة ١٩٦ .

فيه مما تضطر ان تقيم هناك من التحصينات الحديثة والجنود فلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

غني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية ، وهذا قصدها الاكبر، لا تتنازل عن معاهدات عُقدت بينها وبين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغي توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الحديدة فامرها من هذه الوجهة ثانوي[1] . ولكان افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصراحة . لكنهم يسلكون الى محجتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فياطلون ويسوفون ويحاولون اضعاف الامام وافساد امره بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الخائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة . اما ما قد يتناول كل فريق عنه الى درجة تقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية — الانكليزية او اليمانية — بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

---

١) يثبت هذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديدة والاماكل الاخرى التي كان يطالب بها اي اللُحيَّة والصليف

الفصل الثالث عشر

تتمة المفاوضات

الوفد الافرنسي – المنافسات السياسية – الامتيازات – المعاهدات – الفرنسيس والانكليز في افغانستان وفي اليمن – غريب على غريب – الامام يستفيد – احتكار تجارة البن – ميناء المخا – السلاح – الدخيل في عسير – الخطأ في سياسة الامام – المثلث الزوايا في قضية الحديدة – الانكليز بين السيد والامام. الشوافع حائرون – الامر ناضج للسلم – المؤتمر – برقية وكتاب الى صنعاء – الجواب.

لو كان الافرنسيون الذين غشوا صنعاء يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبغون من الامام امتيازاً، ولما جاؤوا في رمضان ومعهم من الخمر انواع يحتسونها في الطريق وامام الخدم في عاصمة الزيود. فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان ينبغي ان يتنازلوا عنها اكراماً لاهل البلاد، ولخير انفسهم لو عقلوا، اثار عليهم ولا شك تعصب الخدم الزيود فسقوهم وراء الخمر ماء الوضوء من بركة الشاذروان.

قد لا يهم الافرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة. لكن بعض العارفين قالوا انهم سياسيون جاؤوا يبارون الانكليز في خطب ود الامام لذلك لم تأمر الحضرة الامامية باستقبالهم رسمياً، وعندما وصلوا الى بوابة صنعاء اوقفهم الحرس هناك ليعلموا الامام، فاذن لهم بالدخول. ثم بعد ثلاثة ايام حازوا شرف المثول بين يديه.

ولكنهم منحوا ما حُرمناه وهو الاذن بزيارة «جرجي» مدير معمل الخرطوش. كأن لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنًى خاص يخفى احياناً على ضيوفه اصحاب الانعام ان في اجتماع الافرنسيين بجرجي برهاناً واحداً على ان مهمتهم تتجاوز حدود التجارة. هوذا معمل الامام، وهوذا احد

رجالكم ايها الافرنج في خدمته، فهو يستغني اليوم عنكم في الذخيرة وسيستغني عنكم غداً في السلاح . فاذا عاهدكم فكأقران يتبادلون المنفعة .

اما الافرنسيون فيغارون كما هو معلوم من الانكليز . ويقتفون اثرهم حيثما ضربوا وحلوا . عقد الانكليز امس معاهدة مع امير افغانستان فتقفاهم الافرنسيون واثبتوا امرهم سياسياً وفنياً هناك. احس الافرنسيون ان الانكليز يبغون عقد معاهدة مع امام صنعاء، فسارعوا الى منافستهم في اليمن ، والامام مطلق الارادة بمنح امتيازاته من يشاء ، ويعقد المعاهدات مع من يشاء .

على ان الافرنسيين سبّاقون في اليمن وفي تجارة البن . فقد تقدم ذكر البعثة التي جاءت عن طريق المخا في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة تتسع عندها لمصلحة البلاد حدود الدين ، وتتفكك من اجلها قيود المذاهب . والامام يحيى اليوم يقتفي اثر اجداده الكرام ، ويستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حد يوجب الايضاح والتفصيل .

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لهما بشيء من النفوذ داخل بلاده فتكون الاثنتان بلية عليه وعلى بلاده. تقتتلان في سبيل المصلحة فتقتلانها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب . فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته جمعاء ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء . واذا كان له عدو واحد في رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سياسي . واذا كان في البلاد حزب واحد على الامير يصير فيها حزبان وثلاثة .

اننا نعلم حق العلم ان كل وكيل سياسي في بلاد سيادتها الوطنية ناقصة يتخذ له حزباً من اهل تلك البلاد الناقين لاغراض خاصة على حكومتها ، فيستخدمه لمصلحة حكومته وبلاده .

اجل ، اذا كان ثمت خير في مفاوضة اثنين بامر واحد فان ذلك الخير يزول اذا أشرك به الاثنان. وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الافرنسيين اليوم كما يستخدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كلّ او جلّ ما يبغيه واول بغياته واهمها الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر. جاءت البعثة الافرنسية تطلب امتيازاً باعادة بناء ميناء المخا المهدوم ، وميناء اخر في الخوخه ، وباحتكار تجارة البن ولكن الامام، اذا استعاد الحديدة، فقلما يهتم للمخا والخوخه . ولا سر هناك في تفضيله . الا انه يريد ان يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديدة اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل الاستغناء في جميع الامور .

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الافرنسيين تجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا ويطلبون امتيازاً في المتاجرة من طريق المخا . وقد علمنا انهم لم ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن. فالامام لا يسلم بذلك، ولكنه يعاهدهم على بيع حصته او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، ويشتري منهم ما يوافقه من السلاح .

السلاح ! لا شيء في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبة لامراء العرب اشد من رغبتهم في السلاح . فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارئ جواب الامام عندما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله . فقال : اليسير . اليسير . وهو يطمع ببسط حكمه وسيادته على اليمن كله — اليمن القديم من حضرموت بل من عُمان حتى اخر بلاد عسير . وقد طالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرجه من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيها . كنت اسمع هذا الكلام ساكتاً لاني لم اكن اعلم يومئذ غير اليسير من امر السيد الادريسي وبلاده .

ولكني بعد رحلتي في عسير، وزيارتي السيد في جيزان، ومحادثتي الناس من سادة وعامة في تهامة ، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام، وتأكدت انه لا يستطيع بتلك السياسة ان يستولي على الحديدة . وأنى له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر؟ فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على ما اظن مثلها بين الملك حسين والامام. وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم وموازرتهم .

ان القضية في اجلى بيان تتحلل اذن الى ثلاثة اجزاء . الاول والاهمّ هو وجود الانكليز بين الامام والادريسي. هذه حقيقة لا يمكننا ان ننكرها او نغضي عنها او نفر منها . الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا بالامس عوناً للاتراك في سياستهم اليمانية والثالث هو وجود الحديدة، وهي محور النزاع، بين الشوافع والزيود والانكليز . وقد امست بفضل السياسة والفوضى اليفة الخراب والبلاء .

قد كان الادريسي يومئذ يميل الى السلم اذا حُددت حدوده على حال مرضية. وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بفتور منه بل بنفور فيه. فاستحسنوا سبيل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة الامام يحيي . اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب الدائم عذاباً واهوالاً ، فكرهوا لذلك الامامين ، وغدوا في حال تحبب اليهم اصغر الشرين .

اذا كانت الحديدة باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم . وكان الامر كما بدا يومئذ لذي عينين ناضجاً للسلم ، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك. ووسيلة السلم المؤتمر . فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها فكرة مؤتمر يعقد في الحديدة او في عدن ، يحضره وفود المتحاربين واصحاب المصالح

المشتركة في البلاد . فجاءني الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك : — لا حق للادريسي في جميع اليمن ، لا حق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور العثماني في الحديدة ، لا ثمرة في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر وكان قد ارسل المعتمد الجنرال سكوت لاسلكياً يهنئني برجوعي من صنعاء. ويقول انه راغب في مفاوضتي. ولكنني لسوء الحظ تأخرت في الحديدة وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم سافر المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئذ الماجر بارت وبعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامام في عدن التلغراف الآتي :

اني متفائل مستبشر لاني وجدت ارتياحاً الى المسالمة ورغبة في تحقيق مطالبكم بشروط لا بد منها . اي انهم يرغبون في ان يسلموا الحديدة الى الامام ولكنهم متعاهدون مع الادريسي ولا يرون لانفسهم مخرجاً في غير التسوية السلمية بين الطرفين اي بينكم وبينه . فهل تقبلون بذلك ؟ هل يقبل حضرة الامام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الادريسي وممثل من دار الاعتماد اذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديدة على شرط ان يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الادريسي؟

قد قابلت السيد في جيزان فوجدته قريباً من المسالمة وميالاً الى الاتحاد بشرط ان يُعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن ان عقد الصلح ممكن بينكم وبينه على شرط تسليمكم الحديدة وارضائه في الحدود الشرقية او الشمالية . ولا يتم الصلح الا بحسن النية وبالاجتماع والمداولة . عرفوني حالاً اذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة الانكليزية بخصوص الحديدة .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد اسبوعين من هذا التاريخ وانا انتظر في عدن واتألم من حرها وسوء هوائها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية لوجه الله ، جاءني من صنعاء بالسلك الى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجاب الى لحج ، ومنها مع رسول الى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما اخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الامطار « فتحير » اي تأخر وصول الجواب .

كانت المراجعة وصاحبنا . قد عرفتم حسن نيته ومحبته لكم . لكن الادريسي لا حق له في اليمن باي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نحب الا نجاح مسعاك ونحب صون بقية بلادنا عن الذهاب. لا لزوم للمؤتمر مهما كانت الحكومة الانكليزية تريد ذلك فانتم تقومون بكمال هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشرتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديدة وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام. وضحوا للمشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام .

ما الحيلة بهؤلاء العرب سادتنا أبناء عمنا ، اخواننا ؟ نريد لهم الخير الصافي الثابت الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخير الوقتي . اني على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم مخيماً على البلادين والولاء والتجارة صلتا العمران بينهما. ولكن النجاح في هذا السبيل لا يكون الا بثلاثة : الصحة والثبات والنفقات . وكيف لا والمواصلات في البلاد العربية قليلة الاسباب كثيرة المشقات ، فلا يستطيع من يتبرع بخدمة امرائها واهلها ، اذا لم يكون غنياً وممتعاً بالصحة والعافية ، ان يقضي بضع سنين جائلاً فيها ، رسول التعارف والتفاهم والائتلاف .

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب اخر الى صنعاء. لامكن هناك

الفكرة التي بدأت تحل في سياسة الامام محل الاستئثار ، انقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العبث ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد ان حجتكم في قضية الحديدة ظاهرة ثابتة ، ينصركم فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بها تضرون بمصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدة[1] .

---

(١) قد تمكن الامام من احتلال الحديدة كما تقدم في حاشية للفصل السابق . ولكنه لم يتمكن من اخراج الادريسي من عسير ولا اظنه يطمع الان بذلك وقد صبح صاحب عسير حليفاً لملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود وفي حمايته .

الفصل الرابع عشر

المعاهدة

الامارات العربية القديمة – توحيد الكلمة الدينية – توحيد السياسة – المداخلة الاجنبية – ملك العرب وملك الحجاز – المعاهدات مع الحكومات الاجنبية – الدفاع والهجوم – تهامة جزء من اليمن – تحديد المعاملة بالنقود الفضية – معمل للسلاح – مندوب للامام في مكة – مندوب الملك في صنعاء – صندوق توفير من مال الزكاة – الانشاءات العمومية – كتاب الى جلالة الملك حسين بخصوص المعاهدة – الختام .

لا بد من معاهدة تعقد في المستقبل بين اليمن وقطر آخر من البلاد العربية . وبما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي ستتبعه هي ذات شأن في تاريخ القضية العربية ارى من الواجب ان انشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع حضرة الامام وها هي بكاملها وبالحرف الواحد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك وَاعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تفرّقوا وبه يكون التعاون والتعاضد على انفاذ احكام الله كما يجب في جميع البلاد لعمرانها واصلاح شؤونها وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيها والاخلال بمصالحها وبراحة اهلها وتأمين معاش سكانها وتقوية صناعتها وتجارتها . فلذلك عقدت هذه المعاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيي ابن المنصور بالله محمد بن يحيي حميد الدين وبين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون على ما تحويه المواد الاتية لتكون دستوراً للعمل بعد تقدم اصلاح النية وجعل الاعمال مدارة على الشريعة الاحمدية في الاقدام والاحجام والنقض والابرام .

اولاً – البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها منذ قرون . وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية[1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها[2] .

ثانياً – يعترف حضرة الامام لجلالة الملك بالملك ويعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة[3] .

ثالثاً – يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان بيد اسلافه ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز

(١) « المطلوب اجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضعناه فابدله الامام بما تراه في البند وسلمنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » .

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجية » اطلاقاً . فاضفنا اليها الكلمات : « تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها » كي لا تنفي المادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهذيبية . ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية . ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك .

(٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملك العرب . وقضينا اسبوعاً في المفاوضات بهذا الشأن . فجاءني السيد احمد ذات ليلة بعد نصف الليل فايقظني من نومي وقال : يسلم عليك حضـ ـة الامام ويسالك خصوصاً ان تساعده في النظر بهذا البند . لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع ويأبى الامام ان يمس شعور جلالة الملك . فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل؟ يبغيه حضرة الامام منك فعدلنا وبدلنا وتناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيف جانبها . وقد رأيت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام خمسة

وغيره داخلية وخارجية . فليس لاحدهما احداث مقاولة اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً مجعولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما[1] والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر ا فعله ولا يكون معتمداً . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصة عاقدها وبمملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدى الحكومات .

رابعاً — بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجلالة الملك ومن تجري عليهم اوامرهما الشريفة من الامراء والتبعة عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل . وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطلب من اي الجانبين عند

اضاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحته حلاً لهذا المشكل وهو النص الحالي . وقد اضفت في المادة الثالثة بعد « ويختص جلالة الملك بسيادة ما تحت ادارته في الحجاز » كلمة « وغيره »

قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يعترف بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربة حملتا الامام على تغيير رأيه في الموضوع .

(١) كان الامام مصراً على رفضه عقد المعاهدات مع الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية . فقبل بالجملة الشرطية « الا ان يكون بعد المشاورة بينهما » وبكلمة « منفرداً » في الجملة التالية : اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك . . . منفرداً »

الاحتياج واللزوم وفي دائرة النصوص الشرعية

خامساً – عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلى من تطلب منه الاعانة اعانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية . وعلى الطالب للامداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة .

سادساً – بما ان المقدم قبل كل شيء . تأمين طرق المواصلة والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقرب لامكان المفاوضة والمواصلة بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدة ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليها او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذاكرات اللازمة في كلا الامرين وصفة المعاملات والحركات من الجانبين[1]

سابعاً – السكة الفضية الخالية من الغش وانواع الربى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابة من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية التداول وكمية القيمة والصفة المميزة للسكة .

---

(١) سلمنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بها السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحتياطية وهي « اما بسياسة يتفق عليها » بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نومل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالته اذ ذاك صلة الوصل او الواسطة السلمية بين السيد والامام حليفيه فيتمكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترضي الفريقين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابي الى جلالة الملك حسين بخصوصها في الفصل الحادي عشر والفصل الرابع عشر من القسم الثالث في هذا الجزء .

ثامناً – يتعين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء. ومندوب من لدن حضرة الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط في تعاطي المفاوضات والمذاكرات .

تاسعاً – معلوم احتياج المملكتين لانواع الاسلحة والمهمات الحربية وسائر انواع الترقيات الفنية واحتياجها الى ايجاد معمل وآلات لعمل الاسلحة وغيرها تقوم بالمقاصد . وبعد امضاء هذه المعاهدة من الجانبين تكون المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك من المصاريف والمأمورين والمحافظين والعملة وغير ذلك .

عاشراً – يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار يكون الاتفاق عليه لتصرف في ما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة . وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يتعين عليه في خزينته الى وقت اللزوم وتعقد تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتعاطاها الطرفان لتأمين تأدية كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين ولا يكون من احد تأخر بحصول المقاصد[1] .

احدى عشر – هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا كان الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه

---

(١) ان المقصود من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امارة ومملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع لمد السكك الحديدية والاسلاك البرقية وتمهيد الطرقات وغيرها وهي احدى الفكر التي كنت ابثها وابشر بها هناك والتي صادفت استحسان جميع ملوك وامراء العرب . وعقدوا النية على العمل بها اما تضامنا واما انفراداً .

بحسب ما تقتضيه المصالح وتداول الافكار فكل ما يستجبه بعد تقريره فحكمه حكم هذه المعاهدة. وبعد تمام العشرين سنة يكون تجديدها كما هي او تبديل ما يتفق على تبديله ان شاء الله تعالى.

حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠

وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين يني مصحوبة بكتاب الى الملك من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تفاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريبه من العقول في شكل عملي معقول. فلقينا في الامام يحيي اعزه الله اذناً صاغية، وهمة للعمل داعية. وهو في موقف الولاء ولا شك ثابت القدم مخلص القصد والنية. الا انه لا يحب ان يكبر في البدء خطواته، ولا ان يوسع كثيراً صراطه. وان التمتع باليسير الان، خير من الامل بالكثير. قد كانت لنا جلسات طويلات ومباحثات ومناقشات، يسمعكم الصديق قسطنطين خبرها، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع بنودها بقدر الامكان لتعم ما ننشده من الوحدة العربية. وقد فزنا بجل المرغوب وسلمنا ببعض الجزئيات التي لا تقدح بروح القضية او تمس بجوهرها.

ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضات الخطيرة في الامم لا تنشأ نشأة واحدة تامة كاملة. فلا بد لها من خطوات الى ذاك الكمال وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال. اما المعاهدة في صورتها الحالية فهي خطوة اولى مهمة الى الامام. فعسى ان تستحسنوا عملنا وتروا، وانتم مصدر الحكمة، صواب رأينا. وفي المستقبل القريب، بعد ان يتم توقيع المعاهدة، تتوفقون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص

توحيد الامور الاجنبية ، والنقود ، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها .
اذ حين تتم وسائل المواصلة بين جلالتكم وحضرة الامام فيكون له
مندوب عندكم ولكم مندوب في صنعاء تتبادلون مباشرة الاراء
وتتوفقون ان شاء الله الى ما فيه تمام تعزيز المصلحة العربية والاسم العربي
داخل البلاد وخارجها .

انتهى القسم الثاني



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

القسم الثالث

السيد الادريسي

بلاد السيد[1]

سنة ١٩٢٢ م. ١٣٤٠ هـ.

•

او ما يحكمه الادريسي من عسير

حدودها : غرباً البحر الاحمر. شمالاً ابو عَتنه على البحر. جنوباً الحُديدة. شرقاً جبال اليمن (وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان ١٣٤٠ كما يلي : آخر جبل ريَمه جنوباً للامام يحيي ، وجبل براع المجاور لرَيمه للسيد الادريسي . وآخر جبل صعفان شمالاً للامام ، واول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد) .

سكانها : نحو مليون نفس .

مساحتها : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

اهم قبائلها: رجال المعْ والمسارِحة وبنو مروان والقُحراء وبنو هلال وبنو عبس .

اهم بلدانها: صبيا وجيزان وميدي واللحيَّة والحديدة وابو عريش وباجل .

مذاهبها : السنيون: شوافع ، والشيعة: جعفريون واسماعيليون، والفرس واليهود والهندوس .

---

(١) بعد وفاة كبير الادارسة الامير محمد في نيسان ١٩٢٣ اضطربت شؤون عسير الداخلية والخارجية ، فضعفت شوكتها ، وتقلصت حدودها، التي تكاد تنحصر اليوم في جوار جيزان وصيا الى الجنوب والى الشمال ، وفي سفح الجبال الى الشرق .

الفصل الاول

سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها – بلاد العدو – الاخطار – ثلاث قوافل – الرحيل – السيد علي بومدب احد المكارين – جبل عُصر – طريق العربات – ودلو صنعاء – النبي شعيب – شبام – متنه – عساكر الدولة – « اربع ساعات الى صنعاء ! باد شاهم چوق يشا ! » – حمدان النعسان – ثلاثة فصول في وقت واحد – سطح اليمن – بوعان ولبنان – الخَيمه – حصونها الشاهقة وبساتينها – سوق الخميس – مجلس القات – الصبور والسعادين – منحق قبور اليمن – السامريّة – القيل – الفقيه الذي قتل تلميذته – حديث الجمال – رحم الله الدولة .

الكريم من لا يعللك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة . واذا اكرمك فلا يمن عليك . والكريم اذا كان متوظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول : نعم ، ولا يقول : نعم ، بعد ان يقول : لا . اما اذا قال : نعم ، فيشفع الاجازة مثلاً بالصنيعة والصنيعة بالبشاشة . ان الانكليزي في بلاده وفي حكومة بلاده هذا الرجل . ولكنه خارج انكلترا ، ولاسيا في الشرق ، مثل الواحة في الصحراء . لذلك هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله في انكلترا .

قد كان حظي في رحلتي اني مررت ببعض الواحات ، منها واحة في دار الاعتماد بعدن استأنست بظلها وانتعشت . اقول « بعدن » على الرغم مما لقيت فيها من العقبات . فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعاء ثم اسافر منها الى الحديدة لازور السيد الادريسي في عسير . ولكن الامام والسيد اعداء والبلادين في احتراب . اما الانكليز ، فاذا كان لا حق لهم في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان يمنعوني من الدخول الى بلادٍ صاحبها حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلاً في يدهم . سألت المعاون الفاضل

في دار الاعتماد، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء، ان يعطيني كتاب تعريف الى وكيلهم السياسي في الحديدة، فاجاب: هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك. وكان كذلك. فاجتمعت بواسطة المعاون بفاضل من افاضل الهند، روحه شرقية، وعقله شرقي غربي. هو الدكتور محمد فضل الدين الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا العظمى.

وكنت، وانا في طريقي الى صنعاء، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لا لما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها ولكني وانا في صنعاء. ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو، فتمثلت امامي تلك الطريق الى عدن، وآفاق الحياة فيها مربدة كلها. ثم جاءنا احد السادة يزيدنا كرباً وغماً في ما صوّره من الاخطار في منطقة الحدود بين الحجيلة وباجل — اذا سلمتم فيها فلا تسلمون من الاسر. الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام.

ولكن حضرة الامام عندما فاوضناه في الامر حقق لنا املاً في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بواسطة عامل جراز في مناخة وامير الجيوش الادريسية في باجل. وقال تهدئة لبالنا: اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم.

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شيء الصبر والتجمل. صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل، فتجلدنا على القضاء في تكرار مشقات عرفناها فازدادت في التصور شدة وبلاء. ولكننا وجدنا شيئاً من التعزية في الآية: وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. فلا تخلو الطريق بين بلدين متحاربين من الاخطار. وبينا انا افكر ذات يوم في ما اقول لمولاي الامير في ماويه وقد سألني: أحسني انت ام حسيني، وعرف بعدئذ اني مسيحي، وكيف اجيب في يريم ذاك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشد واياهم:

تصر الله المسلمين ، ورسول الخير امين ، بينا انا في هذه الورطة دخل الحاجب وبيده ثلاث لفائف قدمها لي قائلاً : من الامام. ففضضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمْري حفظه الله وتولاه وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى الله وسلم على محمد وآل هداته والله يحفظ ولي النعمة ويديم بقاه آمين .

وصلت الى هذا الحد وكدت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : يا رجل هذه الرسائل ليست لي . فاجاب وهو يحلف براس الامام ان قد جاء بها رسول من الديوان يقول : هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مغضباً :

صدر السلام وصدر جواب البوسطة المرسول الينا . العنوان لنا والمكتوب للريحاني كما تطلعون والله يحفظكم عامل حراز

في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠ علي الاكوع

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار .

اللفافة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله

بعد السلام والاكرام . ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم محمد فضل الدين وبوقته ارسلناه تلغرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم . اذا اشعرتمونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيله ليرافقكم الى باجل . قائد الجيوش الادريسية

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠ محمد طاهر

رضوان

القافلة الثالثة

حديدة ٨٣٣ ٧ — ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياكم الله وعافاكم . سرنا عزمكم لطرفنا . اهلاً وسهلاً بكم . حين وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهمام محمد طاهر رضوان قائد الجيوش الادريسية بباجل ما يلزم . وقريباً نراكم ان شاء الله باحسن حال .

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمد لله ! قد اطمأن بالنا وحسن حالنا . لا تظن ايها القارئ . ان اهتمامنا بمثل هذا الامر واشراكك بل اشغالك به هو ضرب من السخافة . فانك اذا رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها . فالحمد لله اذن على ساعة في ١٠ رمضان سعيدة ، بددت غيات ماوية وريم من سمائنا ، وفتحت لنا طريق الحديدة ، فصفا الذهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك عشرة ايام . ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديعه لطيفاً كريماً :

— ما تمكنا ونحن في رمضان ان نقوم بالواجب ونود ان تبقوا عندنا الى شهر العنب[1] قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيسيح في البلاد العربية ويرى غيرنا . فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا وبينهم .

ثم امر لنا بالركائب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على راحتنا ، فلم يدع شيئاً من مريحات السفر وحاجاته الا وفره لنا . مثال واحد

---

(١) عنب صنعاء مشهور بجودته وانواعه وهو يستوي هناك في اخر حزيران

من غيرته وعزمه. عندما جاءت المطايا صباح يوم الرحيل رأى ان سرج احداها بلا ركاب . فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتجم ، فضرب السيد علي يده على وسط الرجل واخذ الجنبية[1] منه قائلاً : رح هات الركاب . فراح المكاري الى المدينة راكضاً وعاد ملبياً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . — اذا كان هذا اهماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد تهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبل الامام الى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذ كنا نجتمع بهذين الفاضلين اكثر من سواهما وكان السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤنسين .

سرنا من صنعاء غرباً نبغي البحر . وما كنا لنتصور ما دونه من الجبال وما دون جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذاك اليوم الى رأس بوعان . ولكننا ايها القارىء العزيز لم نصل واياك اليه . اننا لا نزال بين صنعاء وجبل عُصر في سهل وسيع فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمراء البور « كباقي الوشم في ظاهر اليد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالشامات في وجوه البدويات اذا شئنا التشبيب . او كبعض الاوراق الخضراء — وهذا اقرب الى ما كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة — في شجرة عراها الخريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعه دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والجهل والخمول .

---

(١) للجنبية اي الخنجر عندهم قيمتان ، قيمة حقيقية في ما تصلح له ، وقيمة عرضية اجتماعية اي في ما توجبه المروءة واللياقة . فهي اذاً اعز ما يحمله اليماني ، وفي انتزاعها منه اشد تأديب له واكبر اهانة .

ان الهواء والسماء والماء تبسم كلها لارض اليمن . ولكن اليماني لا يستخدمها الا في ما يحتاج مباشرة اليه . فمما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما بحثت ، لان في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء ، كان يجري نهر هناك . ولا تزال المياه تتدفق من جبل نُقم في قني المدينة . ولكن الصنعاني يغني طيلة نهاره لجمل الساقية . او يقضي نصف نهاره في « تخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل الماء والثراء اجل ، ان هناك بين نقم وعُصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواقي والجمال . فلو استخدمت لكانت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناضراً . شيء محزن .

وهذه هي . طريق العربات التي بناها الترك انه ليحزنك كذلك مرآها وذكراها . بدأنا نصعد فيها الى جبل عُصر فحدثنا خرابها بفشل الدولة وشكا الينا اهمال الامام . هي طريق الحديدة الى عاصمة الاذواء ، الى قلاع الزيود ، بُنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران . بُنيت لجر المدافع ونقل الجيوش ، لا للتجارة والمواصلات المثمرة خيراً . تلفتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء . وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجته لها الشمس الشارقة فوق نُقم العاري العقيم .

وما اجمل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب . مدينة عجيبة كان لها من اسباب المجد والشهرة والعمران ما لأكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد ، لها مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيها الاسرار والكهان ، وعزّت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سبأ ، وكان حمير ، وكان قحطان . ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان . وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء . ناهيك بما خصتها الطبيعة مما لا يزول ابداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج ، وهي على دنوها

من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات . وفيها من الماء القراح وغزارته ما تقدم ذكره تكراراً . فلو عمرت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال . واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولها ، ومن البلدان العربية والافريقية الشرقية كلها ، ولغدت في اقل من عشرين سنة باريس البحر الاحمر .

اي صنعاء ، عاصمة الزيوت والجمود ، اننا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعاد اليك مجد الاجداد مشفوعاً بشيء من العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فترقيه في جسمه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدينته وبلاده وما سواها من العلوم لا نبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اى صنعاء عاصمة الاذواء ، اننا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من الناس ونحن واياهم من سليلة واحدة ، نفادي حتى بشيء من الوطنية من اجلهم ، فتصح اجسامهم اذا اتقوا الامراض ، وتنجلي عقولهم اذا فتحوا المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى وسره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وخمتمه ، ويودون ان تشاركيهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ، ونستودعك الله . . قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، وغنا تحت سمائك ، وانتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نحبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ، من يحبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تاقت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران — سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، في اللانهاية ، وستغبطه منا التراب والعظام .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاح في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . ولكنه ربيع آبد نحيل يكاد يطأ الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله

لا يحيا في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجبت عنا المدينة المحبوبة احتجاباً — ابدياً؟ الله اعلم .

وتلفتت عيني ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وهوذا النبي شعيب قريب بعيد . هنالك على الافق امامنا يلوح كالطيف اسحم رائعاً هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شُبام ، فيوافقنا اليوم وغداً ولا يحتجب ما دمنا منجدين .

سرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَتْنه ، وهي للقادم من مناخه او من الحديدة آخر مرحلة الى صنعاء . مَتْنه ! كانت في ايام الترك مربعاً لعرائس الحبور ولرسل السلامة والسرور . فكم من ابناء الدولة المجاهدين — المسوقين الى الجهاد في اليمن — كانوا يخرجون من تهامة فيموتون في قيظ السبخاء ، وفي الشعاب ، وفي « النقيل » وفي مضايق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف من يصلون منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم جوق ياشا ! وكانوا يقضون يوماً او يومين هاهنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم فيعيدون ، ويهللون ، ويبذلون من « الظلط » ما لا يزال صاحب « السمسرة » يتلمظ بذكره . فيهز رأسه اليوم آسفاً محزوناً ويريك البيت الذي كان قصراً في تلك الايام . . . وكم من يهوديات صنعاء خفّفن فيه من كرب المجاهدين وغمهم !

الطلول الدوارس هجرتها الاوانس

وقفنا في مَتْنه اكراماً لعساكرنا وقد اشتهوا القهوة ، قهوة القشر . وكلهم مسرورون لانهم مسافرون في رمضان — وَمَن كانَ مريضاً أو على سفرٍ فعِدةٌ من أيام أُخر — كلهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، ابى التمتع بتحليل النبي ، وكان الجائع النعسان على الدوام . فما ناديناه مرة الا وكان

ينعس فوق حماره وهو يمشي الهوينا مشية البقر ولا يلذ له الا مؤخر القافلة . اسمه — الدليل لا الحمار — حمدان ، فسميناه نعسان فزاد ذلك في الطين بلة . وكأن الاهانة لحقت به وبحماره فصار لا يُرى لا في مقدم القافلة ولا في مؤخرها . — يا حمدان النعسان انت الدليل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الوراء . رح يا حسن فتش عن النعسان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف الطريق فينتهره ويسوق بالبندق حماره . فيجيئنا التقي النقي ، الصائم النائم ، وهو يتمتم : بسم الله الرحمن الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بوعان . وهي بضعة اكواخ عند جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمراء وبيضاء . احسن ما في هذه الطريق جسورها . في بوعان اسطبل يدعى مقهاية[1] دخل « القراش » اي الدواب والعساكر اليه ورحنا انا وقسطنطين نبغي ظلاً تحت الجسر فبسطنا غداءنا الى جنب الماء هناك . وبعد ان اكلنا واسترحنا قليلاً استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل بوعان وتلف في الاودية لتصل الى مفحق ومنها الى مناخه . صعدنا في الجبل في طريق وعرة زلاء ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى اعاليه ، فصفرت فيه الرياح واعلمتنا بظهر من مظاهر الطقس مدهش غريب . اما الشمس شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، واما الزهور زهور الربيع ، اما الهواء فلا ربيع فيه ولا شيء من الصيف . كنت اذا اغمضت عيني اظن نفسي في اعالي لبنان في الشتاء . هذه ثلاثة فصول في وقت واحد .

ان رأس بوعان لسطح اليمن . وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء ، والغربي اي باب

(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الخان سمسرة ، وفي الطريق من صنعاء الى الحديدة يسمونه مقهاية او قهوة

مناخة . دخلنا الهيكل من باب صنعاء ، فمررنا برواقه بين انصاب جليلة ، وعمد رائعة ، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر . وما هي الا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب المخاوف والاهوال . ان المسافر ليجد نفسه في غير ما الفه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه قد وقفت تماماً ، فيشهق ولا يتنفس ، ويهتف ولا يتكلم . هنالك مشهد من الجبال والاودية رائع ، مدهش مخوف ، يهمس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ، ولا تكن فخوراً .

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك في اليمن عندما تقف على ذروة بوعان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ، رؤوس امواجه قنن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة الملتفة بعضها على بعض . وهنالك دون القنن الشاهقة ، والصخور الشامخة المسنمة ، والهضاب الهرمية ، والاودية المدلهمة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سريح وكوكبان ، هنالك الغيمة التي هي مناخة وشكلها كسرج الفرس ، داني عليها حزام ، فما صدقت ان سنكون فيها مساء الغد . وما هول المسافات والشواهق بشيء عند هول الوهاد والاعماق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوعان وشبام علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف . مناخه ! سنكون غداً هناك . انك اذا وقفت في بوعان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، فلا نظن ان ما خلقه الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبابرة ، الكامنة رؤوسها كمون العدو في السحاب . اما اذا حلقت الطيارة فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح اليمن في بوعان شرعنا ننزل الى قبوه في مفحق وبين الاثنين درجات لا تعد ، ووهاد لا قعر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتُسد فيها المنعطفات ، فيزل عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البغيتين . وكلما وقفنا لاح لنا في المشهد شيء جديد جليل ، في شعب هناك او في نقيل . ان جبال اليمن كجبال سويسرة في وهادها واكبر منها في اتساعها ولكنها غير مأهولة ، وتقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعاء الى مناخه لم نمر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدنا هي الحيمه . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراها الى اليمن في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداها ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان . وما اكثر ما يذكرك في اليمن بلبنان . ارض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقات . وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ، عدة احياء . كل حي قرية بذاته ، بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافة يتخللها شِعب او نقيل . اما السبب في هذا التقسيم والتباعد في قرية واحدة فهو يتصل كما أُخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حياً منفرداً بعيداً عن الآخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في مأمن من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لتراهم مع ذلك يحرثون الارض ويستثمرونها . اجل ، ليس في الطريق من صنعاء الى مناخة اخصب واجل من بساتين الحيمة النضة ودكاتها المستديرة الخضراء .

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمة في وسط المنحدر بين بوعان ومفحق ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك

الذي يصل مناخة بصنعا. استقبلنا العامل ورجاله فانزلونا في دار الحكومة، واستأذنونا بعد العشا. بان يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم مكرهين ضيوفاً ، لاننا في مرحلة استمرت احدى عشرة ساعة وفي اوعر طرق اليمن التي اجتزناها كنا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا بحزم القات وبالمداعات، فاقفلوا النوافذ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات، وطفقوا يدخنون « ويخزّنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفيالج. خرجت الى الفلاة لانجو من الاختناق ولما عدت الفيت القسطنطين، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطيارات وقد تأسف عندما نهضوا بعد نصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . فتحنا النوافذ لنطهر البيت، وما كدنا ننام حتى استفقنا على صوت الطبل طبل السحور

قمنا ، و « لا حول ولا » على الالسنة نشد للرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن وادٍ الى واد — نازلين الى جحيم اليمن ، الى القعر الذي لا قعر دونه في تلك الارض ، الى مفحق وما مفحق غير اسم لشعب ضيق مدلهم شاهدنا فيه لاول مرة الرباح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له اسماً غير الصبير وصبر ايوب .

من سطح اليمن في بوعان الى قبوه في مفحق مسيرة ست ساعات ، فيها منتهى الوحشة والوعورة . ثم من مفحق عدنا الى التصعيد ، ثم النزول مراراً ، فررنا بقهاية تدعى العجز استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدري بمحاسنه ، فلم يُبق على غير الشكل والعيون . سقت « القراش » بقربة ملأتها من البئر بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرية بلاد الزيود . قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلخال يشتغلن في الحقول، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء . وكأن الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يحزنون .

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكهنا احد الرفاق بقصة انستنا بعض اتعاب الطريق . كان الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن النكتة ، رافقنا من متنه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والاخر جمّال حطاب . قدم لي المحدث زبيش المداعة قائلاً : لا يهمهم الجدري ما دام الفقيه بخير . لهذا الرجل – اشار الى الشيخ الذي كان نائماً – امرأة مثل من رأيت وجه حسن ولسان حلو . وله فتاة اشتهت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت . فقرأت المسكينة اسبوعاً فقط ثم – وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى – وقعة في الشرك . طلبها الفقيه من امها فأبت فافرغ البندق في بطنها . ورأس الامام ! فقلت : قتل الام ؟ فاجاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعاء . وهذا الشائب – مسكين يجب ان يحمل كفنه معه في السفر – هو زوج الام وابو الفتاة . راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتهون دفع الدية .

– وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فلا خوف على حياته . تقبل الام الدية . ورأس الامام ، وتسترجعه لتكمل القراءة . وما قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

– واذا ابت ؟

– المأمور يا افندي يرتشي برطل زبيب .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشيهم بالظلط . الترك يأكلون الزبيب .

فقال القصاص : خير الجود الموجود . كانت الظلط في تلك الايام مثل الزبيب اليوم . وكان يحملها الترك من مناخة الى يوعان ثم الى صنعاء في

موكب عظيم. انا مشيت مرة فيه ونجوت والحمد لله. موكب عظيم يا افندي. هذا الضابط حامل الظلط ، وهذا الجيش قدامه ووراءه والى يمينه ويساره ، وهو في الوسط مثل العروس يحرسها الفان من النظام[1]. وهناك وراء بوعان الثائرون يكمنون للترك فيسلبون الظلط ويذبحون النظام .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، انقل لهم الحطب . مجيديان اجرة الجمل . وكان ابي واخي وعمي يحاربونهم هناك ، عند بوعان . كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك .

رحمة الله عليهم . ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات . ولا نظن ان عسكراً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر يقوى على حصون الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال .

بعد ان صعدنا في نقيل مناخة واستوينا الى رأسه نظرنا الى المسافات الهائلة التي قطعناها فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الافاق البعيدة شرقاً وشمالاً يثبتان ما نقول. انك اذا قطعت تلك المسافات راكباً ، خفيف الثياب ، لأسير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة ارطال على ظهرك ، وقنطاراً من الهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح الدولة ، ولا يزال اهل اليمن يترحمون عليها .

---

(١) الجيش النظامي

الفصل الثاني

الى الحدود

مناخة – الحصن الحصين – عامل لا يحسن غير الواجب عليه – « لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » – المشهد من سطح البيت – مناخة واب – الفرق بين العاملين – قرية الهجرة – جبل وسل – العتارة الاسماعيلية والفرق الباطنية – الداوودية – متهاية وسل – خيس النوم – القتراء في لندن ونيويورك – قواعد الصحة والطب الخرافية – السعادين ترمينا بالحجارة – قاع صعفان – الحدود – الشيخ حمزه – « على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامام » – شيخ الحجيلة – « كلنا نشتهي السلام » – المصيبة من الله – وله شريكان في اليمن .

ان مناخة قائمة على قنة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس . وهي قسمان قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية . ولكنها في الحالين حصينة منيعة . فهي في علوها ، ٥٠٠ قدم فوق صنعاء ونيف عن ثمانية الاف قدم فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطيء للنسور والعقبان . وقد كانت بالامس موطيء قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الاهم . فيها ثكنة ، هي في مقدم الصهوة عند سنامها ، ثكنة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة الاف منهم الفان يحملون البنادق .

وفي مناخة اليوم مركز قضاء حراز ، ودائرة للسلك والبريد ، ومفرزة من الجنود وهي محطة للتجارة بين الحديدة وصنعاء . اما الحصون فلا حاجة اليها ، لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد تشرف من الجهات الاربع على الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب . لا اظن ان عسكراً من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادماً من الحديدة ، او من الشرق ، قادماً من صنعاء ، الا اذا نفدت الذخيرة فيها . وعندئذ يتخذ المحاصرون سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا

تفعل البنادق كما تيقن الترك في شهاره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقد عرفنا شيئاً من طباع اهل اليمن، اساس حكم الامام وحصنه الحصين الاحصن. اذ لو اعلن عامل حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، او تصرف بقسم منها ، هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اظن ان امام صنعا. يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .

أنزلنا في بيت كبير هندسته اوروبية بناه احد ولاة الترك . ووُكل امرنا الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسها ولا شك من سادته السابقين، فاقمنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات في مرحلتين لا مثيل لهما في رحلتنا اليمانية .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقبلني وهو في قميص النوم وامر لي بمداعة ورزمة من القات . واجتمعت عنده ببعض العلماء. وفيهم سيد معجب بعرب الاندلس وباحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، ومما قاله : لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب .

تفضل حضرة العامل فأرسل مع نجاب علماً بوصولنا كتبته بيدي الى قائد الجيوش الادريسية في باجل وكان قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود ، وأعد لنا اكياس البن التي امر بها الامام — هدية امامية . ولم يلحّ الشيخ الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الاكرام كعامل الامام . لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تذرع برمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد في بابه . هو حر شاذ الطباع لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيه ولا زيادة .

اقنا يوماً في مناخه نتمتع بمحاسنها ونستريح . صعدنا الى السطح قبل ان احاطت بها الغيوم فكان ادهش ما شاهدناه قريباً منا صخرة قائمة كمسلة فرعون وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلّاء فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل . ودونها على مسافة منها قرية الهجرة المعتصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم سرحنا النظر بالافاق البعيدة عن حراز فاذا بوادي مَورسيه منبسط امامنا شمالاً بغرب ودونها جبلا رحاش وملحان ، وبالاودية الشرقية التي اجتزناها امس ودونها النبي شعيب وتحته بوعان . وهناك قنن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هـذا القبيل الجبلي يبني بيته يقيناً على الصخرة . وقد الفيناه في هذه الجهة الغربية اكبر همة واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة والدكات والمنحدرات الخضراء .

سررنا بيومنا في مناخه سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حلو الشمائل دمث الاخلاق ، وذاك على شيء من طباع البدو الذين لا يسيئك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا الشيخ الاكوع بحكم الامام ، ولا تبجح مثل امراء الجيش وبعض السادة في ماوية وذمار . انها لمن حسناته التي تسر ولاسيا من كان مثلنا قادماً من تلك النواحي الشرقية .

في صباح اليوم الثاني جاءنا من قبله عدد من العساكر ، ضعفا ما صحبنا من صنعاء ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن ، من اعلى سطوحه ، الى اوطأ ارض فيه ، الى وادي حجّام في سفح جبل وسل . وهي اوطأ من وادي مفحق وبينها وبيننا عقبات كؤودات ، فيها النزول اصعب جداً من التصعيد . اما وسل فبيننا

وبينه جبال وقرى نعدد منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي يتصل ظله شرقاً بالجنبه . وهذه قنة شُبام التي تظلل مناخة بعد الظهر وهي اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل ريمه واعلى قنة فيه يراع . وهذه على احدى قنن مسار قرية تشاركه في الاسم وبينها وبين شبام الهجرة . تلك القرية العجيبة الرائعة ، المزدحمة بيوتها في ورم برأس الجبل ، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في لزها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك .

عندما نجتاز الهجرة نطل على وادي وِسل ، وهضابها كالدرج تحتنا ، واحدة تلو الاخرى ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة . وقد امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه اليمانيون في الدكات ، في اماكن تظللها الصخور والهضاب ، اي في الشعاب والمنحدرات التي لا يصل اليها غير نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس .

انك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها .

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه . بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة من الباطنية الذين اباده‍م الزيود بالسيف كما اخبرنا السيد محمد . ولكن الابادة لم تكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى الثّارة وفي ضواحيه .

انهم فرع من فروع الاسماعيلية[1] العديدة يدعى الداوودية وزعيمهم

---

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام الزيود . من فرقها المهمة النزارية وهم ينتسبون الى المعز الفاطمي يقيمون في بمبي بالهند وعددهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوو يسار ، وامامهم الاكبر اغا خان .

داوودي مكرمي بلدي اي انه داوودي المذهب ، مكرمي النسب، بلدي الاصل . والداوودية اشداء حاربوا الاتراك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه . وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة ويسميها الجزية او انه يفرض عليهم الجزية ويسميها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال الا كرهاً ، لان في مذهبهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد من ائمة او من امراء المسلمين .

نودّع الداوودية في العتّارة ولا نزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على المكمّة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف ووراءها جبل صِفعان وفيه حصن مَتوح. اما وراءنا فقنة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال ، ترافقنا اربع ساعات الى ان نقرب من وسل .

وما وسل غير بيتين ومقهاية وبستان من القات . وهناك امرأة اخرى تبادر الى استقبالنا وخدمتنا . بدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في العالم ، النساء العاملات مثل الرجال . سقت الامرأة « القراش » وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر، « تقشرنا »[1] وادركنا هاهنا لزوم الفنجان الخاص

ومنها السليمانية في اليمن ويسمون ايضاً المكارمة . هم اصلاً من نجران ، من قبيلة يام الكبيرة ، عددهم هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الادريسي . في الهند من السليمانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة . ومن الاسماعيلية الداوودية وهم من بني مرة اي مرّة اليمن لا نجد يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبلي حراز وهمذان . ويسمون كذلك البُهرة. عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف ولكن البهرة في الهند مثل التوراية كثيرون ، يربو عددهم على الثلاثمئة الف ، اكثرهم من التجار ذوي اليسار ، وداعيهم اليوم طاهر بن محمد سيف المقيم في سوراة . كلّ هذه الطوائف اسماعيلية كما قلت لانها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير .

(١) تقشرنا على وزن تقهونا

الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم . اما الكيس ، اذا كان المسافر يضطر ان ينام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم . هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش . الا انهم لا يربطونه حول العنق كما قد تظن ، ايها القارئ، بل فوق الرأس. هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلاً فيمسي اذ ذاك كله، هو ورأسه، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق .ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق، كأنه اكل ناراً في نومه .

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يحتلوا الكيس . فما قول سادتنا الاطباء الذين يهددونا بالموت اذا اقفلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض الكربون في انفسهم ؟ اوَ ليس من الحكمة اذا اضطر عدة الناس ان يناموا في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الاخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كلٌ على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأكل هواءه — حامض كربونه — من ان يأكل هواء غيره ؟

ان في احياء الفقراء بالمدن العظيمة كلندن ونيويورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا به . فهو والحق يقال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة الفقر والشقاء ، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها. ادخل رأسك في الكيس ايها الفقير العزيز، انت الساكن في الطرف الشرقي بلندن او في الحي الشرقي بنيويورك ، ادخل رأسك في الكيس تنجُ ليلاً في الاقل من انفاس عيالك ومن اقذار بيتك .

اما الكيس الاعظم فهو هذا الفضاء . ولعمري ان من كان هواء الجبل ارثه لا يلقي رأسه تحت سقفٍ ساعة واحدة . الا ان اليماني خصوصاً والعربي عموماً يخاف هواء الليل ويتأثر من البرد اكثر من سواه . كأن شدة الحر

تضعف الدم او تغير في تركيبه فترق الكريات الحمراء فيه فيأثر اذ ذاك البرد في صاحبه تأثيراً مضراً. والذين ينقلون من الاقاليم الباردة ويقيمون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهله .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضع سنين في جده فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سم زعاف . وكم تناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظي اسيء اليه ! فلو سكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا تتكلم عنا ، لكنت ولا ريب مغلوباً . لان فيه من العافية ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، ما لو وُزّع على خمسة مثلي ، انا الذي لا استطيع ان انام دون ان افتح النوافذ كلها ، لأهلهم كلهم للجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالاً ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب ايات منزلات . وهي لا تخلو من الخرافات . ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الان . الا اني اقول ، قبل ان نترك مقهاية وسل وبستان القات ، قد تكون الرئة في الهواء المفعم بالاكسجيان كالاسفنجة اذا امتلأت ماء . والاكتفاء حد الافادة في كل شيء . .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح ، الى هواء البحر ، وهو لا يزال بعيداً . لولا ذاك لما كان الحر في وادي وجام شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتعشون في ظل شبام منذ ست ساعات . جلسنا للغداء عند بئر قديمة تحت شجرة من الأثب وهي اكبر اشجار اليمن ، فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصاص ، فبادلونا الاكرام ورجمونا . نعم رجمونا بالحجارة ، فكانت اشد علينا من الرصاص عليهم ، فارتحلنا من ذاك المكان ، تقهقرنا مغلوبين ولكن سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع صعفان وهناك محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد

الزيود ، بين السيد الادريسي والامام يحيى . هناك في تلك البيوت والخيم مركز الشيخ حمزه ، حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين باجتياز الحدود ، ونستصحب حراساً من رجاله .

ترجلنا خارج الخيام ومشينا الى بيت حقير بينها ، فاستقبلنا عند الباب رجل صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثياب غير الفوطة يتزر بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حمزه فاجاب : ها هو كله ، وقبل ان دعانا الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم — اي تأخرتم — نحن هنا وعساكر السيد في عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الخيار في امرين تبيتون عندنا او تكملون الى عبال . كل شيء حاضر هنا وهناك . من هو امين الريحاني فيكم ؟ فاجبته كما اجاب سؤالي عنه : ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غيّر لهجته — نحن يا امين تحت امر من وصانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم . على الراس امر السيد وعلى العين امر الامام . راحتكم علينا وسلامتكم مطلوبة من الله ومنا . فاذا اشتهيتم السفر الان كان السفر . واذا اشتهيتم الاقامة فاهلاً وسهلاً .

ادهشنا هذا العربي فاحببناه . استقبلنا بقلب عار مثل جسمه ، فكان صريحاً مليحاً . وكان شريفاً اكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا خفنا ان نثقل عليه . ولما اعلمناه بما اخترنا من الامرين اسفين قال : خذوا القهوة اذن وامشوا لتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الحبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقريب السوداني .

الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليمن الاعلى فتحمل جماله وحميره الغاز والاقمشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو كذلك الوكيل السياسي بين البلدين المتحاربين ومندوب الامامين . رجل

السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شيء حساب . وعنده حبر وورق وكاتب هو ابنه الذكي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل في مناخه يعلمه بوصولنا . فراح الى الزاوية في البيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الغاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسمها ثانياً ، ففعل . ثم ثالثاً ففعل حتى اصبح وبيده ثمن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخة حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصلهم بخير الى عبال .

حمزه

اخذ الرسالة فلفها لفافة ودفعها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القاتم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى .

كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . من صنعاء الى مناخه اثنان فقط . ومن مناخه الى الشيخ حمزة اربعة . وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل ، يصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحجيلة بنفسه — شيخ الحجيلة العظيم في الامس . هو رجل صغير يابس مصفر الاديم ، ذو لحية محناة ، وشارب مقضوب ، وعين غائرة . ركب حماره ، وبندقيته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عنا ، غير مكترث بنا .

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحجيلة او كان . وكان في

ذاك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي . تحت امره مئة بندق ، يوقفون القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه . من منا في اليمن وفي تهامة كان يجرأ ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟ قلت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحجَيلة ؟ فاجاب بالايجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك ويأخذ من العرب . كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشيء .

سبحان الله ! هو الآن رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة . اجتذبني خبر الرجل اليه . فسقت بغلتي نحو حماره ، وسلمت فرد السلام . ثم سألت لافتح الحديث سؤالًا اجابني عليه دون ان ينظر الي : هذا قاع الحجَيلة وقريباً نصل الى البلد .

كنا وقتئذ نجتاز ارضاً لا سيادة فيها لا للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن . ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان يأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة . هي نقطة الحياد بين عبال اخر حدود السيد وبين مضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام . اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحجَيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المفجعة . شريط التلغراف فيها مقطع ، والعمد مكسَّرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي — مناضد وكراسي ودواوين — رأيناها مبعثرة تحت سقوف متهدمة . اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال . لا عجب اذا كان العرب يفضلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب . قد هيج هذا المشهد في الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب . وكنت لا ازال اتدرجه الى الحديث فقال :

— ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شيء ، ما عدا الاخطار والفقر .

وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم . بعيد عن الحرب ، قريب من السادة ، هذه بلية السيد وبلية الامام . ولكان الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا

عن السادة وخاضوا المعمعة مع الجيوش . عندئذ تنتهي الحرب ... كلنا والله نشتهي السلم . ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين السيد وبين الامام . لا في عسير ولا في اليمن موجود . لا يتم الصلح الا بواسطة احد الكبار يجيء من وراء البحار ... ثم تنهد وقال : مصيبتنا من الله . فقلت : من الله وحده ؟ ألا دخل للانسان فيها ؟ فقال مستحسناً سؤالي : ثلثها من الله . ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حماره، فلحقت به وسألته عن الثلثين الآخرين . فاجاب وهو يستحث حماره ليبعد عني : وثلث من السادة . فسقت بغلتي اليه وسألته معتذراً ان يعلمني بثلث المصيبة الثالث . فاوقف الرجل حماره ونظر اليَّ وقال : الثلث الاخير، لا والله بل الاول، هو منكم .

ظنني الشيخ معتمد الانكليز، ولكنه لم يخطىء برأيه في قضية اليمن وعسير . انه اقرب رأي الى الصواب سمعته . وهو ينطبق على العرب كلهم وما يكابدون من السياسة الانكليزية ومن السادة — حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء — ومن التقادير .

الفصل الثالث

نساء تهامة

اشكال العرب – الشبان المخضبون – الشعور الطويلة والتزين – السفور – الرعابيب – المرأة واحدة في باريس وفي عبال – الحناء والكحل والطيب – شيخ عبال يزورنا – خطبته البليغة – ابنه يعطينا ريالين – طريق عدن وطريق الحديدة الى صنعاء – الاسراء – الفتى المكرب – التخبيس – الحسن المجهول – ابن شيخ عبال – عساكر الادريسي السود – « الحوائج » والحسناء – العرب والترك – البرنيطة – شمس تهامة – باجل – سوقها ونساؤها – مودة عربية باريسية – ضيافة الشوافع – الشيخ محمد طاهر رضوان – الصحراء – الرحائن – عساكر الزيود – اطياف الليل – الفجر – البحر .

ان العرب على الرغم من البلايا الثلاث التي تقدم ذكرها في الفصل السابق لبدعون مدهشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية . وهم على ما بينهم من روابط الدين والجنس واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنى . فلا يختلط اليماني بابن عسير ، ولا هذا بابن الحجاز . يخالطون ولا يختلطون . حتى اذا جردتهم مناسك الحج مثلاً من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون – الجدائل – وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان .

انك لتسافر في اميركا مثلاً من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والأزياء ما يستوقف النظر او يستحق الذكر . بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً . اما في بلاد العرب فكلما انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والأزياء والعادات ، وتغيرت كذلك المساكن . فلو اجتمع الحجازي والتهامي واليماني واللحجي والحضرمي والنجدي والعراقي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب مدهش مفيد . من مناخة الى عُبال ! كأنك انتقلت من سويسرة الى بلاد المكسيك .

وان جمال عبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس الجبال ساعة الغروب . عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش شبيهة بخيام الهنود في المكسيك . وابناؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار بامرين ، يتكحلون ويتطيبون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون . فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لو لا الشوارب والعضلات . فهم يدهنون شعرهم بالادهان ، ويربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ، ويزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي القذال ، ولا يقصرونه كالرجال . وهم يتزرون بالفوطة مثل اهل لحج ، وقد تكون طويلة ملونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين ويلبسون فوقها صدرة بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر والخرطوش . ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء ، وارجلهم المخضبة بالحناء .

وفي عبال نعود الى السفور ، الى اول الاسلام . في عبال تعددت المدهشات وكان اشدها واحبها الينا النساء ، وقد وقفن في ابواب الخيام يتفرجن على الغرباء . ولا نظن انهن كن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن . الجمال الاسمر نشدناه في كل مكان فما لقيناه حتى وصلنا الى تهامة . والرعابيب ، ها هن ذا في عبال . وسيهجك منهن ما ستراه غداً في باجل . نزلنا في بيت اخلته لنا احدى النساء بامر من الشيخ ثم جاءت تخدمنا . فسألنا مستطلعين حالها ، فقيل لنا انها مزوجة ، مطلقة ، وتكره الرجال . اي نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟

اجتمع في الباب وخارجه الاولاد والرجال متفرجين مدهوشين . فجاءت العساكر تبددهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا . وهو رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فخم اللباس ، متطيب متكحل حاف ، الا ان

رجليه المخضبتين تلمعان بالحناء . دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً من الحبق قدمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنأنا بوصولنا الى بلاد السيد سالمين، ثم قال معتذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان ان نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس . انتم الآن في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وامان . ولكنا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر . نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان ننزلهم في بيوت من الرخام والمرمر . فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسعد برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنه قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلاً : رمضان يسود الوجه انتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان رفضه رفض الضيافة واكبر الاهانات . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم ، فما رأيناه في غير كأس من اللجين ، وما رأينا فيه غير اللبن الرائب . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاتراك في مواقع متعددة .

نمنا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الاسرة ، تحت سماء تهامة الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير حبل مشبوك ولا غطاء غير شُبُك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليانية العديدة اطول من هذه الثلاث الاخيرة واوعر [1] لان الطريق من عدن الى

(١) ركبنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ، وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ، ومن وسل الى الشيخ حمزه ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزه الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمرحلة الاولى .

صنعاء وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدة . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطاً عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم . وبكلمة هندسية : اذا مددت خطين واحداً من عدن واخر من عبال الى صنعاء تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

اسرينا في الساعة الثانية بعد نصف الليل وكان قمر رمضان كمنجل من فضة فوق قنة شبام . وكان قد نهض الهواء كذلك فانعش فينا ما خدره الحر وازال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احدٍ من الربع اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بمصر والشام في ما رددت من الاغاني القديمة ، وقد الجرت انغامها ، ثم اتهمت ، ثم انجدت ، فافسدتها الاسفار ، واكسبتها المسافات على رداتها ذكراً من الاوطان عزيزاً . ولكنها لم تكن عندي ساعة غناء ، بل ساعة تأمل وصلاة .

ياذا الجلال الازلي الخفي بشيء من جلالك ، ياذا النور الدائم امددني بقبس من نورك ، ياذا القوة غير المتناهية ابعث منها في قواي .

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حالتي الروحية ، من مجرد الصدى بعد السكوت «يارايحة عالشام خذيني معاك» ؟ . ما عرفت صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وطء الدواب كنا كالاخيلة الساكنة السارية في الليل ، فلم تتباين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكني سألت عند الفجر عن المغني فقيل لي انه رافقنا ساعة اكراماً وعاد الى عبال . وشد ما كانت دهشتي واسفي عندما علمت انه الرجل الذي كبّسني [1] مساء البارح فحرك

(١) من العادات الحميدة في تهامة والحجاز التكبيس . هو علم جامع على ما اظن من الهند . فيكبسون المرء من رأسه حتى قدميه . ويدلكون الاعصاب دلكاً ، ويفركون العضلات ويعدونها بعدئذ عبيداً . ان المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشيء استئناسه بالمكبس . وحتى الصغار هناك يحسنون هذا العلم .

الدم في العروق وازال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الاوجاع. ثم نهض وايانا ورافقنا اكراماً دون ان يمن وشاء فوق ذلك ان يسلينا باغاني بلادنا .

فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاكرام الضيف احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت مرن ، مهما شذ والنوى ، يذكر الغريب بالاوطان . وما كان اشبهك عندنا بعكرمة الفياض ، فلم نعرفك مؤاسياً منعماً ، ولم نعرفك مشيعاً مكرماً . جئتنا من الغسق ، وانعشتنا في الليل ، وشيعتنا في ضوء القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك كالطيف في الظلام . ومهما كان اسمك واينما كنت فانت اخو الانسان ، وامير الذوق والاحسان .

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربع بدل شيخ الحجيلة ابن شيخ عبال ، وبدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن ادريس . وهم من العبيد صحيحو الاجسام ، خفيفو الاقدام ، قليلو الكلام . لا يختلف الواحد عن الاخر ، وكلهم سود ، بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذاك كالشوكولات ، والاخر كالابنوس المصقول . سألت «الابنوسي» وهو يركض ويثير بحافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ؟ فاجاب : أبي طلع من البحر وانا ولدت في الهد ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي اني اسود . قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفيه .

بعد ان اجترنا قاع عبال وصلنا الى الساعة الاولى من النهار الى الجاح وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت من البيت عربية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشت لنا وبشت واسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الابازير كالزنجبيل والهال — كثير

من الاباذير – يسمونها حوائج . وكان حسن العربية يتجاوز قوامها ووجهها الى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بجوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن . . . حوائج وهذه الحسناء ؟ اركب يا امين .

ومما زاد في كربة الرجال صباح ذاك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسناء اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تنشر للشمس شعرها ، كأنها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام . فحثثنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . والترك ، ما الترك ؟ هناك – اشار بيده وهو ينتفض اصابعه – هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذاك الجبل ، حفرنا الخنادق – كنا تسعين ، تسعين فقط – واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ، ونور هذا النهار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقي تشتتوا هربوا فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات. يا له من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخبيها وراء الخنادق ويعود يفتش على غيرها . . . ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . . . هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما تراهم الان ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون . ولا يشكون غير حلم السيد فهم يغلبون الزيود ، ويأخذونهم اسرى والسيد

لا يأذن بتذبيحهم .

سرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الافق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات الجرانيط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان الجرنيطة او الشبقة لقديمة العهد في تهامة وبعض نواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في الجنس والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد . هو ينبذها او ينساها او يغير فيها لتمكنه من دفع العدو الصائل ، بل من الدفاع عن الحياة .

وباي سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطرك رزقك ان تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا تلثمت بها تدفع ثائر الغبار والرمال فقط ! قد تقي العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقي الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العمامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون الى السعي في سبيل الرزق والرفاه . قد يرهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على ان الغريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن ايما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج فلا تمنع الهواء ، واسعة الاطراف تظلل الوجه والقذال ، عالية القبع تحفظ الرأس من سهام الشمس .

ويا لها من شمس لا تحجب ظلها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلد هي وحدها الحاكمة بامرها فيه . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلها مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجر الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها العرب

من كل القرى والمضارب المجاورة لها ويتزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشترون طيلة ذاك النهار .

مشينا بين صناديق من الغاز واثواب من الخام ، بين المواعين المصفوفة على الارض والاكياس ، بين الاباريز والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة. والناس في الساحة رائحون جاؤون، والنساء وبايديهن السلال اظهر ما هناك يكثرن البيع والشراء. ادهشنا من هذا المشهد مظهره النسائي لاننا لم نرَ في بلاد اليمن ، بل في البلاد العربية كلها خلا العراق، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات، واكثرهن حسان الوجوه والقدود. اما البنات فما رأيت فيهن غير الممشوقة الهيفاء،وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً، وخفة ومشياً. لكن لبسها قد ينسب لولا السذاجة والفقر الى التهتك. هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخلخال ولا يخفيه، وتلبس فوقه صدرة ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه فيبدو شيء من الكشح بينهما . ولها مشية تُكشف بها الساق، واذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولها لسان لا اثر فيه لما في قدها ومشيها من حسن وبراعة. سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . ورأيناها تمشي الى السوق والسلة بيدها فاسفنا لبذاءة تشتيها .

اما تلك العربية التي « تمشي الهوينا مشية البقر » فلم نجدها في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال . كنت اظنني في بلد من بلاد المكسيك الجنوبية . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلد عربية اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد حرها[1] حتى في شهر ايار لا

(١) في ٢٦ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة ودرجة في ميزان فارنهيت .

يطاق نهاراً. ولولا انه جاف لما كانت باجل[1]، ولما كان في ذا القاع اهلها.

استقبلنا بعض رجال القائد العام فأنزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهر في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ. ناهيك بشيء في اخلاق الشوافع، بشيء من التساهل بل الاخاء والكياسة، يمتازون به عن سواهم. تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز، فادهشنا وابهجنا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة. ولكننا في تهامة، فلا عجب اذا نضج في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعاء وزهراً في لبنان.

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها، فسلم واعتذر. هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلد لينام. سألنا عن السياسة الاوروبية، وعن الانكليز، وعن مصر والهند، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفترقان، بخلاف العادة العامة، الى شيء من الحكمة والذوق. فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً، دون رأي خاص له يبديه. ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً. فعلمنا من حديثه ان القحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي سردود ووادي سهام، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن اشد الشوافع بأساً واكرمهم خلقاً. وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن. فها هم في البيت تحتنا، عشرون رجلاً، وفيهم العبيد، من الزرانيق. سيجيء الكلام على هذه القبيلة في الفصل التالي. سمعناهم في الليل يجوّدون، وينقرون الدف وينشدون. وما سمعنا من فم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً. سمعنا كذلك «الزامل» في البلد فدهشنا لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام.

---

(١) باجل هي على مسيرة ثلاثين ميلاً من البحر.

فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت . وقد تأكدت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و « يتعسكرون » عند السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساءني في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما سمعنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقمنا في باجل وسافرنا في مساء اليوم الثاني . لا سفر في تهامة نهاراً لمثلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاء ، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفنا فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة تطأ الدابة حجراً فتعثر ارى وهدة انفتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان اسراءنا كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والربى ، فما اطمأن ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فتسلم على اطياف تمر بها ، والامن والظلام رفيقان ملازمان . انه ليدهشك مثل هذا الامن نهاراً في اليمن وعسير فكيف به ليلاً ؟ وكيف به في بلدين متحاربين ؟ مهما قيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدنون ، يحترمون حقوق الناس ويحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القارىء في طريق التجارة بين البلدين فتيقنت ولا شك ان في هـذا الشعب الماجد الباسل من الشرف وكرم الاخلاق والحكمة والذوق ما لا يظن مثلها في مثله . وهي تخفى على كثيرين من الناس ، وتقل بين الناس في البلاد المتمدنة .

وصلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطم فاسترحنا فيها ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلَّ الهلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل . وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية تتخللها السبخة بين احراج من الشورى ، ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور والنار . ولكننا عندما دنونا من البحر شممنا رائحة الملح واحسسنا

بالرطوبة في الهواء ، فاستعذبنا الاثنين .

البحر ! ذاك الخط الازرق على الافق امامنا ، ذاك العلم الازرق على ساحل العزلة العربية ، تلك الطريق الى الاهل ، الى الاوطان ، الى المدنية ، وفيها الامل الكبير بالعود الى الحياة والجهاد . البحر ! ان الطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامة وابهج ما شاهدته آنئذ العين انما هو البحر .

الفصل الرابع

الحديـــدة

الاشباح – قصر الوكالة البريطانية – احتلالنا القصر – ضرب الحديدة من البحر – خراب الحرب – القنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتعويض – فريسة الحرب وفريسة السياسة – الاستفتاء – « نبغي الترك » – « نبغي الانضمام الى مصر » – دخول الادريسي – القرض المالي – تأديب التجار – الزرانيق – التمرد والتفكك في الاحكام – بيت الفقيه – بيت بخمسة بيوت وخمسة رؤوس – من من الامامين يستحق الحديدة .

هوذا شبح الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خراب فرنسا في الشمال جاء يلاقينا في الحديدة. هو اول من حيّا صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء . ثم تبعنا كالظل ، وما توارى عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية. فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسيناه كما ينسى العابر شحاذاً في الطريق . نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين وكيل بريطانيا العظمى السياسي في الحديدة وسفيرها الى السيد الادريسي .

صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة ذات اقفال ضخمة ، كانت مملوءة في الماضي بالصكوك والاوراق ، وبالذهب والفضة . هوذا شبح آخر يحيينا صامتاً ، شبح القوة وراء العروش ، وفي الحروب والجيوش ، شبح المال . انا نحن في دائرة البنك العثماني ، ولم يبق منه غير هذه الصناديق الفارغة وبعض المواعين المكسرة .

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب من خشب الهند فخم كبير ، نقشه يبهر الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين

الهندية والطنافس العجمية، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والآيات القرآنية.
وفي سقفها العالي من صناعة النقش بالدهان ما يدهش لوناً ودقة غواة الفن
وارباه . والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تحجبها
شعرية من الخشب الهندي، كانت مُعدة للحريم يطللن منها على القاعة تحتهن
في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب . وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ،
شبح الثراء والجاه ، شبح القصف والترف ، شبح السرور واللذات .

كان القصر الذي دخلناه لاكبر الاغنياء في الحديده ، بناه لعينه وقلبه
وشهواته ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته . فصار بعد موته اجاراً للبنك
العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية . وها نحن اقتداء بالانكليز
نحتل قسماً منه . فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما
ان ننزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر . ومن ساح
مثلنا في اليمن قلما يسيء الاختيار وقلما يستحي بذلك . قلنا نحدث انفسنا :
من المؤكد ان ليس في الحديدة كلها مثل هذا القصر . ثم خاطبنا صاحبه
قائلين : ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا . فرحب ثانية بنا واصبحنا من
تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعياً ليس من جاء من الجبال فقط بل من
يجيء من وراء البحار .

عجبنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرآة بعد غيبة
طويلة . فاننا كنا ، بعد شهرين فطمنا الشعر عن المشط والمقراض ، كابناء
عسير في رؤوسنا وكأبناء الروس البلشفيك في لحانا .

ولكنه ، امر اولا باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد الينا
شيئاً من الكرامة في الاقل .

وكانت باسم الله بداءة احتلال دام شهراً فقط ، وبداءة صداقة لا تقاس
بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه . اما الاشباح فكنا واسفاه

عاطين دائماً بها . شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان . وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه . وشبح اللذات كان يحف بنا ويرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات يسودنا فيها ما يسود الرجال. الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول. قد هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في النفوس والعقول ، من فسادها في القلوب والاخلاق ، من سمومها في الامم المتمدنة . وها هو شبحها في الحديدة يذكرنا بها ويرينا شيئاً منها .

ضُربت هذه البلدة مرتين من البحر ، المرة الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آلنبي على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدة جزءاً من الهجوم العام . وكان قنصل الانكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع . وكانت دار القنصلية ، بامر القنصل نفسه ، الهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعاء حضرته اوراقاً سرية . ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء . قيل ان القنصل دمر بيته ، امر بتدميره لان فيه فرشاً شاء حرقه طمعاً بالتعويض . وقد دفعت له الحكومة بمدئذ اضعاف قيمته تعويضاً . هذا شبح الحرب واثر من افسادها في الاخلاق .

وفي الحديدة واهلها غيره من الآثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع به كل يوم . ميل في الناس ولا حجة ، امل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نية . وبنايات في المدينة ولا سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وهجر في بيوت ذهبت القنابل بحياة اهلها ، وحزن تحت سقوف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة . أضف الى ذلك كله ما قد

يكون السبب في ذلك كله اي شكل حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز .

الحديدة التي كانت من اجمل البلدان العربية على البحر واكبرها تجارة. هي اليوم مجردة عن الاثنين . فريسة الحرب هي وفريسة السياسة . ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حياة ومن امل . اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها ، ولكن الحسد فيهم وبينهم يفوق الحب والاخلاص . فلا تركن الى احد منهم ، بل هي تخشى اذا ما اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ، وهناك الطامة الكبرى ، هناك الزرانيق .

اما الشوافع فيها فهم لا يميلون الى الامام ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتها وبهائها . وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انها ستكون دائماً في حوزته . والانكليز لا يتدخلون في غير ما فيه حفظ الامن والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر. فهي بيدهم الورقة المجهولة في الصفقة الاخيرة ، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع الامامين.

وهناك فئة من التجار يبغون امام الزيوث . فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالانكليز، لانهم لم ينالوا من احدهما غرشاً واحداً تعويض ما خربته مدافع الاسطول. وتراهم ، اذا ذكروا التعويضات ، يعودون دائماً الى قصة القنصل الذي هدم بيته حباً بها . على ان الانكليز يتملصون من دفعها الى الاهالي بقولهم ان ذلك متوجب على صاحب الحديدة ، وقد اهدوه المدينة ، حباً به او نكاية بالامام على السواء . ولكن صاحب الحديدة يبغي مع الهدية شيئاً من اسباب الحكم الاولى ، شيئاً من المال . فمن اين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الانكليز، وهو لا يجمع من اهلها زكاة ما يكفي لادارة شؤونها .

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً . فان ادارة الحديدة في يد خمسة من الحكام اولهم اسماً عامل السيد واخرهم رسماً الوكيل السياسي ، وبين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس الميناء يشاركونهما في المسؤولية ووجع الراس . الا ان الوجع الاشد هو في العاصمة في جيزان. لذلك فوجئت الحديدة ذات يوم بارادة ادريسية محورها قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تُعطى به صكوك على الجمرك . فجس العامل والوكيل نبض البلد واشار بنصف القيمة . فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا . وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة . فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذا ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من الملوم ؟ الحالة السياسية وحدها؟ ومن المسؤول عن هذه الحالة السياسية ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديدة وفي جيزان .

وبين جيزان وعدن وصنعا. قلب مدينة يحترق وكيس مدينة يئن. قلت ان الحديدة تخشى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث الزوايا السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منها الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد وانزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن الناس انها بداية الاحتلال فسر التجار بذلك خصوصاً الهنود منهم . وبعد ذلك – بعد ان غيرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدة ومنهم صاحب التعويضات الذي مر ذكره ، وكلهم في الحمق والتصلف واحد ، غيّر التجار والاهالي رأيهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوريون مرة : من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل. فقالوا : نبغي اذاً الحكومة العربية المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتمد في عدن يمثل اخر فصل من رواية الاستفتاء.

فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدة امر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في ذلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طابور من العساكر الادريسية ، فختمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذاك الحين. ليست هذه بالنتيجة الواحدة الغريبة لذاك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بميلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه اولئك التجار وهم خمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، واشار عليهم ان يزوروا حضرة السيد في جيزان. فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ، وبينما هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ، وكانت الركائب حاضرة ، فاركبوهم وساقوهم امامهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام من الحديدة، فأنزلوا في القلعة هناك وظلوا سبعة اشهر اسراء فيها. ثم اعلموا بذنبهم وبالجزاء. فدفع من يستطيع الجزاء ، الا وقدم الآخرون ابناءهم رهائن « المحسوبية » والاخلاص ان مثل هذه الحوادث في حكومة فردية ابوية لا تستغرب ولا تستنكر اذا كان القصد منها منفعة البلاد واهلها. ولكن المرء لا يرى في هذا الحادث وامثاله[1] غير الاشتفاء والاستبداد . قد حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما يمس بكرامتهم فقط عدلهم في غيرها من الشؤون .

لا عجب اذا كانت الحديدة تخشى الاستفتاء اذن وتخشى اظهار ميلها السياسي الا سراً وهمساً في بعض الاحايين . قلت انها اذا فعلت تقع في الشر الاكبر، شر الفوضى وما يتبعها من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير.

---

(١) راجع قصة الاسطول الانكليزي في صفحة ٥٥ من هذا الجزء

اما الانكليز فالعرب لا يبغونهم محتلين ، لا يبغونهم على الاطلاق . ولو لم يكن الوكيل السياسي مسلماً لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته وحدودها . اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديدة اليه ، فيضربهم السيد ويستنفر عليهم القحراء ، وقد يغري بهم الزرانيق . واذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها ويعلنون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زيوده واما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق. أيستغرب القارىء ذكر الزرانيق واحتمال نصرتهم في الامرين ؟ . ان هؤلاء العربان لمن اغرب المستغربات في تهامة .

الزرانيق اشد القبائل التهامية بأساً ، واكثرها عدداً واكبرها قوة ، واقلها صدقاً ووفاء. هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأبهون بالانكليز . هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها . بل هم ، مثل اشراف ذي الحسن في الحجاز ، قطاع طرق وقرصان بحر ، يهربون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدة وزبيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاولى الطائف في خور غُليفقة . انهم يقسمون قسمين ، زرانيق الشام اي القسم الشمالي وزرانيق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدنو من عشرة الاف بندق ، ثلثاها في زرانيق اليمن .

كان الزرانيق في ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلغراف ، وينهبون في البر القوافل وفي البحر السنابيك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء . هم دائماً يمثلون في رواية تهامة السياسة دورين وثلاثة ادوار في وقت واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز ليستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً منهم وذخيرة .

ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زبيد . ثم نصر قبيلة القحراء عندما أسرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء سبيلها . فلا عجب اذا مال قسم من الزرانيق الى الامام يحيي اليوم وقسم الى السيد الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم ارونا الرهائن . اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين . جاء عدد من الزرانيق ، خمسة وعشرون ، الى الشيخ طاهر رضوان يقولون : للسيد القبيلة كلها ، ونحن الكافلون ، بشرط واحد . فانخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال . ثم عادوا — الرسالة لا تتم الا بدفعة اخرى — فلم ينخدع القائد ثانية ، فقبض عليهم واسرهم وقيدهم بالحديد ، وادعى لغرض سياسي ان الزرانيق كلهم مع السيد — وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرانيق سياسيين دهاة كما ان فيهم لصوصاً عتاة . لما اسر قائد باجل رجالهم قالوا : هؤلاء لصوص تتبرأ القبيلة منهم ، بل انكروا انهم من الزرانيق . ولو كان من مصلحتهم يومئذ ان يحاربوا الادريسي لكان اولئك الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلنون من اجلهم الحرب على امام صبيا وجيزان . ان عند الزرانيق شيئاً كذلك من الشرف ، شرف اللصوص ، ولهم الجواسيس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيي مثل ما للحكومات المتمدنة . جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناقمين فيه على السيد وعلى الانكليز ، ان سنبوكين من السلاح اقلعا من الحديدة ووجهتهما جيزان ، فاسرع قرصان الزرانيق شمالاً ، فلحقوا بالسنبوكين . قطعوا عليهما البحر ، اطلقوا عليهما وعلى عساكرهما الرصاص ، فقتلوهم وعادوا بالسنبوكين غنيمة كبيرة . ولما افرغوهما علموا ان احدهما ملك نوتي في الحديدة لا ملك الحكومة فاعادوه اليه ! ان لهم حتى في اللصوصية قواعد يحافظون عليها وحقوقاً يحترمونها .

واغرب من كل ذلك ما رأاه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة .

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديماً مشهورة بالعلم والصناعة ، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن . وبيت الفقيه ايها القاري، حرة مستقلة ذات سيادة مطلقة، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيداً عليها . بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام خمسة احياء ، لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة ، يحكمه باسم الله وباسم الالف حراً مستقلاً شيخٌ لا صلة بينه وبين زملائه ، ولا يعترف لاحد منهم بشيء من السيادة ضمن حكمه . انه لأعجب ما كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب ساداتها ، وبفسق نسائها، ولبست في منسوجاتها كما كانت في الماضي .

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف . ولا يمكننا ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والدسائس الخارجية ، اذ لا اثر لها يذكر في بيت الفقيه وفي الزرانيق . ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بعصيانها وبقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لاكبر العقبات في سبيل القومية الناهضة والوحدة العربية . ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ، هذا الإجرام باسم القومية ، هذه اللصوصية باسم الاستقلال . ليبدأ كل إمير في بيته ، فيحكمه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً . ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان . ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز . فلا يهم اذ ذاك من يستولي على الحديدة . وعندي ان من يستطيع من الامامين ، امام صنعا، وامام صبيا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق ويؤدبهم ويدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدة .

الفصل الخامس

اديان واشجان

العيد – لستقبل المهنئين – معرض من الشعوب – التراويح المختلط والنسل – لا حياء في الدين – لا دين في التزمت – الهندوس – الفارسي – خيس صواب – « ادين بكل الاديان » – الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية – محاورة في سر الوجود والخلود – محمد فضل الدين الصوفي – التقمص – العقل سجن الروح – قصة الحكيم الصيني والفراشة – رموز زائلة لحقائق خالدة – صوفي يؤسس ملكاً في تهامة – الاولياء والتوحيد – وصف حلقة الذكر – الكرامات والشعوذات .

العيد! وحق لنا ان نعيد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزيود ومع الشوافع ، فقلّ نومنا واكلنا ، وحرمنا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطالت مثل النساك شعورنا ، وكثرت تقشفاتنا واوساخنا . العيد! نهضت صباح اليوم المبارك فارتديت افخر ما عندي ، قميصاً حجازية بدوية ، و « وقدمية » مكية ، وكوفية مزركشة هندية ، وعقالاً مقصباً شريفياً ، ونزلت اهني. مضيفي وصديقي محمد فضل الدين .

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر فرشت بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيه الوكيل المحترم . هو عرشه ساعة الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منه ما حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق . وجدته صباح العيد جالساً على العرش معتماً بعمامة هندية وافرة ، طويلة الذؤابة ، باهرة الالوان ، وبيده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه الى اللغة الهندستانية .

سلمت وهنأته باسم الله ، فأعجب بقيافتي واشركني في عرشه . ثم دخلنا في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او برمضان المبارك والنوافل الروحية . ولكنه يتصل باطناً بها كلها . الدكتور محمد فضل الدين رجلان

مثل كل ذي فكر وعلم وحجى، رجل يعرفه الناس والحكومة الانكليزية وهو الملازم م. فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية، ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية .

اما الرجل الاول اي طبيب العيون ووكيل بريطانيا العظمى السياسي فنتركه للناس . ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين . ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي . ان لفضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي . اضف الى ذلك انه مثلي جبلي . هو من قرية صغيرة في جبال الـ « بنجاب » التي تضاهي بجمالها جبل لبنان .

دخلنا الموضوع الذي اشرت اليه، وفيه تتشابه العمائم والتيجان وتضمحل اشكالها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهنىء بالعيد السيد محمد العربي عامل الحديدة ومندوب الادريسي فيها . السيد محمد ابن عم حضرة الامام ولكنه مصري المولد والقيافة والحديث . حلو الشمائل دمث الاخلاق . وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حال اهلها فجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئني وشريكي في العرش بالعيد . جاء الحديديون زرافات ووحدانا من موظفين وتجار ، وسوقة وسادة ، ونوتيين وادباء . وفيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والايراني ، وفيهم من انواع المذاهب والاديان الشافعي والمالكي والحنفي والزيدي والجعفري والاسماعيلي والماروني[1] والفارسي عابد النار ، والوثني عابد البقرة ، والبوذي عابد اللاشيء في اللانهاية السرمدية . وفيهم من القيافات والازياء العباءة والعقال، والجبة والعمامة، والصدرة والسراويل،

---

(١) هو ترجمان قنصل فرنسا في الحديدة .

وقميص النوم والنعل ، والفوطة والعري الواناً واشكالاً . اجل ، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب ، ومعرض اديان ، ومعرض ازياء في الملابس والعري قلما نشاهده في غير مكان .

تعددت الشعوب في الحديدة ، بل في تهامة ، وامتزج دم السوداني بدم العربي ، ودم الصومالي بدم الهندي ، ودم الجاوي بدم الايراني ، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة . ان صفاء الدم في النسل لأعز ما في الامم . وان حفظ الجنس والنسب مع الرقي العقلي والادبي لأجمل ما في الشعوب . أفلا تتقزز من هذا الشريف الغائر العين ، الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول ؟ أو ترَوقك طلعة ذاك السيد صاحب العين اللوزية « جاوية صينية » والانف المفلطح « تكروني دنقلي » واليد العربية الجميلة ؟ وهل تسرك رؤية ذاك ، هندي الام ، صومالي الاب ، عربي اللسان ، الاسلامي الدين ، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة ؟ فلا هو مسلم ، ولا هو عربي ، ولا هو صومالي ، ولا هو هندي ، لا في اخلاقه ، ولا في وجهه ، ولا في ملابسه ،

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليغير عقيدته ، لينبذها اذا جاء الحديدة . ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة الواحدة ، خصوصاً في الشرق ، بسيئاته كلها . ولكن الهندي يظل هندياً ، والفارسي يظل فارسياً ، والمسلم يظل مسلماً ، ولو امتزجت في سليلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها .

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائراً احد الهندوس ، اصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل اسرارهما ، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي . ففعلت ، فرفض .

ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسماً . والسبب في رفضه فنجان الشاي؟ ان هذا الهندوس يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم ، بل من كل من لا يعبد البقرة مثله . ولا خجل في فعلته ولا حياء .

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه ، وهي قديمة ولكنها نظيفة ، باليد اليسرى دون اعتناء . ان المعلم الكبير ازدَرَشت رعية في الحديدة لا يتجاوز عددها الواحد الفرد وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علماً بدينه الجميل وبجاله . هو خان باهادور الفارسي اصلاً ، الهندي بلداً ، الازدرشتي ديناً ، الانكليزي لساناً . خان باهادور ، وحديثه كزقزقة العصفور ، فيه تكسير وفيه تنغيم . على رأسه عمارة ابناء جنسه ، شارةُ مذهبه ، وعلى قامته الطويلة الا « فراك » الاسلامبولي مزروراً تحت الذقن ، وتحته بانطالون افرنجي ابيض عريض ، وعندما يجلس يظهر خلال الا « فراك » طرف قميص بيضاء تدعى في دينهم « سُدرا » Sudra اي الصراط المستقيم ، وفيها جيب صغير يدعى « كيس صواب » اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكيس فارغ يا مستر امين . لا شيء في كيس صواب »— السبب لا شيء . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ عشرين سنة انا وحدي في الحديدة مقيم بين اناس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون اني اعبد الشمس . ومَن يعبد الشمس في الحديدة ، هذه الشمس الظالمة المحرقة، من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابناء اله واحد؟ بدأت اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها في ادارة القهوجي[1] وقد يكون يهتم يا مستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بالا « سدرا » . كنت اشغل فكري كثيراً

---

(١) خان باهادور هو في الحديدة وكيل شركة بواخر القهوجي بعدن .

بالاخرة ، فاين أدفن مثلاً وليس في هذا البلد برج من ابراج السكينة ؟[١]
في الهند نضطر ان نلبس مثل الهنود ، ونتكلم لغة الهنود ، ونطهر « نعتد »
ابناءنا ببول بقر الهنود . الفارسي يا مستر امين يقتبس كل شيء . ها هنا في
الحديدة ترى المسلم والبنيان[٢] والمسيحي وكان فيها اليهود ، وتراني انا خان
باهادور الفارسي الوحيد فيها اقتبس كل شيء . ادين بكل الاديان . انا
مسلم ويهودي ومسيحي وهندوس وفارسي ساقط لا ينفع . . الصلاة ؟ اصلي
قليلاً . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت للقهوجي وبواخره .
اتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والنصارى اخوان لنا ، هم منا . بيننا
وبينهم قرابة تتصل بازدرشت وابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل ؟
الا تعرف وانت العالم المطلع على كل شيء . ؟ ابراهيم الخليل هو ازدرشت
بنفسه[٣] هو نبينا ونبيكم . اضطُهد في ايران فسافر الى فلسطين ازدرشت
هو خليل الله وخليل الله ابراهيم الخليل هو ازدرشت . لا تتعجب اذن من
قولي اني مع الكل نعم يا مستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف
لاني متمسك بالـ« سُدْرا » . البسها كما ترى دائماً ، و« كيس صواب » لا يظل
فارغاً دائماً ان شاء الله . عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم .
اسمعه يرددها دائماً . فصرت ارددها مثله : الله كريم . اذا كان سراط خادمي
السراط المستقيم فانا معه . واذا كان في ضلال فهذه « سدرتي » يا مستر امين
وهذه كذلك الـ« كُستي » حياتي مضمونة في الاخرة وان كانت في هذه الدنيا
لا تساوي مسماراً في باخرة من بواخر القهوجي . الشركة الدينية ، لضمان الحياة

---

(١) برج السكينة Tower of Silence عند الفرس هو برج عال يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقبان .

(٢) هم الهندوس او بالحري التجار منهم .

(٣) هذا رأي في ابرهيم الخليل غريب . وقد سمعت في الهند اغرب منه اخبرني احد العلماء هناك أن بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .

الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

الفرس يغسلون اولادهم ببول البقر[١] والعادة هندية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهاد. لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل ال« كستي» اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان ، ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة. وكل ما يحرز الفارسي منها يضعه في « كيس صواب » ليوم الحساب. كان صديقنا خان باهادور يرينا الكيس ، وهو شارة قدر طابع البريد على قيصه ، ويقول : الكيس كبير يا مستر امين ولكنه فارغ . . . الله كريم. خان باهادور يموت في الحديدة وتأكله العقبان وهو مرمي على شاطىء البحر. ولكن سيصلي من اجله المسلم والهندوس والمسيحي . وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس صواب . الله كريم . الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية ، الله رئيسها يا مستر امين . . . . .

كنا انا وفضل الدين نقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم وحديثنا الحياة والآخرة وسر الوجود والخلود . وما احلاها ساعة انستنا السياسات والاديان كلها . ان في شخصية فضل الدين الروحية العقلية من الادب الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية. بل في عقيدته الاسلامية شيء من الاسرار البوذية والغوامض الهندية ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير. كنت اشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالاسلام ، دين التوحيد ، اني مثله مسلم . وكنا عندما نصل الى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الالهية

---

(١) عجبت لكسرى واشياعه وغسل الوجوه ببول البقر .
ابو العلاء المعري

فتأكد اذ ذاك اننا واحد في الشك وفي اليقين .

— اتعتقد يا فضل الدين بالتجسد ثانية وتكراراً ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة . اما اذا كان في تلك النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة التي نحن فيها .

— يروعني التأمل بحدود الادراك في الانسان ، بل يملأني حزناً وغماً . خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام . وراء ذاك الافق يهجرك او تحت هذه المياه . أوَ ليس من المحزنات ان يضمحل هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا ويعرف اجزاءها والوانها وسرعة دورانها .

لا يدهشني ذلك ولا يحزنني . في اضمحلال العقل على ما اظن تتحرر الروح . العقل للروح مثل السجن للجسد . واظن ان الحياة مجردة عن الهيولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري الذي يدور على محوره ولا يعرف غير الـ « انا » فيه ، هذه الروح خالدة وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك . واظن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها ، وعقل يوازي قوتها ، فتكشف حقائق في الكون جديدة ، وتتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها . وقد تتدرج في التجسد الى ادراك درجات التجسد كلها ، وادواره البشرية والروحية كلها . نعم يا عزيزي الريحاني ان العقل في هذه الحياة سجن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتألم من قيوده .

— وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجناً ؟

— انها تحيا بسبب هذا الانفصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار ، انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها

وفي فلكها عقلاً يديرها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنه الجاذبية في الافلاك .

— ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟

— فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالوهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الحبور تتنقل من زهرة زكية الى اخرى. وعندما استفاق حزن جداً لما شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً باثراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

— جميل ، جميل . ومن يزيل الحيرة من قلب الحكيم ؟ يخيل الي يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة وكل حقيقة تتكون تكوناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكوّن تزداد انتشاراً وقوة وحباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيهاً بها ، ممثلاً لها ، عظيماً في الناس. ويستمر هذا الطي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقة، الى ان تجتمع ، وها هنا معنى جمع الجمع في نظري ، بالفيض الاولي الاكبر ، الفيض الالهي . فيكون في ذلك اوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون اخر التجسدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداهة في التجسد والخلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البداهة . العقل — اعود الى ما قلت — سجن الروح .

— وما دمنا في السجن لا ارى اصلح من البداهة غذاء وهواء . وفي البداهة كذلك شيء من الخيال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

– وما الفرق بين الخيال والاوهام الدينية ؟
– الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد خادمك العبد بالجنة .
– وهل تسميها جنة العبيد – عبيد الاوهام ؟
– قد سماها من هو اكبر منا[1] بجنة البله .
– اني افضل ان اكون فراشة .
– فراشة من النور تجذبها اليها نار الالوهية ولا تحرقها ؟ اني اشاركك في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هو من اولئك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي. امر عجيب يتلوه في تهامة امر اعجب . كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً ، الطريقة فيه اساس الحكم ، والحكم اساس الطريقة . ولكن الطرق تفسد التصوف فكيف بها في الاحكام ؟

لعمري ان اجمل الكمالات التي نتمناها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال الاجتماعية والسياسية والادبية كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردها ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ، يتقل الجشع والخداع والوهم في فروع الحياة الثلاثة المذكورة . ولكن والصوف اجتهاد شخصي ، ونعمة فردية ، لا تورَّث ولا تعلَّم ولا تُنشر بالاجازات. ومن الاسف انه لا يبقى منها ، بعد موت صاحبها ، غير الطريقة او الحلقة وخزعبلاتها ، والمشايخ وجبرباتهم .

قال فضل الدين عندما اهداني الكتاب : الجهل المخيم في هذه البلاد

---

(١) ابو حامد الغزالي .

يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجيء المرأة اليَّ وهي تشكو من مرض او الم فاعالجها فتشفى بفضل « الشيخ احمد » . يجيء العربي وهو يصرخ من اوجاعه ويصيح : جرني يا شيخ احمد يا شيخ احمد لا تنساني ! يغيظني هذا الاشراك بل هذا الكفر . اكاد اجن منه . قلت مرة لاحد المرضى : رح الى الشيخ احمد يداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من الشيخ احمد الى النبي . فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة. استغيثي بالله : اتكلي على الله وحده . . . اما حلقة الذكر فستشاهدها باذن الله في الحديدة

وكان قد توفي فيها يومئذٍ شيخ الطريقة المرغنية[1] فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين واستمرت خمس ساعات . صحبني تلك الليلة الى مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة وكاتب العامل وأحد اصحاب فضل الدين. فجلسنا في منصة في صحن المسجد اشرفنا منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الارض في الفلاة وعلى الحصر في الايوان، ووقف في الابواب وحول الجدران جمع من المتفرجين، وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابناء الشيخ المتوفَّى ومشايخ الطرق الاخرى، وبينهم سراج منير وقارئ. كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تفتتح بها حلقات الذكر .

ان المناقبَ شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون فيها فضائل الفقيد ، فيجيئون بنبذة من سيرة حياته ، ويذكرون بعض كراماته . استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القارئ الوقفة الاخيرة فيها هتف المصلون : آمين . ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيد الابر فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي

(١) الطريقة المرغنية لاحمد المرغني الذي اخذ عن احمد بن ادريس هي احدى الطرق الاحمدية الادريسية في عسير وعدن والسودان .

متضجراً . قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه : طويلة ، والله طويلة . الشيخ يحتاج الى الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء لا يملون استماع قوافيهم . هوذا اخر لا حسنة حتى في صوته . ولاحقٌ جعلنا نترحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ، آمين . وكان الحر شديداً ، والهواء ساكناً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ، فينعش قوانا ، والرطوبة اثقل ما فيه ، واللزوجة افجع قوافيه فاستجرنا منه بروح الشيخ الطاهرة ، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكتة الشعراء ، ومنطقة الاولياء ، يا مسكِّنة النهقات ، ومحرِّكة الحلقات ، اسمعينا ، ارحمينا ، آمين .

استجيبت في الحال طلبتنا ، فوقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادىء واشارة لطيفة ، بدأ بـ« لا اله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررها وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمئة مصلياً ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة مجلياً ، وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يمناه ، وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرضاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح البصر ثم امست كأنها تصيح : لله لله لله ، وسكتت فجاة كمن أغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله . وجلس الشيخ . فقام آخر يثب وثباً ويقول : حيْ قيْ[1] . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حيْ قيْ ! وتحركة الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحاً في الجو ، واستمرت في

(١) اي الحي القيوم .

حيث قيّم نصف ساعة والشيخ يثب في وسطها ويخلج، ويصفق كفاً على كف. كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في «الحال».

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة سناً، وهو اصغر اولاد الفقيد، فبدأ حيث انتهى اخوه. وكان يتلوى كالسكران، ويرقص تارة ويثب طوراً كالمجنون. مثّل الولد دوره تمثيلا ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدهشاتها واضحكهم كذلك. كهرب الولد الحلقة. اضرم فيها النار. قبض على ما تبقى من رشدها ورماه خارجاً. صاح بها فرددت الصيحات ولم نعد نفهم ما يراد. الا انها اشبه بالانين. كأن الاربعمئة رجلا اصيبوا بألم شديد فأنوا انة واحدة. وبدأت تظهر كرامات الشيخ. هوذا عبد امسى جماداً، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه. وذاك وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعاً مغمى عليه. وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه فتفلت منهما وضربهما، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة. حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد.

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد. سقط امام الولد الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل من فيه عليها، فوثب فوقه ولم يأبه له. وهذا آخر يخلع ثيابه.

«خلعت عذاري واعتذاري لابس ال‍ خلاعة مسروراً بخلعي وخلعتي»

رمى بعمامته وبجبته وبدثاره الى الارض. فاوقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية. استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة: يا لطيفة، يا شريفة، يا كليمة ابي حنيفة، يا مسكنة العباد، ومنطقة الجماد، يا ربة الحال، وسراج الترحال، قفي، والطفي. لا تقتلينا بالكرامات، ولا تسكرينا بالشعوذات، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات، امين، امين.

الفصل السادس

احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي – مولد السيد احمد – يدرس ويدّرس في فاس – اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي – العلم بالغيب وما يدعى عند الافرنج Clairvoyance – اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الدباغ – اجتماع الدباغ بالخضر ابي العباس – الطريقة الاحمدية – « امرنا كله جد . من لم يُعطِ الجد يُعطَ الجد » – السيد احمد في مكة – رحلته في تهامة – انتشار الدعوة – وفاته في صبيا – تلميذ الشيخ ابرهيم الرشيد – الطريقة الرشيدية وترهاتها – آيات صوفية – فلسفة الزهد والفقر – الامام علي وقطب الجان القتالي – المجيدري يأخذ عن قطب الجان والسيد احمد عن المجيدري – محامد وصلوات وتأملات – استعارات صوفية – السالكون والمشعوذون .

كتبت عند وصولي الى الحديدة كتاباً الى السيد محمد امام صَبيا وجيزان استأذنه بزيارته ، وبت انتظر الجواب . وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيَّد ستة ايام فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة التقديس ، السيد احمد ابن ادريس ، كبير بيت الادارسة ومؤسس ملكهم في عسير . وفزت بطرفة من ترجمة حياته ، وبنفحات من قدسياته ، فجئت امتع القارىء بها علَّه اذا كان اديباً يستفيد ، واذا كان روحياً يستزيد .

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب . والسيد احمد ، نور من انوار الثاني . فقد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب . ولد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمال فاس في السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الالف (١٧٥٨ م) وهو شريف حسني من السادات الادارسة المشهورين في بلاد المغرب . درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي

في المواضيع التي شاءت العزة السرمدية تلقينه اياها بالوسائط وبدونها .

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشرافه على الاسرار الالهية والكونية يكثر التراداد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسن في الموحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هـذه الارواح القدسية وكمالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بواسطة عالم من علماء شنقيط يدعى المُجيدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة الالطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكلية الازلية . اني اتصور المجيدري يقول للتازي : هـذا الشاب الادريسي مجد مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في علوم اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في بادىء امره يدرّس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنت الساعة يا مجيدري ، ايتني به فاجمعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول ، ها هنا سراج الطريق . فلازمه وانقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق استرة الغيب فيرى ما لا يُرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها علماء اليوم Clairvoyance منها انه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب

تعليلاً لطيفاً جديراً بالذكر. ان المربي او الواسطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات الحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حياً في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى الله وتارة ابعد » . اما اذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعهده فيه فيستنتج من ذلك انه مات. أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقاً ؟ هو ما دام حياً متقلب ، او بالحري يتنازعه دائماً عاملان ، عامل الخير فيقربه من الله وعامل الشر فيبعده عنه تعالى . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الواسطة الاولى . اما الثانية وهي بشرية كذلك ، فتجمعه بالخضر ابي العباس . الا انه قبل ان نصل الى الخضر لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي. نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس. وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ستة وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشر سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الان كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً في اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحايين ارتزاقاً . فمر يوماً بالدباغ وهو يريد ان يتجر في الحنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب واتجر في السمن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحاً كثيراً . فجاء اليه شاكراً . فقال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فتصدق به. فعمل بامره ولزمه منذ ذاك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها

بواسطته من الخضر ابي العباس. وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران ضريحه وينشدان هناك الاشعار.

لقد نبتت في القلب منكم محبة   كما نبتت في الراحتين الاصابع

.....

تعشقتكم طفلا ولم ادر ما الهوى   فشاب عذاري والهوى فيكم طفل

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله فمات ولده فأخبر بذلك فارسل الى اهله يقول : لا تدفنوه حتى احضر . فحضر بعد ثلاثة ايام فخاطب ابنه قائلاً : من قال لك تموت ؟ قم باذن الله . فقام الولد حياً . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عادي مألوف. واني ناقل الخبر حباً بنشر ما اظنه ظلاً الهياً لحقيقة كلية لا بد في مستقبل الانسان والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العامة يستخدمها صاحبها لخير الناس. يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل. فاذا مرض احد في بيتك تقول له: من قال لك تمرض. اشف باذن الله تعالى فيشفى في الحال. وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول مثلاً : وددنا لو جاءنا احد بشرٍ من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول بعض اصحابه : كبر سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له من بنانه ، كان ينهض فيتهيأ ويتزود للسفر ويجيء الى شيخه فيقبل يده مودعاً ويقول: سأجيء لك بعنب من البحر. فيقول له التازي سراً في اذنه: يا احمد امرنا كله جد ، من يُعطِ الجد يُعط الجد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء بها الى مصر . من يُعطِ الجد يُعط الجد . كان يومئذٍ في العقد الرابع من العمر ، فاقام في ارض الكنانة قليلاً ثم سافر الى مكة فاقام فيها ثلاثين سنة يجادل ويناقش العلماء ، ويشرح ويعلم العلوم الروحية . وكان يقول دائماً :

لكل نبي دعوة مجابة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخلاف بين السالكين من سفيين وشيعيين وبين اهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذاك الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها . فتقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقة عند وليه طلبة مقبولة، ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرىء عند السالك مثلها الخ . هذا نظام في العقيدة والايمان يفسد غالباً الغرض السامي منها . قد رأينا مثالاً منه في حلقة الذكر . وهناك امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء والى المشايخ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كان من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكني اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره اللهم اذا كان مجداً مخلصاً الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد ابن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبة المشايخ العلماء. يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية: لم يبق على وجه الارض احد تنتفع منه الا القرآن. فقضى بعد ذلك سنيناً عديدة لا يشتغل بغير الكتاب وتفسير آياته ودرس حقائق معانيه . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته المأثورة : طريقتي سم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجل : طريقتي ما فيها كون[1] القدم الاول ها هنا والثاني عند الله. هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه وبين النبي كما تبين واسطتان بشريتان هما التازي والدباغ وواسطة روحية هي الخضر

(١) يريد بالكون الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولاحقاً .

ابو العباس. والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الواسطة بينه «ص» وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به ويأخذ عنه في اليقظة وفي المنام. وكذلك السيد احمد، فقد استغنى رويداً رويداً عن الوسائط كلها، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين، وصار في آخر امره — ويصح ان نقول في بداءته — يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام.

قال السيد احمد: اجتمعت بالنبي اجتماعاً صورياً ومعه الخضر فامره النبي ان يلقنني اوراد الطريقة الشاذلية[1] فتلقنتها بحضرته «ص» ثم لقنني بامر من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات. ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الخضر وصار يكلمه بدون واسطة: يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص[2] والصلاة العظيمية[3] والاستغفار الكبير[4] المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والاخرة. وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير: خزنتها لك يا احمد. ما سبقك اليها احد. علمها اصحابك ليسبقوا

---

(١) قد سمى السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في تهامة وعسير اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادمية مسلك الشاذليين. وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية تتصل بواسطة شيوخ بني ناصر في المغرب بالشاذلي. وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسمحون بها الا للعلماء.

(٢) اي لا اله الا الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله

(٣) منها: اللهم اني اسألك ... ان تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم ... صلاة دائمة بدوام الله العظيم، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً، يقظة ومناماً، واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم — كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٨٢

(٤) منه: استغفر الله العظيم .. واتوب اليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والاثام .. من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عدد ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم ... كما ينبغي لجلال وجه ربنا وجماله. — كتاب الاحزاب صفحة ١٨١

بها الاوائل .

لعمري ان من يتجه بكل قواه العقلية والروحية والقلبية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر بالنبي ، ويقرأ ويردد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمية » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصورها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فاراها بالعين المجردة كما اراها بعين الحلم والروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، واسمعها كذلك تنطق بما طالما حلمت به ورددته مراراً وتكراراً ، يقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتدأ بالتازي معلماً وانتهى بمحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل : الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي . اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه[1] هوذا الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة .

اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيهما الباع الطويل على الاخص في علمي القرآن والحديث « رواية ودراية » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والتقاليد ، ما رُوي منها وما ادركته البداهة واقره العقل . واني ازيدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلو فيه ولا مبالغة : « قد خصّه الله بالمواهب

(١) واسألك يا الحي ان تحققني بشهود ذاتك ياذا الجلال تحقيقاً كلياً وشهوداً عينياً يستغرق جميع ذاتي وصفاتي وجملة اجزاءي وكلياتي ويخرجني من شهود كل شيء سواك . . . . . واسألك باسمك العظيم ان تمتعني في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء في الارض ولا في السماوات وأفض على جميع ذاتي لذة ذلك الشهود حتى اكون كلي لذة ذاتية الحبة سارية في نفسي من نفسي لنفسي . — كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٨ و٩

المحمدية والعلوم اللدنية[1] والاجتماعية الصورية » . كل هذا صحيح شريف. واشرف من الاثنين الاخرين الاول اي تخلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امراً يختص بعلوم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة التي اجله عنها . ولكنه استجال على فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فيرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون . بل كان اذا سئل عن شيء في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم اللدنية . واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول . فما الصلة يا ترى بين كفه وبين تلك العلوم والاسرار؟ حبذا لو اذن للشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن من اماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم يأذن للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له : لا تخربها يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد محمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد احمد الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد أعجب جداً بالسيد احمد ولزمه مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الادريسية والشاذلية . ولكنها تدعى محمدية لاتصالها بواسطة الادريسي فالتازي فالدباغ فالخضر بالنبي . وقد عادت الى الغرب بواسطة السنوسي ، وسارت الى افريقيا بواسطة محمد المجذوبي السواكني ، احد اولياء السودان « الشهير في وقته بين الخلائق ، بالكشف الصادق ، والكرامات الخوارق » . فقد صحب السيد احمد مدة عديدة واخذ الطريق عنه .

---

(١) العلوم اللدُنية التي هي من لدنه تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بواسطة بشرية او روحية .

ثم اتجه القلب الى اليمن، فبعث الله منها احد السادة، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خيراً من مكة لمن يوم الصيد، صيد القلوب . كانها تحوم هناك . جاء السيد عبدالرحمن بن سليمان الاهدل[1] مفتي زبيد في عصره فالفى السيد احمد فيها « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم » ولما عاد الى وطنه حدث في زبيد عن شيخه الادريسي واثنى عليه كثيراً . ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه النفس الياني والروح الريحاني . وبين هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته – بذكر الصالحين تتنزل الرحمات – هزهم الشوق اليه، ومثلهم الوجد بين يديه، فقال السيد الاهدل : هذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : أرّخوا اليوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئذٍ ان حرّك الله داعي السفر في قلب السيد احمد ثم امر به فخرج يبغي مريديه يوم هاجهم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كان اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبدالرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته، داعياً الى طريقته، ناشراً ما منحه الله من علوم اسرار الكتاب والسنة . وكان حيثما نزل محترماً مبجلاً، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعز ووصاب، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنيرون بمشكاته وينتفعون ببركاته[2] بل كان العلماء والمشايخ له سامعين، ومنه آخذين، وكانت زبيد نقطة دائرة اماله . اقام اول مرة فيها عشرين يوماً، وعاد بعد ان ضاف في تهامة اليها، فاقام فيها بضعة اشهر، فاخذ الناس يتسابقون الى اقبال دعوته

(١) السيد عبد القادر الاهدل في مراوغه اليوم هو حفيد السيد عبد الرحمن واحد افاضل العلماء هناك

(٢) ولقد املى عافاه الله من تلك الرقائق والحقائق ما استنارت منه قلوب سليمة، وتداوت من جراحات غفلاتها قلوب أبية . – من كتاب النفس الياني والروح الريحاني .

ونشر طريقته ، التي اجازها للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة « في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتها في بيت الاهدل الى اليوم .

مما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البلاد كانت منذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . فقد كان اهلها متيقظين ، وفي العلم راغبين . فكان الشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، واليوم لا تجد في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . اتلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد ، ام نلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس . اني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومُراوَغه وباجل ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفية ، وفاتحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صبيا بكم فغدت موردا للعلم والنزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلت قدراً على زحل

ان اخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صبيا مدة السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتنم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منها التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركبة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب في السنة الثالثة والخمسين والمئتين والالف (١٨٣٧ م)

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى شيخ صبيا ووليها ، وارسخهم قدماً في علومه واسراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك . حلقة حضرناها في عدن فيها الولدان ينغمون ، ورجال يطيبون ويتصابون ،

وصفوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون ترنو الى القمر في السما، ثم الى الاقمار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل بل التمثيل . انه في تعليم الولدان، لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود، فيستصبي في اذكارهم الجلمود ، ويغرس في الحلقة سر الوجود — خاتمة المحامد والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني اجل السيد احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه الشريفة الطاهرة منها .

حققني يا الهي بانسانيتي حتى اكون انسان العين الكلية الالهية التي لا يحصرها شي. ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعني غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من احوالي بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذاك السماع الالهي لحظة ولا اقل من ذلك .

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

وتجلّ لي يا الهي بمقام الاستواء الجامع لمراتب الخفية الالهية كلها حتى اعطي كل مرتبة الهية حقها من نفسي .

وتجلّ لي يا الهي بسر توحيد الذات المُطلسم في آية الانانية الموسومة : انا الله لا اله الا انا فاعبدني .

وتجلّ لي يا الهي ياذا الجلال والاكرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي دائماً ابداً سرمداً . . . . منزهة ان يلحق بها او يقرب منها لذة في جميع الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض ، من غير ان تفارقني تلك اللذة لحظة ولا اقل منها حتى اكون

حقاً الهياً في نفسي .[١]

من اين للعامة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون ان يتفهموا مثل هذه الروحيات ، ويتذوقوا مثل هذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يدركوا معاني شيخهم الاكبر في « الاستواء الجامع للمراتب الحقية الالهية » وفي « آية الانانية الموسوية » و « بسر توحيد الذات » و «بانسان العين الكلية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوقات لفروا من الحلقات هاربين ، وراحوا افراداً ساكتين قانتين سالكين . ان بشراً يصبو الى قلب الالهيات بل الى ذروتها ويبتغي ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطيها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، ولا ينفع بعد موته غير افراد من الناس بل يضر كثيراً في ما يقام له من التكيات وما يسود باسمه من الجربزات .

اجل ، وقد يضر اشد الضرر بفلسفة في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للامم والشعوب الا اذا عمتهم اجمعين . ولعمري انها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمةً وغنا . بعرق جبينك تأكل خبزك انها لحقيقة اقتصادية والهية معاً . ولكني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدي مقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة و حرفتي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة اسميها « كيمياء اليقين » كما فعل سيدي الابر احمد بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجيء بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادر والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ،

---

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٢ – ١٥

فاظلم امة كاملة بحديث من الاحاديث النبوية : — لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فمه .

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها امة جمعاء . اني اذا اخترت لنفسي الفقر والزهد اخطىء اذا استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلاً يتمثلون به فكيف بي اذا قصصت تعزيزاً لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في المسجد ويلزمه دائماً ليل نهار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له : من ملك السماوات . فقال : وهل يدلي لك بالقفة ؟ فاجاب : نعم . فاخذه الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامام وخادمتها وامامهما اكلة طيبة همتا باكلها ، فطرق الباب طارق فخبأت الاكل في البئر . دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كثر المؤمن ربه . قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده . . . ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب لله . ها هنا قلب الجمود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم المسلمين .

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب الاحزاب والاوراد ، غير رسالة « كيمياء اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المبتكر الانظار ، ويفكه فحواها الابرار والتجار ، ويساعد كذلك من يبغي في الصوفية والزهد مسلكاً صالحاً قويماً ان فيه كذلك « الحزب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرّفتك ايها القارىء تعريفاً سطحياً بالمجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع « سيدنا احمد بمولانا عبدالوهاب التازي » . وازيدك الان به علماً . يظهر ان روحية المجيدري كانت مزدوجة اي مركبة من روحيتي الانس والجن . ويظهر انه كان يباري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب يقظة ومناماً . فاجتمع

هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقاً لسيدنا علي رضي الله عنه . من المعلوم في التاريخ ان علياً حارب الجن وغلبهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجان القفاني الذي كان لعلي كالخضر ابي العباس للنبي . هو القفاني الشهير بعينه الذي اجتمع به المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد . اللهم افتح لنا .

ان الفرق بين هذا الحزب وبين غيره من الاحزاب يحملنا على تفضيل الخضر في الرواية والحديث . بل فيه ما يحط من قدر الانس والجن واسطة ولا يزيد الامام علياً والسيد الادريسي رفعة وفضلاً . فيه من مرادفات الادعية والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، ما نجده في غيره من الصلوات ، وفيه من التسخط والغضب على الاعداء والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك ويزعزع فيك لاول وهلة الايمان بالصالحين الابرار . ولكنك اذا تبصرت قليلاً يطمئن بالك وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب. خذنا بحلمك في ما ستسمع . ان من يستحسن شيئاً ليرغب فيه . فلو كان السياسي او التاجر او الجندي او الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات سيدي احمد لقلت : كفر بالله . ولكن المجنون بالحقيقة الكلية ، المجذوب اليها بجمعيته ، ومن صح ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وسمت اشواقه ، وتنزهت عن اللؤم والجشع والانانية والكبرياء والنفاق اعماله ، وكان مجاهداً في سبيل الفضائل الروحانية والخلقية كلها ، ان هذا الرجل يشتهي ان يطهر العالم والناس من اضدادها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان والشرف والنزاهة وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله وان يسأله تعالى — وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين — ان يباعد

بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك : اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم تدميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لاتقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجلة لخواصك المقربين وعبادك الصالحين ... اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك نرجو ولاية الاحباء والاولياء والقرباء امين [1].

هذا في كتاب الاحزاب، ويتلوه من المحامد ما لا تضاهي ورعاً وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمدة الثانية وهي جامعة مستوفية ، وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم .

ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها فقد كانت له فترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الحبور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصيص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى مما هو معلوم محسوس . اجل ، وقف مرة في « كنف الله وجواره » يعدد مثل ايوب الصديق المصائب والافات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والباسور ، ولا استثنى وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن المجيدري عن قطب الجان القفاني عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

ولكنت وقفت ها هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين من اهل العمل المحققين » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في

---

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٦٦

كلامه عن حزب آخر[1] : ان المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغتني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والاحزاب بالمغفرات والاجور عند المسيحيين . انها والحق يقال لآفات التقوى وسيئات الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمة ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .

لولا لطفك بحجبك النورانية لاحترقت صور الكون كلها .

ان دون الله عزّ وجلّ سبعين حجاباً من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب الا زهقت .

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهمست اسرارها همساً في الاكوان .

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك والمرسلين وطاشت بجلاله ألباب ملائكتك الكروبيين ، وانعدمت فيه معارف اوليائك واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتحير الكل في الكل . . . ان تخرجني من شهود كل شيء سواك . . . فتتفجر ارض طبعي كلها عيوناً عشقية . . . هنا وهناك . . . وراء الوراء بلا وراء ودون الدون بلا دون .

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية ، اذا فاز بها السالك ، المالك هنا وهنالك . كلمة اخرى قبل ان اختم هذا الفصل . لو ارتقى كل السالكين الى هذه الدرجة من الادراك الروحي والتذوق الالهي لبطلت حلقة الذكر . واذا لم يرتقوا فحلقات الذكر كلها لا تفيد .

(١) الحزب المغني لسيدي أويس القرني . ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

الفصل السابع

الادارسة في عسير

الرسالة الروحية – الحكم في عسير في ايام ابرهيم باشا المصري – انتشار الوهابية – ثورة الاهالي على الحكم المصري الحجازي – انتشار الطريقة الاحمدية – خروج المصريين من البلاد – حكم الشريف حسين – رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ – امام صنعاء والاساحل البحرية – الادارسة واشراف ابي عريش – زيارة الامام في صبيا – الادارسة في مصر والسودان – التزوج بالجواري العبيد – فساد الدم والملك – السيد محمد الكبير – اخلاقه – مصادر قوته – معاهدته مع الانكليز – اخترابه واعداؤه – الترك والزيود – ما خسبه بعد الحرب – الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فيهما – علي بن محمد الامام الحالي – خمرة بيت ادريس .

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة
لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .
احمد بن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧ م في صبيا . فكفّن بكفن التقديس وشيع الى القبر ولياً ، لم يبغ السيادة على احد من الناس . ولم يحلم على ما اظن واعتقد بملك عالمي ادريسي في البلاد العربية او خارجها . ولكن من ضريحه ، وقد امسى مقاماً ومزاراً ، مُدت يد السيادة وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب ، خصوصاً البدو منهم ، واذعنوا لها . ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم يفطنون . يموت الرجل الصالح الابر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، ويؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي جديد .

كانت تهامة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكم مضطرب

لا تركياً يُعرف ولا مصرياً. ومع ان البلاد، من القنفذة حتى المخا، كانت في حوزة ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦م باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر ظلوا نافرين منه ثائرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصريين والحجازيين ان كثيرين منهم، اقتداء بزعيمهم ابي نقطة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقد كان انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية . بالمقاومة تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات. ولكن السيادة الروحية المغربية فازت نهائياً على السيادة الوهابية . لان « توهيب » الناس يومئذٍ في تهامة لم يكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريفي الذي كان يوماً تركياً ، ويوماً مصرياً ، ويوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندما قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠م[1] كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد المصريين في حملاتهم على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي بن حيدر من اشراف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقاً في حوزته وجزءاً من بلاده . فاتفق محمد علي باشا يومئذ مع اقدر الثلاثة وادهاهم وهو الشريف حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً ، وفي سياسته مراوغاً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وباخراج الانكليز من عدن . فنشبت بينه

(١) في الفصل الثاني من القسم الرابع في هذا الجزء بيان الاسباب في الجلاء .

وبين امام صنعا. حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة في يد الزيود اسيراً ، وبسط بعدئذٍ سيادته على اساكل تهامة كلها حتى المخا ، فأنّت من جوره ومظالمه الناس .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدة واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد الى مقره في ابي عريش .

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الحديدة من الادريسي . وكان الانكليز يومئذ كما هم اليوم متذبذبين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال .

نزل توفيق باشا في الحديدة ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في الفصل السادس من القسم الثاني من هذا الكتاب . وقد كان اليمن الاعلى اهم ما يبغي في خطة الاستيلاء ، فعادت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً لا الاتراك ولا اشراف ابي عريش . فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكماً روحياً بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتمددت رسله شمالاً وجنوباً في البلاد .

جاء الناس من اليمن ومن تهامة وعسير يزورون المقام في صبيا ويتبركون. وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقيماً هناك تتنازعه عوامل الدنيا ونوافل الدين . ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجاً سيد الاقوام ، فسرت في مجاري القدسيات السياسة ، وشرع ابناء ادريس يناهضون سراً وعلناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم . ثم حاولوا بواسطة العشائر ، ابناء الطريقة الاحمدية الجديدة ، ان يتغلبوا على الاتراك فلم يفلحوا في بادىء الامر . ولكنهم استمروا يستثمرون تلك السيادة الارثية التي اصبحوا

بسببها اثبت قدماً ، وابعد نفوذاً ، واوسع جاهاً من سائر اعدائهم في البلاد. وقد تجاوز ذاك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب .

جاء ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن ادريس مهاجراً من بلاد العرب. ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر وولد للسيد عبدالمتعال عدة اولاد سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك واقاموا في القيروان. ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابناء عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم وسليلتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقران .

اما جدهم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائه فاساء الى شريف ارثه . بل ان فعلته التي اضرت ولا شك بسليلته لتتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو لا يزال في ظل ابيه الابر ، قريباً من اثاره القدسية . قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب جنساً ولوناً بالمزاوجة ، وقدمت شهوداً احياء على بعض نتائجه . ان من يحب بيت ادريس ويغار على خيره واسمه ليأسف جداً لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانظار ، ويحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ، لان من يقتنون الجواري في الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرون . الا ان من كان بعيد النظر حكيماً يدرك ان البيت الشريف الطالب السيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله .

اقتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً دعاه علياً ، فكانت بداءة الدم الاسود في سليلة بني ادريس بعسير . ثم

تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام، السوداني الاب انجب ونبغ في بيته، فلا النجابة ولا النبوغ يصلحان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه .

ولد السيد محمد الذي يستحق ان يدعى الكبير في صبيا سنة ١٨٧٦[1] وجيء به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفره بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو بدُنقلَه ، وتزوج بابنة الشيخ هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك . رسا وتزوج في بلاد السود، بلاد ابيه وجدته، لانه لم يكن في دمه وهيأته ما يوفقه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستعباد . وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه ، فكبرت معها المطامع واستيقظت قواه فشد الرحيل .

عاد السيد محمد من دنقله الى عسير، الى مسقط رأسه ، الى قاعدة ملكٍ جله في ذاك الحين صوري او متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطنابها ، وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغوون رؤوساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منها . فانقلبت عليهم اصحاب الديون واستمالهم الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم فيه ، واستمان بزعيم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومه ، واقتدى بامام صنعاء . فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة . ثم مد سيادته شمالاً وشرقاً الى الجبال فجمع عدة افخاذ وبطون من العشائر تحت لوائه الذي رُفع برهة عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ ويتلألأ في سماء آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليا

---

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٣

ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين خصم الترك اللدود ، والحلف الذي لا ينقض العهود . اخذ من الايطاليين سلاحاً فاستخدمها ناراً وسياسة على عدوها وعدوه . واخذ من الانكليز مالاً وسلاحاً فخدم الاحلاف في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطماع ، ولا يفسدها الخداع . وقد كان لا يزال له غير الاتراك عدواً . فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذاك الحين كان يعد انتصاراً على الاتراك .

ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداءة امره على مبدأ واحد . فقد كان عربياً صمياً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحالف اية دولة كانت على اعدائه الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه . فما تذبذب في مبدئه ، ولا تحول عن عزمه . حارب الاتراك وحليفهم الشريف وصديقهم الامام فكان في الغالب منتصراً ودائماً عزيزاً . لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ، ولكنه سلحها من لدنه بالعزم والمضاء .

ومما يجهل الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الالمان . فقد عقد معه الانكليز بواسطة حكومتهم في عدن المعاهدة الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهدوا ان يقدموا له السلاح والمال ، ويحموا اساكل بلاده من التعديات الخارجية . فباشر في الشهر التالي القتال . خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فدحرهم دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صَعده وشمالاً في تهامة الى القنفذة . ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ اخلاها للملك حسين اكراماً لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلق بجزيرة فَرسان وكان قد اخرج الحامية

التركية منها واستولى عليها .

كان السيد محمد حصيفاً ذكياً ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاقات ، بالزرانيق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع . وكان له عون كبير في ارثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاءه الفطري لمعاناً .

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلة في معظم شأنها على الانكليز لا تستغرب من امير يُعد في البلاد دخيلاً ، وهو في تجهيز العساكر والدفاع عن نفسه يحتاج دائماً الى المال والسلاح . اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ، منها ثلاثون الف ريال من الحديدة[1] بيد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسمئة نفراً وهو يقوم اذ ذاك مقام الشرطة في البلاد .

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بواسطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون الف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو . يجيء رجال كل قبيلة او بطن او فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادةً ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية . ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها . لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر . اما الامير الكريم الذي يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على زملائه في السياسة ، والمنتصر على اعدائه في الحروب . ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم . فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر .

(١) اي ان خراجه السنوي نحو مئة وخمسين الف جنيه ، منها ١٥ في المئة عشور اي حبوب وغيره و٨٥ في المئة ذهب وفضة .

دعوته بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر مَن حكم في عسير من بني ادريس ، بل هوَ مدنياً سيدهم الاكبر كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحياً . وفي الاثنين ، الصوفي والسياسي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي. قد تكون العبارة مبهمة ، فيفهم منها ان مصدر القوة في واحدة من تلك القوتين ومصدر الضعف في الاخرى . ليس هذا ما اريد . ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداءة وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشوء ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء . ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية . اي ان حكماً مثل حكم الادريسي يضعف في التوسع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة . والطريقة لها مقام قد تصفو في جواره ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه . وها هنا لعمري فشل الصوفي.

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انما هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته . وليس نبوغه وكبر اخلاقه بحجة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او تاجراً لما هم لونه وشكله ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب الاجنبية مقاصد السيد محمد فاتسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوباً بين ميدي واللُّحيَّة عندسيل يدعى وادي العين ، فامتدت بعد الحرب الى ما دون الحديدة فدخلت هذه المدينة ومعها اللحيَّة والصليف وباجل وعُبال والزيدية في ملكه . ولكني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم السيد فيها .

فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر

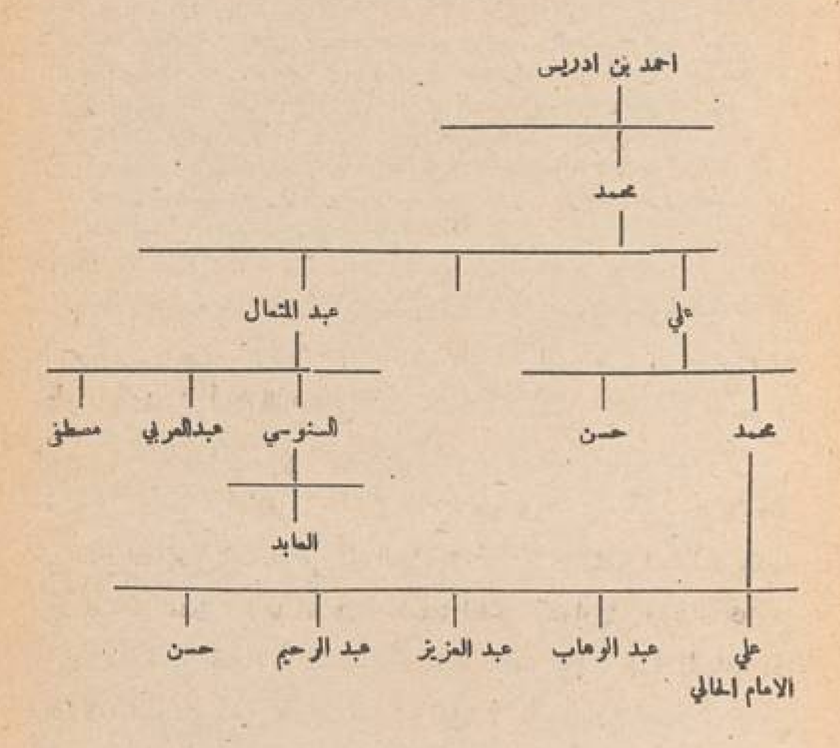
علياً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته . والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده جده السيد الاكبر .

ولد السيد علي الامام الحالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي ولا تزال حية ومقيمة في جيزان . وكانت قد اقامت وابنها علي سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد محمد منها ، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صبيا ، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه مشرباً مبادئه في السياسة والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان لحج يثنون عليه ويقولون انه على جانب كبير من النباهة والهمة . اما المقربون اليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . والسيد العابد الشاب اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبة في عمران البلاد سيتوفق ان شاء الله في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى تحقيقها(١) والسيد علي اربعة اشقاء هم عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم . هؤلاء الثلاثة من امهات حبشيات متوفيات . ثم حسن الصغير وامه كذلك حبشية ولا تزال في قيد الحياة .

---

(١) لم يتوفق السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن تبعه من العشائر في دفع اغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥ . فاستولوا باسم الامام يحيى بن حميد الدين على الحديدة كما تقدم وعلى السواحل البحرية الاخرى . واستمر بعد ذلك الحكم الادريسي مضطرباً متزعزعاً الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير حسن الذي عقد وجلالة ملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لبها هو ما معناه : سنحميك بشرط ان تسمع وتذعن .

هاك شجرة هذا البيت الحاكم في عسير



الفصل الثامن

على ظهر الباخرة

ثيابي المنثورة — رفيقي المحزون — الوداع — الرفيق الجديد — الحر والليل والامواج ساكنة — بويخرة التهوجي — جثث المسافرين — شيء ينعش — اصوات تذهب النوم — الفجر النضاح — لا خوف على من ينام بين الحك والخارطة — ربان انكليزي كريم — يهدينا الباخرة — يجيء الى المائدة مثلنا في ثيابه الرسمية — « وخلعت نعلي اكراماً لكم ايها الافاضل » — شاطيء تهامة — جزيرة قمران — الحجاج — السيد الحضرمي — ضجيج بعد نصف الليل — الربان يساوم العبيد ويودعهم — التربية الشرقية والتربية الانكليزية .

جاء الجواب من حضرة الامام مرحباً بنا ، ورست في مياه الحديدة ذاك اليوم باخرة وجهتها جيبوتي ، فآثرناها على السيارة التي استمرت معيدة وقمنا نتأهب للسفر بحراً الى العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من اصبح في ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثيابي قصة محزنة . نثرتها في الطريق براً وبحراً . تركت الرسمية منها في مصر — ومن غير الانكليز من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية منها في جده ، والصيفية في عدن ، وها انا في الحديدة افاخر الدراويش والسالكين بما ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، وما فضل المسافر اذا كان لا ينتفع بشيء من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر في قيافتي الحجازية احمل عصاي وفوطة فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان يستغني عنه .

اما رفيقي الجديد — وقد يسأل القارىء عن الرفيق الاول ، عن القسطنطين . فالجواب واجب قبل ان نستأنف السفر . فُجعت في الحديدة بفراق القسطنطين . فقد وصله كتاب من جده فيه ان الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتاً في غيابه ، وان الفارس الفيلسوف في القشلان لم يسحب السيف مرة من نصابه ، وان نظارة الطيران مكسرة الاجنحة ،

والطيارين يائسون ، وان مدير الميناء هجر الشراع وراح يرعى الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه ماله فرهارباً ، وان «توتو» كلبته المعبودة، وقد اضناها الشوق والنوى ، مشرفة على الموت . فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو اكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يوم والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو — اقرأ — اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا كما تعلم اعز عندي منها — هوذا المركب في الميناء . سأركب اليوم فاراها بعد يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أوَلا يبقى المدني معي ? فقال الولد وهو يثب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمي ، انا مشتاق الى امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد اطال الله بعمر امك يا مدني، وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول يا عدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان ، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً . فظننت انك تنوي المتاجرة في الحديدة بالسكاير ولكني سمعتك تقول : قد لا يرسو في الميناء باخرة اخرى في هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت ارى لك الخير الجم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفطمك عن هواك . فياليتك دمت رفيقاً لأراك «تبسط» في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما شأنك الان وتلك اللفائف التي كانت تتلو الواحدة الاخرى في فمك ? وكنت تدخن في اول الرحلة المعطرةَ الذهبيةَ الفم ، فصرت تدخن ، لمفي

عليك ، ما لو شمت رائحتها « توتو » لأغمي عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر بغير الجميل من منظور وملموس ومشروب ومشموم . فاسأل الله ان يعصمك دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوّه النفس ، وان يمكنك دائماً من تلك المعطرة الذهبية الفم ، ويعلمك فوق ذلك الحكمة والاعتدال ، دمت محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة ، وخادم هو من السادة ، ليفرش له السجادة . وكنت انا في ذي الابهة جزءاً منها افتش عن رفيقي الصوفي فلا اجد غير الوكيل السياسي ، واغرب ما في حاجاته ومواعينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب رافقتنا الى الرصيف . وكان هناك وجهاء المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فما سرني ذلك لان البشرية آنئذٍ تغلبت فيّ على الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين . لم يشأ ان يرافقوه في السنبوك الى الباخرة ، فاستأنست بذلك وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ، في كلمته او اشارته ، ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحر من شمس النهار كامناً فيه ، والبحر رهواً ، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الامواج فاشغل النوتيون المجاذيف ، ووصلنا بعد ساعة الى جانب بوَيخرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير ذاك الاحمر الضئيل في رأس الدقل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم نادى وكرر النداء . فنهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا الينا يسبون ويزجرون . — « لسنا بلصوص يا كلاب انزلوا السلم لحضرة

الوكيل » فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فحم منه بباخرة .

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقذار ، في كل مكان . صعدنا سلماً اخر الى ما يسمى الدرجة الاولى فرأينا في الغرف المفتوحة ابوابها اناساً نائمين نوم الاطفال . ما ايقظ نداؤنا احداً منهم . ثم نزل الربان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم فسلم على الوكيل واعتذر . فاستأنست بصوته المومىء الى ما في نفسه من التهذيب والكياسة . ثم نادى احد الخدم فكفر عن اهماله بان امر لنا بزجاجة من السودا باردة وبكأس من الوسكي . فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث فحدثناه . فكان انتقالنا في ساعة الى شيء من المدنية مستحب ، وادب في ربان باخرة مستغرَب .

وكأنه احسَّ بما تسلل الى الاجفان فنهض يتقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى كنفه الخاص ، حيث الاسرّة العسكرية ، فنمنا كلنا تحت القبة الزرقاء وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع . ساعة فقط . ثم ضجات وقرقعات ، واصوات ترعج الاموات ، وسلاسل تُشد ، وابواب تسد ، وحبال تئن ، وجرس يطن ، وصوت الربان فوقها يحرك العبيد والحديد . سرت الباخرة ، وهدأت الاصوات والضجات ، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج بعد قليل الفجر على وجوه صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء .

اول ما شاهدته قربي دولاب الربان ، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره نيشان ، يقرأ الحُك ويدير الدفة وكان الربان واقفاً قبالته وراء طاولة عليها الخريطة البحرية . فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخريطة والحك . اما الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان

فهو من الذين ورثوا الحرفة عن اجدادهم . هو من سليلة اولئك البرتغاليين الذين فتحوا الهند قبل الانكليز، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاء . فقد كان الجزويت في استئثارهم عوناً للانكليز عليهم . ١٠١ ابناؤهم اليوم ، وقد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم شيء من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون على شواطيء البحر الهندي ويدعون غوا Goa ويستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها . ذكرت النيشان ، وما هو الا تطريز بالخيط الاحمر والاصفر يطرزون به قصانهم ، كلٌ لنفسه في ساعات الراحة من العمل . ما رأيت في النوتيين انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلاً ، من ولد الـ « غوا » ابن الهند والبرتقال .

كشف الفجر عن البويخرة وركبها فكان فضاحاً . هاك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوانهم واجناسهم وقيافاتهم وعدم اكتراثهم بما هم فيه من ضيق وحريق وقذارة . كل يهتم لأمره ، لما يلزم المؤمن ويتحتم عليه ساعة الفجر . هذا يصلي ، وذاك يدق البن . هنا امرأة تنفخ بالنار ، وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة ، واخر يدخن المداعة هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه . وهناك فوق زنابيل التمر شاب احكم بين رجليه مرآة صغيرة وهو يلف عمامته على رأسه لفاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها . والى جانبي سابر الغور يومي بحديدته الى القعر ويسحبها منادياً بالانكليزية : سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ! فلا نزال قريبين من الشاطيء ، شاطيء تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي نائمين ، الا فضل الدين . فقد كان تلك الساعة من المصلين .

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون ، وقد صنعت في بلاد الانكليز ، هي من بواخر القهوجي المشهور في عدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان بهادور الفيلسوف الحديدي . والقهوجي اسم لشركة من « عبدة النار »

نوتيوها كما ذكرت من الـ« غوا » نصف المسيحيين ، وربانها معاونه والمهندس من الكفار التي صنعت الباخرة في بلادهم . هذه شركة ملاحة شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لبواخرها . وهذا الانكليزي ، وقد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يمتعض من حال توجب عليه الائتمار باوامر الهنود سادته .

قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسيّر باخرة في البحر الاتلانتيكي محولها خمسة وعشرون الف طن . وتراني الان على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي الفارسي بخمس ما كنت اتقاضاه من شركة انكليزية . وما العمل ؟ حامض القهوجي احسن من مر البطالة في بلادي ... ولكني احب العرب واحترمهم . ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كريماً ، على ما تراهم فيه ، مخلاً الى السكينة ، جليداً قنوعاً سكوتاً مثل العرب .

نزلنا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قميصي البدوية وارداني مربوطة حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وتكته تصل الى ركبته . وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيه وفي ذوقه ، حافياً يلبس « البجاما » اي ثوب النوم . جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعليّ اكراماً لكم ايها الافاضل . اهلاً وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتكم . الباخرة لكم ، تأمرون فيها بما تشاؤون .

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هذا الانكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه احسن من « افريقيا »[1] باخرة واحسن منا ركباً . وهو دوماً لا يرى غير الحسن في الناس . وما كان في حديثه مرة مستهجناً ، بل دائماً مفكهاً مفيداً . الرسميات ؟ ربطنا في عنقها صخراً ورميناها في البحر ، فبدت لذلك الباخرة الصغيرة وبفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظهر

(١) اسم الباخرة .

في عزلة الاماجد وعزهم ، بدت كيختنا الخاص ، لا نتكلف فيه شيئاً يزعج او يسي ، ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعال. بدو متحضرون، جبابرة متمدنون؟ اي وابيك . انما هذه هي اللذة الصافية الحقيقية في الاسفار البحرية .

كنا نسير في مضايق خفية وظاهرة قرب الشاطي. بين جزر صغيرة لا اسماء لها ، الا قران وهي اكبرها . ولها في جنوبي البحر الاحمر من الاهمية ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج القادمين بحراً من الشرق، من الهند وجاوه ومن العراق وايران ، فيعرجون عليها للتطهر في رواحهم ومجيئهم ، قبل الحج وبعده ، فتتقاضاهم السلطة الانكليزية رسماً مدة الثلاثة الايام التي يقيمون فيها . وجلالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى الثلاثة الايام ، وعلى محجر قران ، وعلى الجزيرة كلها بحذافيرها . لا لزوم لها وعندنا جزيرة ابي سعد . هذا صحيح . ولكن في قران مركزاً لاسلكياً افادنا ، ومعمل ثلج انعشنا ونحن في الحديدة . وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا، فلا نشارك جلالة الملك اذن الا في قسم من احتجاجه . لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطي . وها هي الخريطة على منضدة الربان تنبي. بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا. من هو يا ترى اول من سبر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكامن اليم يستطلع اسراره، ويكشف للنوتي اخطاره؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وآمنها في الليل بالانوار ؟ هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضله كل من سيَّر باخرة في الابحر الشرقية ولجأ الى علومه ليسلم من الاخطار .

اجل ، قد تستغني شركة بواخر شرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها

لا تستغني مهما كانت عظيمة عن خرائط الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانيا العظمى تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكلترا كما كانت في عهد السكسون الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرها حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها وبرجالها . ولا خوف وايم الله على امة عندها العلم وعندها الرجال . لا تَرْتَب ايها القارىء العزيز بما اقول ان الانكليزي الحقيقي هو مثل هذا الربان الذي يسقط من عرشه ويظل مليكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ، مليكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض عليه مجداً مخلصاً نزيهاً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على الظهر ولا يؤاكلنا . رجل طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مفتول الساق . وهو من سادات صيوُون ، مدينة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائها ، حاد الذهن ، فصيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكلفاً ، وما كان في ما باح به ليخرج من دائرة التكتم والتأدب . الا اني علمت من تلويحاته انه عالم من العلماء وخطيب من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ ابرهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهما من شعراء وادباء مصر وسوريا ، ولم يسمع بالريحاني الا مؤخراً في عدن .

— سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

— قد يكون ذلك .

— وكيف ينخدع به امراؤنا يا ترى ؟

— العصمة لله .

— صحيح . ولكني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته وانه مع ذلك يحسن اللغة العربية .

— كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

— صحيح . وفي حضرموت كذلك .

— وهل انت مسافر الى جيزان ؟

— ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ، وانه مسافر الى ميدي . ولكن رفيقاً من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد هناك يبغي مقابلة المعاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكثيري في حضرموت القائم على الحزب القعيطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى الانكليز في عدن والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة من رائحتهم فقال اذ رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يجيئون الى جيزان ليمدحوا الامام ويستجدوه . وعندما نزل مساء ذاك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين متحاملاً فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو شحاذ كما اقول . وسيرجع وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا الى جيزان ومنها ، فسيسمع القارىء عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثنائها وهي اكبر مدينة تجارية اليوم بين الحديدة وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر الربان ان يقاول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى البلد ويدفع اجورهم . واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين . هذه كلمة تمهيد لما اقص عليك . نمت تلك الليلة على عادتي فاستفقت نصف الليل لاصوات تلج وتضج وقد اختلط اللسانان فيها ، الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

— يا اولاد الزنى تجيئون في هذه الساعة من الليل تساوموني ؟

عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم — وهي الكلمة العربية الوحيدة التي يحسنها — امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي

وسمع زميله يتسخط ويسب . فخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط .

دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى غدارون . ثم الربان : يا نتانة العبيد ، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش! والا اكسر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان تسرقوه ، يا نتانة العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة — امش .

ثم الربان الثاني وهو يقلب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .

الربان : ما في شغل لكم . امش . الباخرة تسافر هذه الساعة . امش .

زعيم العمال — على ما ظننت — باللسان الانكليزي المفجع : يشتغلون يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .

ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لغضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة نهاراً ، فباشروا عملهم في الليل واتموه قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي ايقظتني تلك الليلة فسلبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرقعة ، الراحة والنوم . ومع ذلك قد كنت مسروراً بما علمت . لا اظن ان شركة القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف ان ربان احدى بواخرها يدافع عن مصلحتها هذا الدفاع . ولا اظن ان الربان هاي ، وانا اعرف شيئاً من طباع امثاله الانكليز ، يخبرها ويتمن عليها . فهو يعمل ما يعتقده واجباً عليه ويسكت .

في صباح اليوم التالي جاءني فضل الدين يقول : قد عاد السيد . هو سيد شحاذ كما قلت لك .

فقلت : هل علمت بحادث الليل البارح – هل سمعت الربان يتسخط على العبيد ؟

فقال : سمعته وشكرته باسم القهوجي . لو كان السيد ربانَ هذه الباخرة لما كان يتزحزح من سريره في تلك الساعة اكراماً لاحد من الناس.

– ولكن تربية السيد شرقية وتربية الربان انكليزية .

– نعم ، والشرق كله في حاجة الى التربية التي تقدس العمل وتغرس في العامل مبادىء الجد والامانة والنزاهة والاخلاص .

الفصل التاسع

جيزان

القلعة – المدينة – الذهب والفضة – جيزان في ايام الحرب – المتاجرة – الزوار – الى السدة الادريسية – الاستقبال العسكري – والسياسي – في مجلس الامام – « عمان ريحانة العرب » – « هل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟ » – « اهل للاميركيين دين ؟ » – الاقتراع والانتخاب – قصة جورج واشنطون – استحسان السيد محمد واعتراضه – سؤال في الجغرافية – قصة لم تقص – محاسن السيد محمد – اجتماعنا به في الليل – الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في السنبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطيء والماء لا يمكن المرء اجتيازها الا حافياً مشمراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكراسي او بالحري الاسرة التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر في شبه السبخة التي كانوا يغرقون فيها الى الركبة . وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي الذي رحب بنا باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قريبة منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية ، اي انه ضخم البناء رفيعه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الآخر جديد بناه السيد مصطفى الادريسي ، واعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حوشين الواحد ضمن الآخر ، وحمام ومائدة افرنجية ، وسطح مسوَّر جميل .

كنت مما سمعته عن جيزان امثل لنفسي بيتاً من القش نقيم فيه ، وجواري حبشيات يخدمننا ، وولداناً يقفون فوق رؤوسنا وبايديهم المراوح يروّحون . اما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ،

والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة واما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات .

جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقاً بعدها عن صبيا شمالاً . فهي من البلدتين رأس المثلث الزوايا على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات . بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفساً ولكنها كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمراناً . بناها احد المحسنين الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة اسماؤهم في اثارهم . على انه لم يبق من مؤسس جيزان واثاره غير اسم البلد الذي يحلله العارفون الى كلمتين جا وزان اي جاء الزان ، من اسس المدينة وزيّنها بخلق الله . ولكننا لا نعرف من هو ولا نتيقن ان ما شيده وزينه كان في مكان جيزان اليوم او في غيره من سبخات تهامة .

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية الشكل يتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الاقدمين ، مربعُ سطحها اصغر من مربع اساسها . وبينها مفردات وثريات من النخيل ، وحولها ذاك الخط الذي يحيط بها كنعلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي اليه احد الحرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وايوان تحتله الشمس طول النهار . ووراء القلعة ، او بالحري القصر شرقاً بجنوب ، قلعة اخرى تشرف على البلد والبحر ، فيها بعض المدافع وحولها المتاريس .

سررنا ببيتنا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء ، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا ابهة فيها ولا جلال . ولكنها تومئ كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة

والاطمئنان . على اني من وجهة اجتماعية اقتصادية ، حرت في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية . حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد رزقهم .

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة ثقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هذا البلد ؟ وفي كل سفرة تحمل منه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تحيا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بعدن ؟ سؤال بديه حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاوليين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من مواردها . فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدى عاصمتي الادريسي ، وهذا اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة انحاؤها ، غضة حواشيها . يؤمها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي عسير ومن المدن جنوباً وشمالاً في تهامة ، فيجيء معهم الرزق ، التجارة والكسب والخيرات . يحمل الحنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها بواخر القهوجي والسنابيك . جيزان مركز استيراد وتوزيع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلها . وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يرى ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ،

وتغدق على كل محترم كسلان . اما سيد هذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريحية ، فهو السيد الادريسي .

جاء رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه ، فركبنا الا «موتر» السيارة وسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ربوة تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لاضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان[1] نزلنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولد عمليق سلّم ويده على رأسه وادخلنا آمنين، فاذا نحن في حوش كبير وبين اخرين من الجنود . مشى فريق منهم الى باب دخلناه فاذا بقيّم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . حلّوا محل الجنود فتقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيرا حضرة الامام وحاشيتهما فدخلنا واياهم الى رواق صغير، وقفنا فيه عند باب كبير ، فخلعنا نعالنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع اخرى من ارض الله وسقفه القبة الزرقاء . وهو محاط باربعة جدران عالية في احدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب اخر يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث ثالث هو باب المسجد الخاص. اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحداً عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند. هوذا المجلس الشريف والمقام المنيف، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص .

---

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحة ١٠٠

وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الامامة على احد المقربين منها ، قبله في وجهه ، وسلم علي مصافحاً ، ثم امر لنا بالجلوس على ديوان قربه . وكان في المجلس ساعتئذ السيد السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رأيتني لاول مرة امام سيد من السود ، امام عبد يسود مليوناً من العرب ، وفيهم الوف من السليلة النبوية . وقر التقزز لاول وهلة في نفسي ولكنه لم يكد يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت الى حديثه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كان السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد ابن ادريس ، رحمهم الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرها ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخم الشفة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . لم يكن فيه من ملامح العبيد البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه شديد السواد . وكان فيه من اثر الجنس السامي الآري — اسلفت القول ان امه هندية — ما ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات المصبوغة لضعف في عينيه ، ويجلس متربعاً على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ، وله في الوقفات اشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم تسيحون في البلاد العربية لخيرها وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقون اضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليه . ولا شكر يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً عليَّ . اني اشعر

يا مولاي بان في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقد به . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي .

فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ، ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسة الاوروبية

ثم انتقل فوراً الى اميركا . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها . قصصت عليه قصة نيويورك واصحابها الهنود الاولين وبيعهم المدينة الى الاوروبيين بشيء من الودع لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً بها وسألني قائلاً : وهل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟

فقلت كلمة في الجمهورية الاميركية ورئيسها . فقال : وهل للاميركين دين ؟ فاجبته قائلاً : شيء من الدين ، نعم . ثم سألني وكأنه كان يستدرجني الى امر اراده ، لانه كان عالماً بما في اميركا من الاديان .

– وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ – وكم عددهم اذن ؟

– لا يقل عن عشرة ملايين ،

– كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

– يزداد نفوذهم يوماً فيوماً .

– وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

– ليس ما يمنع ذلك شرعاً او في القانون الاساسي . ولكن الحكم في البلاد للاكثرية وبالاقتراع .

فاستزادني ايضاحاً في طريقة الاقتراع والانتخاب وكان يعي الكلام

ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استحساناً .

– ولكنهم يبذلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . افما كان خيراً ان يعطوه ربعها راتباً ويقيموه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .

– كان جورج واشنطون يا مولاي رئيساً اولاً وثانياً – هي القصة التي كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت اخجل ان اردها . « ما هربنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا » كلمة قالها جورج واشنطون الاول والاخير ، ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة . اما السيد محمد فقال : امرنا نحن العرب غير امر الاميركيين . اذا رفض اميرنا الامارة فعشرون حوله في الميدان يطلبونها ويتنازعونها ويحتربون من اجلها . على الامير الحاكم اذن وهذه حالنا ، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانه كالجندي ويقوم بواجبه دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً . وما كان اسرعه انتقالاً وابعده ، فسألني سؤالاً جغرافياً : وهل اميركا بعيدة عن خط الاستواء ؟

– اميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يوماً في البحر . واميركا كلها ، اي قارة العالم الجديد ، هي شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

وهل يمكن الوصول الى روسيا عن طريق اميركا ؟

– بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسيا ، نعم .

– نعلم هذا ولكن هناك طريق اقصر . بين اخر بر اميركا واخر بر روسيا مضيق ، اتذكر اسمه ؟

– مضيق بيرنغ .

– نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة فيه بين البرين ؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافية في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المبادهة المزعجة . فقلت : لا ادري . ولكني اظن . . . . وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان اخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك ، وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركا الى روسيا .

لكني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولمت ذاكرتي ووبختها لانها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق وتعيدها الى الذهن ساعة لا تفيد . وتنسيني قصة افكه حضرة الامام بها ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يدنُ بعدئذٍ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين فكيف يجوز ان اوقف البحث لاقص قصة مهما كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر القنفذة اقص عليك قصة مضيق بيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة ورغبتي الشديدة في قصها فلم يسمعها السيد محمد.

خرجت من مجلسه وفيَّ من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب ، وهي اليوم ، وانا بعد سنتين اعيد ذكرها ، لا تحرك فيَّ غير الاعجاب والحب . فيصح اذن ان انقل الى القارىء كلمة من مذكراتي في جيزان .

اول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية . ثم وقفاته في الحديث وكلمته — إهاً — في التمكين والتثبيت . واول نظرة في مواهبه واخلاقه تريك انه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهو ساذج ، كريم الاخلاق . لا اثر للروحانيات في وجهه . ولكن قياس الفراسة الذي

يصح في البيض قلما يصح في السود . ان في الولايات المتحدة عبيداً يسرقون الدجاج وعبيداً لا يحبون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح — جاء في المزمور الواحد والخمسين : طهرني بالزوفى فاطهر . اغسلني فابيض اكثر من الثلج . وهم يؤمنون بكل الانبياء وبكل شيء.. اذا خيرت احداً منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داوود يفضل القيثارة ولا غرو .... قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه ، لا تظهرها غير الاعمال . واني متيقن انه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك .

نظرة ثانية : اضف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في حديثه ، صادق في ما يقول ، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه . كبير الخلق والقلب . يميل الى السلم والائتلاف ... احسن ما في العبد قلبه اذا حسنت اخلاقه . واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو ...

تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها اولاً الملك حسين والوحدة العربية وثانياً الامام يحيي والصلح . وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر في جيزان لا يأذن ابداً بالتجوال او باقل الاعمال نهاراً . فكنا بحكم الشمس والبحر ، والميزان دائماً فوق المئة « فارنهيت » في الظل ، نستسلم الى ما تبطل فيه الحركات كلها ، الا حركة التنفس . وهذه تضعف فنقف احياناً نستغيث . ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلا ونكفر ليلاً عما نهمله عمداً او في حال الاغماء من المحامد .

خبرت الحر في اماكن كثيرة ، من المكسيك الى عدن والعراق ، فما وجدت حراً جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منها مثل حر جيزان . ان الشمس ها هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فترسل اشعتها عكساً الى كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على

ركبتك تقبلك في فمك قبلة تدوم اثنتي عشرة ساعة ولا تنقطع. واذا نظرت اليها وانت تلجأ الى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض فتبدو اشعة الشمس فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر، وكالوهج الاصفر ساعة الاصيل فترفع يديك الى عينيك لتقيها سهامها الذهبية.

اما الرطوبة، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك، فلها لون يجيئها من يدي المد والجزر، ولها جسم من كرم العناصر في تهامة، ولها رائحة هي بنت الطحلب والسبخة والملح، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت منك. فهي كورق الغراء الحلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها. بل هي كثوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس، فتلبسه كرهاً وانت تشتهي فوقه ثوباً من الامواج. لله موجة تعيد اليك الحياة. ولكنك في القلعة، في القصر، ضيف محترم. والامواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها، فلا يليق بك في ذي البلاد العربية التي يحرم فيها الاحترام فيؤلم، ما يجوز للصبيان.

الفصل العاشر

بين الامامين

ساعة الاكل . والرأس المقطوع – ساعة الاستقبال . والخيل والليل – السيد والملك حسين – « المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة ميسرة » – ابن سعود – المحالفة الرباعية – الاتراك – « حاربناهم واخرجناهم من البلاد » – الامام يحيى – « كنا واياه متعاهدين » – قصاصة من ورق – كتاب من الامام الى الادريسي – « وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه » – كتاب من الادريسي الى الامام – « وقد انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » – الفرق بين الامامين .

كنا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، اتقاء وجه الشمس . وما كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطبا ، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم الاطباق ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع . فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حياً وقد حُشي بالارز والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس ينظر عطفاً اليك . اخجلني والله وحبب اليّ التنحس في مذهب الهندوس .

والحق يقال انني ملت اللحم ، خصوصاً في مثل ذلك القيظ ، وكنت اشتهي بعد سف شيء من الارز بقعةً خضراء إرعى فيها . واشتهي قبل كل شيء الماء فاجده في النعارة فاتراً ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ، فاغمض عيني واشرب باسم الله . اما كرم الادارسة فما كان ليخلّ قطعاً بقاعدة الضيافة عندهم – قوزة كل يوم . اغدق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك الله فيكِ يا جيزان ، بركةً تشمل من اجل سادتنا بني ادريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج .

– هات المروحة يا أبكر .

يدخل السيد ابكر وبيده عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما سر فضل الدين.

– قل له الحكيم نائم . ليجئني نصف الليل .

ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الاستاذ .

– صلّ على النبي . هات القميص والعباءة يا ابكر .

وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .

– قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً – بعد نصف الليل .

كذلك تنعكس الحياة في تهامة . تُقعدنا الشمس ، تنهكنا ، فيجيئنا الليل فرعاً ويوقظنا القمر . ساعة من الفرج – . الا اننا والحق يقال لم نكن لنسر بشيء سرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الخيل . والخيل من حضرة الامام ومعها رسول يدعونا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام فنستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلم ، فالالفة ، فالتضامن ، بين ثلاثة من ملوك العرب .

– المسئلة بيننا وبين الشريف[1] – الكلام لحضرة الامام – قريبة ميسرة . نحن اولاده ، نحترمه ونجله . ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الامر ، اهاً ، ليسألنا ، ليشاورنا نعم ، هو لنا بمثابة الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ، اهاً ، حكمة في الدين وفي السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . والله لا تمر اربعة اشهر على المعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه وبين ابن سعود فتسير القوافل آمنة الى مكة والمدينة . . . ان عند الشريف الحرمين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل حب الحرمين . لا خير في حياة المسلم اذا كان لا يغار على الحرمين ويسعى دائماً في المحافظة عليها .

---

(١) اي الملك حسين .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الامام يحيى . فيتم اذ ذاك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذاك الرجل[1] بعيد .

— وليس على الله يا مولانا امر عسير .

— نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما تروم . ولكن ذاك الرجل أضرّ بنا ، أضر بنا والله ضرراً جسيماً . ونحن نفعناه . وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . اما نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه . لذلك ترى الامر قريباً بيننا . . . العرب خداعون غدارون .

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يجيء على ذكر هذا الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى . ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته .

— نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف . اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال . اي خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة نفعونا بها ؟ نحن حاربناهم قبل الحرب ، وحاربناهم اثناء الحرب ، وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا . نحن كنا نحاربهم في تهامة لنردهم عن ابن حميد الدين . اوقفناهم مراراً في زحفهم عليه . دفعناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً وراء ظهرنا هذا في اثناء الحرب . اما قبلها فكنا واياه متعاهدين . عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن . ولما جاؤوا يمرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال اوقفناهم وقلنا لهم : كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله . وصل الترك بعدئذ

(١) اي الامام يحيى بن حميد الدين .

الى صنعاء فهموا بضربنا من وراء ، من الجبال ، فلم يمنعهم ابن حميد الدين، حليفنا صنو عهدنا . كأن العهد عنده قصاصة من ورق .

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيي الى السيد والثاني جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاء .[1]

في كتاب الامام الى « الصنو السيد العلامة » بعد السلام مقدمات ادارية في تاريخ المفاوضات ووسائطها[2] ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الاجنبية « وصوت هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل الاجانب ، وعدوان يحدث من اي جانب » .

واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليد واللسان . ووالله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الاصقاع لما حركنا ساكنا ، ولما اظهرنا كامناً . ونصرح لكم بانه معما بينكم وبين الدول من الروابط والسلم بما لهم من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما يروجون من التسلط العام والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام، وبانهم لا يدفعون الاموال والذخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم . ولم يحملهم على اظهار عدواننا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية . ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون . قد انصفتم بما اوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والنحر والتشمير لدفاعهم

---

(١) بعد دخول الانكليز الحديدة وخروجهم منها واستلام الادريسي زمامها سعى بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما . وقد ذكر الامام يحيى اسماء ثلاثة من رسل السلم والوفاق .

(٢) تاريخ الكتاب ٢٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد وصول نقيب حسن بن مقبل واتفاقه (اجتماعه) بالقاضي عبدالله الفخري واطلاعهما على ما يبد شرفي والعرض علينا ..

ومنعهم وحربهم في البر والبحر[1] وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يحتجون بها ويجعلونها ذريعة لهم الى مقصدهم الخبيث من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة يزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز . المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتمونا شيئاً . فانه لا مخبأ بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس وانتم اعرف بسياسة الدول ومسالكها الى الوصول الى اغراضها بما تجرمه من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر الكافرين .

وختام الكتاب انتحاب بمجد السلام الغابر ، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الخبيثة على المسلمين فصاروا لا يملكون مستقلين قياد انفسهم . ولكنها الاهواء عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا بما امر الله به الخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجناب الشريف والمقام المنيف » الصنو العلامة الامام يحيى بن حميد الدين فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضالته المنشودة « ان نرى انفسنا على محكم الاخاء والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عمن هو مثلكم ممن ضمنا وضمه رحم العلم والنسب »[2]

---

(١) اي الانكليز . وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سيء . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بمثله ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . ومن اين للادريسي ان يحارب الانكليز براً وبحراً . فضلاً عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يخشى تقرب الانكليز من الامام كما كان يسعى الامام ليبعد بين السيد والانكليز .

(٢) « من ضمنا وضمه رحم العلم والنسب » . اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد

ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث حتى كاد لم يكن هناك رحم توصل ، ونفوس بين يدي الله مما تفعل وتُسئل ، فدعا الاخ اخاه الى حكم السيف والسنان ، بل كر عليه بما هو انكر من وخزات القلم واللسان ، لطال الشرح وتمادى الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم لدى الباري من الحجة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه المحجة . .

اما ما اشرتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما تد مضى بيننا وبين الطليان وقد أمددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين الترك فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة[1] . بل ظهر للعموم ما اجراه الله على يدنا من الخير المعلوم[2] لاتضحت لكم الحقيقة الحاضرة وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الليلة بالبارحة . وفي الجملة ما حالنا وحال اهل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

كان صنو حضرة الامام بالعلوم الاسلامية والفقه واللغة . واما النسب فقد طعن الزيود به طعناً يثبت ما قلته في التسرّي واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .

(١) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » عندما تعاهد وايطاليا اتهم بدسيسة يراد منها ادخال الاجانب الى البلاد العربية . قالوا : هذا اجنبي – والزيود يحسبون الادارسة دخلاء في اليمن – ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال الاجانب وسلاحهم واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . اما الايطاليون ، وهم في الشاطىء الافريقي من البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يطأوا ارض تهامة ، ولا اثر لنفوذهم هناك اليوم . ثم اتهم التهمة نفسها عندما دخل الانكليز الحديدة ، وما عتموا ان خرجوا منها .

(٢) « اجراه الله تعالى على يدنا » كل امراء العرب او من قام منهم بعمل خطير نافع يقول هـذا القول : سخرنا له الله ، وفيه تواضع وتفوق . فالرجل الكبير متواضع لانه لم ينسب كبير عمله الى نفسه بل الى الله الذي اجراه على يد عبده . في هذا الادعاء يقول ضمناً للناس : لو لم اكن عظيمكم وزعيمكم لما خصني الله دونكم واختارني آلة لخيركم .

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم اجد   لغزلي نساجاً . . . .

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . واما ما طلبتم البيان فيه عن اليمن وما ترمي اليه السياسة الاجنبية فمن المعلوم انها لما قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانيا مساعدة العرب اذا ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شيء من شؤونهم . ولكن من الاسف انهم على اراء متفرقة واهواء مختلفة . ومرت هذه الفرصة وكادت تمر ولم يرفعوا اليها رأساً . . . على ما نشهده الان في الاختلاف وعدم الانتباه ، لما يرفع شأنهم ديناً وسياسة . ابثوا على انفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم اعين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر الامم . فلا حول ولا . . . ومثلكم على وفور من العلم والسياسة، وبجل من المعالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه الامة، وما هو الاقوم عند الله طريقةً في زوال هذه الغمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل . في ١٥ شعبان سنة ١٣٣٩

في هذين الكتابين يتضح امران ، الاول : ان دعوة الامام يحيي دينية ظاهراً وسياسية ضمناً ، ودعوة السيد الادريسي دينية اساساً وسياسية قومية عملاً . الثاني : في كتاب امام صنعا . غموض مقصود وعموميات قلما تفيد ، وفي كتاب امام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه ابهام .

الفصل الحادي عشر

المعاهدة

الصلة بين الضعيف والقوي – النفع السوي المتبادل – سياسة الانكليز بعد الحرب – السلاح والمال – السياسة الجديدة : لا مظاهرات ، ولا دسائس ، ولا تجسس ؛ ولا ارهاب – الامتيازات الاقتصادية – البحث في المعاهدة – ثلاثة خلاف تختص بالانكليز – حجة السيد وحجتي – رغبتي في خدمة الملك حسين – نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلًا ان يوالي الغني ويستنصر في اموره القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه وبيئته هو غالبًا اقوى منها في غير مكانه وبيئتها . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلًا متساويًا ، وهو لا يكون كذلك الا اذا كان في الفريقين شيء من الوجدان ، فالولاء بينهما امر طبيعي . اما اذا اختل التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة اجنبية كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء والاغتصاب والظلم والاستبداد . وبكلمة اخرى ان القوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يضمه اليه فيلتهمه او يستعبده . والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يخادع القوي وينافق فيكسب بعض القوة التي يسيء استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعًا يذكر ولا ينفع احدًا من الناس . هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما يماثلها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهريين ، اولهما انه قوي في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء هم اعداؤه . بديهي اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قويًا يوم الولاء والاه واستنصره على الاعداء . وكذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك – ايطاليا ثم انكلترا –

والمرء في ايام الحرب ابعد عن المخاتلة والخداع منه في ايام السلم ، فنفع الادريسي وانتفع به . ها هنا قوة وضعف فيها حكمة ووجدان ، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل .

اما بعد الحرب فانقلبت الحال ، وساءت الاعمال . امست حليفة السيد ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ تمده الى مقامات السيادة ، لغرض مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبذل شيئاً مما كانت تبذله اثناء الحرب . زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ، وليس لها الان غير اعداء سياسيين . فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الامير علناً وتفاوض عدوه سراً حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها .

وبودي ان يعود الفريقان ، الانكليز واصدقاؤهم العرب ، الى شيء طبيعي عادل في العلائق السياسية والولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية . الا ان ذلك لا يكون الا بالسياسة القومية الصريحة من قبل الانكليز ، وبالصدق والنزاهة والاقبال على الحسن من التمدن الاوروبي من قبل العرب . كانت انكلترا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر بواسطتها على الرجال ، فانتفعت منفعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال من العرب غير المقت والاحتقار . ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة . فقد افسدت باموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا تزال تسعى في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة . وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال . فالسيد الادريسي نفسه لم يذعن لممثليها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها ويسلح العشائر بسلاحها . وكثيراً ما كان يردهم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي . انا رقصت الانكليز » . سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل انكلترا السياسي صديقي محمد فضل الدين . ومهما كان من زعمه فلا احد

ينكر ان السيد كان عربياً حراً صمياً يأبى التسيطر الاجنبي كما يأباه غيره من ملوك العرب الكبار، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاة اجنبي ينتفع به. اما الانتفاع اثناء الحرب فعرفناه. فماذا عسى ان يكون في ايام السلم؟

حبذا دوام العلائق الولائية بين امراء العرب وبين انكلترا. ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة. لا ولاء متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس، والدسائس والارهاب. ان الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها. واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن ال«لا» وال«نعم» معاً، وعن الختل والخداع.

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قوية الى الولاء الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم. اننا نتاجر معكم، ونمنحكم الامتيازات، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية، ونؤمن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها، فتمدونا في مقابلة ذلك بالمساعدات الادبية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمندوب تستبدلون القناصل بهم، فتستقيم العلائق بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد[1].

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام، وقد كان السيد الادريسي من رأيي. فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال: ولا بأس

(١) في معاهدة جده التي عقدت في ٢٠ ايار سنة ١٩٢٧ بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وجلالة ملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية والانكليزية وتتساوى فيها الحقوق والواجبات.

من ذكر انكلترا في المعاهدة ، بل يجب ذكرها . فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل انكلترا على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين . ولم اكتم السبب وجله سياسي في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً الجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو تآلف ملوك العرب وتحالفهم في سبيلها . فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذٍ على الانكليز ، وكان الامام يحيى حرباً عليهم ، وانا ابغي عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي ، فكيف السبيل الى ذلك واحد الثلاثة يقيد نفسه بانكلترا ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية . فقلت مصراً :

خير لكم يا مولاي ولانكلترا ان لا تذكرها في المعاهدة . واني لا ارى ما يوجب ذكرها هنا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر .

كنت افكر دائماً بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمة حقيقية تقرب امراء العرب منه وتربطهم بالمعاهدات واياه ، خدمة تفيده اكثر من ارساله الوفود الى انكلترا وجنيف ، وكانت هذه الرغبة تشير بما افعل واقول . ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوناً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها . فخفت ان يفسده ذكر انكلترا ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها ويذكر الامام كذلك مساعي الملك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي . لذلك دافعت عن نظريتي بكل ما عندي من حجة ويقين . ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الانكليز . فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال : قد نلت من الامام ما لم ينله احد قبلك .

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر بريطانيا العظمى ولا كلمة تشير اليها .

وكان الانكليز مع ذلك راضين بها . مما دل على ان انكلترا لا تعارض في عقد معاهدات ولائية اقتصادية — دفاعية كذلك — بين امراء العرب اذا وُفق الامراء الى من يسعى في هذا السبيل سعياً فيه نزاهة ووطنية حقة ، ثم شيء من الاعتدال والانصاف .

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيى .

التمهيد واحد في المعاهدتين .

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها . وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية[1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير تدخل اجنبي يخل باستقلال البلاد العربية[2] على ما سيعرف من المواد الاتية .

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك لسيادة الامام الادريسي بالامامة ويعترف سيادة الامام لجلالة الملك بالملك[3]

---

(١) قبل السيد محمد بالنص الذي قدمته وهو هذا : وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام صفحة ١٩٣ من هذا الجزء .

(٢) راجع الشرح في معاهدة الامام صفحة ٢١١ من هذا الجزء .

(٣) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هذه المادة لان المادة الثالثة تفي بالغرض المطلوب . فقبل السيد اعتراضه . ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة الرسمية هذه الكلمة : بعد اهدائكم التحية الزاهرة . صدرت نسختان احداهما بدون مادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لاننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً . وفي الاخرى تلك المادة . فلكم الخيار في اية النسختين اردتم .

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . ويختص سيادة الامام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية . وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في ما يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يغير شيئاً جارياً من طرف صاحب ادارتها ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة[1] الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الاخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخصية عاقدها وبلاده ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تم الاتفاق على ذلك . ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهة التي اليه ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين[2] ولو كانت جرت المذاكرات بالوفاق مثل ما جرت الان قبل سنة تقريباً لتمكن الجميع من اختبار الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه . حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينهما . اما الان بالنسبة للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين بعدم الاعتراض في مسئلة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية[3] او ارضائه

---

(١) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقنعتهما باضافة الجملة الشرطية بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى اخر الجملة اي « فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والغرض منها تقييدهم في ما يمهد السبيل الى الوحدة العربية .

(٢) ما يلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى اخر المادة ، اضافها السيد محمد . فارتأيت ان تضمن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها جملة شرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأيي وامر ان تكون جزءا من هذه المادة . وفي ذلك دليل اخر على سلامة نية السيد وتساهله رحمه الله .

(٣) يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينة ابها التي كانت قاعدة

بجز. لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار . وهـذا يقتضي ان نقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبدالعزيز ابن سعود(١) لاجل تمييز حدود معتدلة بين الاطراف الثلاثة .

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين . وهذا حق المسلم على المسلم . والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما امكن من الاصلاح سواء كان مما يرجع الى الخارج او المعارض في الداخل . فاذا لم يكن الا مجرد الاعتداء والبغي فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه . ويلزم الامداد بقدر ما امكن من مال او رجال او سلاح او معدات حربية وعلى طالب المدد ان يقوم بلوازم المطلوبين(٢)

المادة الخامسة : اذا وقع تشاجر بين رعايا الفريقين يرد الى حكم الشرع فينصب قاضيان من الجهتين او قاض من احداهما حسب التراضي لفصل المـادة .

المادة السادسة : الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من اي تدخل اجنبي . فاذا حدثت مسئلة مهمة كالعقود والمعاهدات يلزم كل من الطرفين اخذ رأي الطرف الاخر حتى يؤمن الالتباس في الموضوع ويكون العمل بقوله تعالى : وامرهم شورى بينهم . وقوله عز وجل : شاورهم في الامر .

المادة السابعة : تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل امور الصادر

لواء عسير في الماضي .

(١) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء .

(٢) في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم اي المادة السادسة من معاهدة الامام والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض . راجع المادة السادسة وشرحها صفحة ٣١٣ .

والوارد والمحافظة على اطمئنانها .

المادة الثامنة : التي تختص بصندوق توفير من مال الزكاة هي مثل المادة العاشرة في معاهدة الامام[١] والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبل الفريقين هي مثل المادة الثامنة[٢] والمادة العاشرة اي الاخيرة هي مثل المادة الاخيرة كذلك في معاهدة الامام .[٣]

(١) راجع تلك المادة والشرح عليها في صفحة ٢١٤
(٢) « « « « « « ٢١٤
(٣) « « « « « « ٢١٤ من هذا الجزء .

الفصل الثاني عشر

جوار وسادات

نائب ابليس في عاصمة ابن ادريس – اخبار العاصمة – الجارية المجرمة والسيد العادل والقاضي الذي نبتت في قلبه ريحانة الرحمة – ابو فراشم – الدنقليات الحسان – وفد ابن سعود – المناقشة بين الوهابيين وعلماء شنقيط – « لا تشعلوها يا ابناء نجد » – السيد الحضرمي – فصل الشحاذة عند السادة – الاتراك يعتقون الجواري والعبيد – السيارة تدور – شجر الشورى – مظهر من مظاهر الدسيسة – سيد من الاماجد – ميدي – سوق الرقيق – « يلزمنا جارية للاستاذ » – سنبوك الجواري المنتظر – سيد من أفيد الاماجد – ضللنا الطريق في الليل – اللحية – السراب – الصليف – معادن الملح – القطن – آخر غرقاتنا في الرمل – السائق اصيب بدوار – السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة – النجدة من القرية – بنت الجن .

وقف الحاجب في الباب يقول: الحاج محمد. فنهض فضل الدين واستوى جالساً على الديوان. ومن هو الحاج محمد؟ هو في عاصمة ابن ادريس نائب ابليس. درويش وجريدة اخبار وحجام، وطبيب يطبب العيون، ويتاجر بالدر المكنون، ويمارس كل الفنون. هو من مراكش، جاء مثل كثيرين من اخوانه الى بلاد السند حاجاً، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في ظله المغذي للروح والجسد معاً. والحاج محمد جبار، يكتسر بيده الحجارة. صافحته مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتفي بالسلام من بعد عشرة اقدام. اعجب بتلك اليد، يد ولا مخالب البهموت، كل اصبع منها نبوت، وهي مع ذلك يد ساحر، يمدها الى ادق اعضاء الجسم البشري الى العين فيشفيها — بشهادة الدكتور فضل الدين — من الآلام. يقبض السكين، وبغيرها وغير الله لا يستعين. وما فشل مرة في عملية من العمليات، ولا عصته العيون والحدقات.

لكن ذلك لا يؤهله لاكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل

غيره في النهار. دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه، فجلس على الارض، طوى نفسه على السجادة امامنا، وبدأ باسم الله.

— سافر «الموتر» الى صبيا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه والحمد لله. وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله. وقد وفق بين السيد .... وجارية من جواريه جاءت تشكوه الى مولانا. ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يوماً كاملاً. فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت، متصمة بالشرع والحق في جانبها لانها، وقد ولدت له ولداً، اصبحة زوجة شرعية. ولكن السيد يقول: هي جارية نحس، جارية جانية. لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تجيئني بالاموات. جانية تستحق فوق البيع الذبح. ولكني ارحمها وابيعها فقط. فقال القاضي، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة: بمثلك وانت من اهل البيت يليق العدل ويليق الحنان. فقد قال صلى الله عليه وسلم. قال: نسيت يا دكتور الحديث. ولكن القاضي اقنع السيد فدخلت التقوى والحنان الى قلبه. فقاطعه فضل الدين قائلاً: نار الجحيم في قلبه. فقال الحاج: ولكنه رحمها يا دكتور. قال لها: سأشرفك ببذرتي مرة اخرى فاذا جئتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدين. والا اتبعتك بابنتك. قبلي يد القاضي، وركبته، ورجله. واشكري الله على مجيئه. وجيزان تشكر الله على عودته سالماً في «الموتر».

رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه ثم طوى نفسه ثلاث طيات — الليته على كعبيه وصدره على ركبتيه — ومد عنقه نحو فضل الدين وهمس قائلاً: سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى. ابو فراخ يبغي شراء فرخة سوداء. وراح امس يستأذن صهره. وراحت المسكينة الى الامام تبكي وتستغيث. فقال الامام الى عمه الشائب: لا اصح لك بها الا اذا كتبت كتابك عليها. اخذتُ ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احل لك

ما لا احله لنفسي . فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل الليلة هذه الليلة على الفرخة الدنقلية . . لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجمل ما جاء من وراء البحر . درة سوداء .

ورفع الحاج رأسه وصعد الزفرات ثم قال : والسيد . . . عافاه الله وحجب عليه . جاءته احدى جواريه بولد . . . ابعد الله الدنقليات عن بيت سادتنا . فرخة سوداء ، رأس البلاء ، في كنف ادريس . الادارسة يا دكتور يذبحون انفسهم ولا يذبحون سود الفراخ .

ضحك الدكتور وامر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من جبينه ووجهه واستأنف الحديث .

— سيرجع غداً وفد ابن سعود . اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً وكسوة . وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناقشوا وعلماء شنقيط في التوحيد والاولياء . خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين . تذكر الرجل الذي ذبح ابنه في ابها لانه افترى على زوجة ابيه وفر هارباً الى صبيا ، فقبض عليه فيها وسجن بامر من الامام . جاء كتاب من عامل ابها يقول فيه : ارسلوا الجاني الينا . انتم لا تحسنون القصاص . شرائعكم لا تنفع . عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات . احيلوه علينا عندنا السيف . وامس قال احد هؤلاء الوهابيين : لا يطهر الاسلام من الشرك الا السيف . وهو حجتهم الوحيدة . من يصلي الى العظام في القبور ويستغيث بالاشجار والحجارة يشرك بالله ، يكفر بالله ، والكافر يقتل . فرد عليه احد علمائنا بقوله : وانتم تستغيثون بالنبي ، انتم كذلك مشركون . فقال الوهابي : نذكر النبي اجلالاً ولا نستغيث به ابداً . فقال عالمنا الذكر والاجلال يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمناً النداء ، وفي النداء الاستغاثة . فقال الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد من الكفر الصريح . دامت المناقشة

ساعتين فدخل اذ ذاك مولانا فقال : لا تشعلوها يا ابناء نجد . وجادلهم بالتي هي احسن . ثم قال والانكليز مشركون وليس علينا ان نهديكم الى الدين الحنيف . . . من آمن بالله وباليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم « الاية » ونحن اصدقاء الانكليز . نخلص لهم ما داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيئة وقد عمد الى طرف قميصه فأمرّها اولاً وثانياً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوار يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه الي وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسيت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يثبت ما قاله فضل الدين . — قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يمدحه فيها فأمر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في الـ « موتر » الى الحديدة .

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لاشاهد ما شاهد في ذاك الحين فرأيت في الرواق الخادم ابكر — السيد ابكر — وحوله بعض ابناء قريته جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه — هذا سيد ولكنه خادم مخلص . لا بأس اذا قبل يده ابناء بلده . ولكن في السادة الشحاذ واللص والزاني والقاتل والمتاجر بالرقيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوعة[1] مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً السلة فيملأها مما يحتاج اليه خضر وحبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرشاً واحداً . ولا احد يقول : لا . ولا احد يجرأ ان يمنع رزقه عنهم . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون رمضان والشهر السابق واللاحق ، هذا فصل الشحاذة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتك الاقربين ، فمن

---

(١) مراوعة هي على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدة .

ينذرها اليوم ؟ عادات وخزعبلات وقباحات يبرأ منها الاسلام اذا تزوج السيد ابنة من غير آل البيت وولدت له ابناً فمن الواجب عليها ان تقبل يده وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحتقرها ، ينظر اليها نظر السيد الى العبد . مثل آخر : سيد عنده جارية وخادم متزوج بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها ولو صارت اماً وزوجة شرعية وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية الى خادمه ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير الجحيم . . . من فضل الاتراك انهم كانوا يعتقون الجواري والعبيد ويعطونهم شهادات العتق . وكان السادة يوم كان الترك في البلاد يحترمون هذه الشهادات . اما الان فلا قيمة لها . . . ولا تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات اليمن . هذا واحد منهم عرفناه رفيقاً وسيرافقنا مرة اخرى اعوذ برب الفلق .

ولكننا علمنا بعدئذٍ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقنا من هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية ركبنا السيارة صباحاً يصحبنا جندي من جنود الامام ، وهو سيد من سادات اليمن الاعلى يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والفم واليدين ، حليق الشارب ، ابيض اللحية ، بهي الطلعة ، لطيف المحيا . جلس بعد ان سلم الى جنب السائق ، وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلاً من جيزان . وكان السهل الذي رحنا « نغوتر » فيه كبلاد حرب كله درب . مررنا بمعدن ملح هو للحكومة قرب قرية تدعى مضايه . ولم يكن في الارض حولنا ما يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد اميالاً الى جانب الشاطئ . كانها جدار اخضر قائم بين البحر والسهل اما قشر هذا الشجر فابيض مثل عوده والمتكسر منها شبيه بالعظام يجمعه العرب حطباً . واما الورق الشبيه بورق الغار فيرعاه الغزلان . كنا نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتتسرب الى مسافة خمسة اميال في بعض الاماكن ، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة ، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرّها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سألته سؤالًا فأدار بوجهه واجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة انه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان جبال حاشد هي كالحلقة حولهم . نعم ، هو زيدي ولكنه منذ عشر سنين « في خدمة هذا الامام » اي الادريسي . بعد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . أعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيه ظاهرة — حسن طلعته ، وحسن منطقه ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي . بل هو سيد من الاماجد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول الانكليز . وفيه برهان جلي على أن في التعميم ضلالًا . اجل ، ان في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال : الشريف طبعاً ، والشريف وراثة ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل ان يشتد حر الشمس ، فاقمنا فيها يوماً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . اما الاسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرمية ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين يزدحمون في اسواق تباريهم فيها الروائح والاقذار .

ولكن للاشغال ، للصناعة والتجارة ، اثراً باهراً فيها لا تجد مثله حتى في الحديدة . ذلك لان ميدي اليوم هي كجيزان في اثناء الحرب العظمى ، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطئ البحر الاحمر العربي المفتوحة للبواخر والتجارة فتسير منها الى العقبة ، عقبة اليمن ، فجبال عسير ، وفي النهول شمالًا

الى جده . اما تجارة ميدي فا كثرها بالسلاح وبالرقيق وبالتهريب . اذا احتاج امام صنعا. مثلاً الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمرك يستجلبها الى ميدي ، ومنها براً الى جده . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسناء يجيء الى ميدي فلا تضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال ، والبنيَّات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح .

ان الدكتور فضل الدين في صفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين بالرقيق وعدوهم الاشد . اخبره الحاج محمد المغربي بان سنبوكاً من الجواري يصل قريباً الى ميدى فباشر عند وصوله البحث والاستقراء . جاء احد « اصدقائه » من تجار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ? فقال : واقفة يا حكيم .

— يلزمنا جارية للاستاذ .

— غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا والله ولا واحدة .

— ولا عند اصحابك ?

— لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنبوك واحد منذ شهرين .

— غرض الاستاذ عزيز لدينا . فتش ولو على دنقلية . والثمن يرضيك .

— سنبذل الجهد . غرضكم يا حكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .

راح ولم يرجع . وجاء اخر فكانت اجوبته تومىء الى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل . فانكر بتاتاً .

– لا جواري في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم . لا والنبي ولا احد يشتري .

– وها من يشتري ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

– توكل على الله غرض الحكيم نشتريه بعيوننا .

وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ، اجش الصوت ، جاحظ العين ، فسلم سلام الاحباب وتربع على الديوان .

– سترى قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم وخدمة مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي . نظفنا البلد . والتجار كلهم يلعنوننا . لا يهم والله اذا كنتم راضين . اول سنبوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولانا ونعلمكم بذلك .

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهامة . له قصر كبير بين ميدي واللحيَّة يستخدمه لتهريب الجواري والسلاح . والرجل عالم بقصد الحكيم ويظن انه يخادعه . على انه ينجح احياناً في ما يحتال به . فاذا حجز سنبوكاً مرة في السنة وسلم من فيه الى الحكومة يشتريهن بعدئذ بواسطة احد رجاله ويأخذهن الى القصر .

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل . صاحبه سافر البارح الى جيبوتي[1] عيننا عليه ، كن مطمئن البال .

وقد يكون « صاحبه » احد رجاله . عرفنا بعدئذ انه كان صادقاً في بعض ما قال . ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي . ان في هذا الخبر بداءة حادثة يجيء ذكرها في الفصل الثاني .

نزلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى الساحة لنركب السيارة فلقينا

(١) مدينة على ساحل بلاد الحبشة جنوباً وهي مستعمرة افرنسية .

هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي وهو ينتظرنا .

وضع الخادم أبكر امتعة سيده في السيارة عند ارجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه . ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق . فابى وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم .

فضل الدين : يد الاستاذ تألمه وهو يحتاج الى شيء يسندها اليه . تفضل اجلس قدامنا .

السيد مثلي لا يجلس جنب السائق .

فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحوقل ، ثم : اجلس او نمشي . فهز السيد رأسه ، فامر فضل الدين السائق بالسير ، فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة . فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم .

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن انعم الله عليهم . او ان السيد هو سيدُ برج النحوس فجذبنا كلنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه . بل اعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجماً نهتدي به . ضللنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب مثل بلاد حرب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد . بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من ميدي ، فمن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم . ثم ضللنا ثانياً وثالثاً قبل ان نصل الى حبل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق ، وعندنا اتفاقاً او وحياً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويخفي في نور القمر الضئيل .

وصلنا الى اللحيّة عند شروق الشمس ، فالفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الايطالية والانكليزية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى . الا انها لا تزال على شيء من العمران

في ابنيتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والاقذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال . هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض ارجائها ولا سيما في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ، منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضراً ليلة الوليمة والرقص التي احياها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها . ومما قال : وكنا ساعة الفجر لا تزال نرقص حول النار . هذا اجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن .

واما سكان اللحية ، وفيهم الصومالي والسوداني والمولد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب . وفيها ثكنة مهجورة وقلعة متهدمة ، والخربة كما قلت كثيرة . فقد كانت في اخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط انكليزي كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حلق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدهم . فتجيئهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية . وما عتم ان تغلب الاسطول الانكليزي فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها . وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبر الهدنة فأرخه الانكليز هكذا : ١١ ـ ١١ ـ ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة ١٩١٨ كان السيد مصطفى يومئذٍ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طبيباً في الجيش الادريسي . فنزل بعض الضباط الانكليز الى البر يعيدون معهما للخبر السعيد . احتفلوا بالنصر وبانتهاء الحرب في بلاد لا تنتهي واأسفاه فيها الحروب .

استأنفنا السير صباح ذاك اليوم فمررنا ونحن قريبون من الشاطي. بالثمنية

وهي قرية صيادين ، وكذلك بالخوبَة التي لم يكن فيها ساعتئذ غير الاولاد . فخرجوا جميعاً يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة . وظل بعضهم وهم يثبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق ، فتقهقروا الا واحداً ادهشنا في ثباته وعدوه . ثم سمعناه يقول للسائق : دَلَهْ دَلَهْ ، اي على مهل . كأنه اراد ان يرافقنا بل يسابقنا الى الحديدة .

سمعتْ السموات والارض طلبة الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تاماً . غرقت دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كلنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء الولد يساعدنا فدفعناها الى الامام . اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا الى مجالسنا وفضل الدين يقول : والحمد لله يا سيد . فاجاب بلا خجل ولا اعتذار : والحمد لله .

دع السيد يا دكتور واستقبل السراب . هوذا السراب ، وقد تراءى لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب اليها مياه البحر ، او لساناً من البحر امتد اليه . وكانت اكواخ القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار — ظلال في المياه ، ولا مياه ولا ظلال . اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر . لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه السماء . ولما دنونا منها بدت اكواخاً لا ريب فيها ، وكانت المياه اي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً عن الابصار .

بعد ان اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ، والسيد في مكانه لا يتزحزح . فرجوناه ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف علينا المصيبة ، ففعل متردداً . وما كادت رجله الشريفة تطأ الارض حتى تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراءها وهو

يظن انها ستستمر جارية .

وصلنا الى الصَّليف المشهورة بملحها . وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة انكليزية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضها . انها لقرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر ، والهلال ذيل ضلع ، اي جبل يمتد شرقاً الى الزيديَّة في سفح جبال اليمن . خطر لي ونحن نجتاز هذا الجبل الضيق الطويل ، هذا الضلع في الارض ، خاطر قد يهم الانكليز والامامين اذا كانوا حقاً يبغون الصلح . ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة بين اليمن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان . فتكون الزيديَّة وما دونها جنوباً الزيود ، وتكون الصليف وما دونها شمالاً للادارسة . والجبل فاصل بين الاثنين

تغيرت التربة دون ذاك الجبل جنوباً فقلّت فيها السبخة وكثرت الرمال . وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء القراح . فهناك السَّلم والأثل والعشر والنخيل . وهناك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه . تبارك الماء العذب ولكن الرمال . . . . كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسمياً ونرجوه .

انتصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابناء البلاد ، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوّها الرمل نحس بالنار تحترق نعالنا فتحرق ارجلنا . وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوك يغيظ حتى الاولياء .

فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق : يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والا تبقى هنا . فنزل هذه المرة السيد ولبس نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها باللمس والصلاة . فازدادت السيارة تمرداً ، وفضل الدين غيظاً ، فقال : سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .

كنا ساعتئذٍ في اشد حالنا أصيب السائق بدوار فوقع مغمى عليه ، وكدت انا اقع كذلك من شدة القيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج السيارة ويستعيذ بالله من برج النحوس . فارسلنا السيد الصالح ابكر الى تربه اقرب قرية منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقوياء من العرب والسود يرأسهم قزم جبار سلم علينا فاضحكنا ، وحرك السيارة فادهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجاً .

— السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيرها او تسييرها . اذا تبتم الى الله نكسرها وننزلكم عندنا وتركبون غداً الهجين مثل المؤمنين .

خلصونا مما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخشيش فتقاسمه ورجاله وودعنا قائلاً : احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في بنت الجن هائمين .

ما كدنا ننتهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة . وكان السائق لا يزال متأثراً مما اصابه فغاصت السيارة للمرة العاشرة وعلقت الدواليب و — قم يا سيد

فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا انزل حتى نصل الى الحديدة . فقلت وكانت شعلة الغيظ قد اضطرمت فيَّ ايضاً : ستنزل هنا وتبقى هنا : ان من يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ، يا ضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكتاً حتى وصلنا الى الحديدة فودعنا هناك واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق والتجار الحضارمة يمشون وراءه بعيدين عنه ، وهو يمشي ويهز كتفيه كأنه حاكم البلد .

ثم علمت انه من كبار سادات صَيوون ومقامه هناك شبيه بمقام اسقف عندنا . فمثلت لنفسي اسقفاً رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق ، ونستعينه على جرها من الرمل ، ونقول له فوق ذلك : انت مثل السراب . بل السراب احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخرى لاكفر عن ذنب كان فيه ، سامحه وسامحنا الله شريكاً كريماً .[1]

(١) جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احد الحضارمة هناك يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخر السادة العلماء ، ويطعن علي طعناً عجيباً ، كشف الغيظ فيه كلّ آثار العلم والادب في صيوون . ولكن الكاتب لم يتصد لنفي شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المحترم .

الفصل الثالث عشر

تجارة الرقيق

المراقبة في البحر الاحمر – الحكومة الانكليزية في عدن – الحكومة الافرنسية في جيبوتي – سلطان تاجورا – بلاد الحبشة – مصدر التجارة – رئيسها الاكبر – حديث مع الوكيل في عدن – الشريعة تقيد الوجدان – في الحجاز يحللون النخاسة – الحكومة الحجازية تقاومها ظاهراً – حادثة الحديدة – الوكيل يحاول توقيف السنبوك وتخليص الارقاء – الحكومة تأذن بنزولهم الى المدينة – عتاب الى عامل الحديدة – الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي – آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتاق – التبعة على السادة والاشراف .

ايما رجل كانت له جارية فأدبها
واعتقها وتزوجها فله اجران .

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني . كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعاً في هذا الزمان فخاب في البلاد العربية ظني . كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة للامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة واأسفاه او متناومة ، او عاجزة . بل وجدت الحكومة احياناً حليفة الاشقياء .

اما الحكومة الانكليزية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرُها الحربية احياناً من السنابيك حاملة الرقيق . ولكنها لا تكمل عملها . فهي بعد ان تحجز السنبوك تطلق سراح الصيد والمستعبدين معاً . او بالحري تعيد اذا شاؤوا الى بلادهم وتبعث النّاخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم هناك الحكومة الافرنسية .

والحكومة الافرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في بلاد الحبشة اي سلطان تاجورا[1] . اما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم اتشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحمونه. هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احرازه حرفتان غير « السلطان » واحدة شريفة وهي السكافة — ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله — والاخرى .... تباركت ثمرة بطنك ايتها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تنفد الجواري ولا تكسد سوقهن .

ان لسموه في بلاد الحبشة رجالاً يجيئونه دائماً بمن يبتاعون او يخطفون او يستغوون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم الى تجار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي يجيء تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويفتح له الكيس ، فيملأه التاجر ذهباً وفضة ويعود بسنبوك الى بلاد العرب ملؤه الجواري والعبيد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الافرنسية تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه في هذه التجارة المستنكرة . ومما لا ريب فيه انها تحسن معاملته وتكرمه وتجامله . دعاه مرة الحاكم الافرنسي ليتزل بضعة ايام ضيفاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر فخم فرشه ورياشه من باريس . فحدثت السلطان نفسه ان هؤلاء الافرنسيين تجار مثله ويربحون من بلاده ارباحاً كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم ؟ اغتنم السلطان هذه الفرصة الثمينة فدعا تجار المدينة الى القصر ، وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في كيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

---

(١) تاجورا مقاطعة حبشية مستقلة شرقي جيبوتي شبيهة بالنواحي التسع المحمية حول عدن . !

ان تاجورا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية الافرنسية ، سلطان تلك التجارة. أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيل المعتمد في عدن بالامر فقال ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاقبة النخاسين لانهم غالباً من بلاد لا سيادة لهم اي للانكليز فيها . فقلت : ومن جهة ادبية ، ومن جهة دينية ، ومن جهة محض انسانية ؟ اذا جردنا المدنية الغربية من الادب والتهذيب والحب الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها للسيادة يوماً للشرق . واذا المعتمد مثّل بنخاس من تهامة او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن أيظن ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ملوك العرب كلهم اتظن ايها القارىء ان العالم المتمدن ينصرهم في هذا الامر على الانكليز مهما كان حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه يأمرهم باعتاق الرقيق ؟ اني انصر كل من يسعى في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها او يتغاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة ومنهم من يأسف انها غير مستمرة ويلعن المراقبة الانكليزية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها وينهى عنها وان حكومته تسعى في مقاومتها واستئصالها . فشرعت ابحث لأتثبت الامرين . لا ريب ان جلالة الملك حسين يستنكر العبودية وهو اعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والاعتاق. ولكن حكومته والسفاه هي يوماً نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في ما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جده .

حدث انها حجزت ذات يوم سنبوكاً من سنابيك الاثم والعار بما فيه من جوار وعبيد فآوتهم واحسنت معاملتهم ثم — ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جده وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت

الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذنت ببيعهم على حساب اصحابهم ، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالاً على كل رقيق . . يجيء النخاسون بالعبيد اما بحراً في السنابيك واما براً من ميدي . وقد اطلعت القارىء على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة واسمعته كلام بعض النخاسين وهم يخادعون الانكليز والحكومة الادريسية . على ان احد السادة قال لي واثبت قوله بعض المتوظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد . بالمرصاد؟ بعد وصولي الى الحديدة حدث حادث يدل على احد امرين ، اما ان الحكومة تقف بالمرصاد وتنام ، او انها لا ترصد الا عندما يكون الجو صافياً ، فلا ترى اذ ذاك ما يشغل البال .

اعود الى يوميتي فانقل منها ما يلي :

الحديدة في ٢ يوليو ١٩٢٢ — ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور المينا يقول : سنبوك جوار رسا في المينا والناخوذاه ورجاله دخلوا البلد . وقد اعلمنا ايضاً انهم سائرون الى ميدي وانهم لم يرسوا في الحديدة الا ليبتاعوا بعض الزاد .

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالاً .

بعد عشر دقائق حضر المدير .

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجواري الذي في المينا ؟

المدير : نعم .

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة .

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه . فاحضرهم بعد نصف ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأة ، حاد النظر ، دخل

المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصافحه مصافحة الاقران وجلس على الديوان . من الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدة خصوصاً ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره .

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ، وان صاحب « المال » — البضاعة — سبقهم الى ميدي . وما هم الا مأجورون مأمورون . اما اذن الحكومة فها هو المحافظ بنفسه .

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طبيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوذاه ان يحضر الارقاء ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجيء بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدة اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بواسطة سنبوك الى جزيرة قمران ، اي ست ساعات في الريح الموالي ، ومنها باللاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنبوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوذاه بوعده على انه جاء في المساء يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوء والريح من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد — « والله بالله » واشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدة الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدة اليوم سنبوكاً يحمل عدداً من الجواري والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجار الرقيق بهم من الشاطىء الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة

الادريسية اباحت لهم ذلك، الامر الذي استغربته جداً ، فجئت الفت اليه نظر سيادتكم وأعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مذمومة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، وفضلاً عن ان الدول المتمدنة وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعاً باتاً، فهي تشين الاسم الادريسي وتضر بالحكومة الادريسية ادبياً وسياسياً ضرراً جسياً .

واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهتمام افصح عن عقيدتي وعواطفي كمسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امثلها .

اما السنبوك المذكور فاملي ان تتخذ الحكومة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاقبة ناخوذاه وبحريته وتجار الرقيق فيه، ثم تعتق اولئك البنات والصبيان من الاسر . فان في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً وعدلها عدلاً ، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ احكامها المبنية على الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معتمد بريطانيا السياسي

جاء الجواب ، فلم يكن مرضياً ، على ما فيه من عذر ووعد وتأكيد، اما الجواب الحقيقي فاليكه من يوميتي :

في ٣ يوليو — ٤ ذي القعدة

جاء مأمور المينا هذا الصباح وفي وجهه خبر مفجع . ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم انزلوا الجواري والعبيد ليلاً خارج المدينة وجاء . . . « احد موظفي الحكومة في الحديدة » فاختار من الجواري واحدة واشتراها . ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة براً الى ميدي .

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم يا سيدي السياط .

امش – امشوا . وهم يمشون حفاة عراة من الحديدة الى ميدي ، مئتي ميل في شمس تهامة وقيظها . وانك اذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في نصف النهار تحترق النار نعلك وتحرق رجليك .

رحماكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انتم حياة التجارة بالرقيق، انتم اهل النخاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون، انتم الراغبون في الاستعباد . فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقرأوا عفا الله عنكم ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتاق الجزئي المتدرج ، ثم في سورة البلد وسورة التوبة وفيهما الامر بالاعتاق التام .

وهل من يأمر بالاعتاق التام يروم دوام العبودية في العالم ؟

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها
واعتقها وتزوجها فله اجران – حديث شريف .
ولا يقل احدكم عبدي امتي وليقل فتاي
وفتاي – حديث شريف .

فهل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدَّعوا البر والاحسان ، وتفاخروا بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ، ولا ما يحلله او يجيزه لا ادباً ولا شرعاً ولا ديناً . واذا اتخذتم الاية – وما ملكت أيديكم – حجة وسلاحاً فانكم تحتجون وتتسلحون بالحرف على المعنى ، وبالعرض على الجوهر ، وبالحال ، وقد زال ، على الحقيقة . تتسلحون بظاهر الامور وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على

جهل فيكم ، او على علم افسده حب الذات .

اجل ان اكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان، فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد محق العبودية تماماً بالطرق الممكنة في زمانه. فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم . بل امر باعتاقهم وجعل الأجر في الاعتاق اجرين بل اضعاف الاجرين .

ايما رجل اعتق امرءا استنقذه الله بكل عضو منه
عضواً منه من النار — حديث شريف .

افلا ذكرتم يا اسيادي ، وانتم تفاخرون بانكم من السليلة النبوية المباركة ، ما جاء في الكتاب ؟ افلا أنصتم الى الحديث الشريف ؟ افلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي ؟ اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله .

دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني . فقالت عائشة : نعم . فقالت الجارية : ولكن لا يبيعونني حتى يشترطوا ولائي . فرفضت عائشة . ولما علم النبي بذلك غضب وجاء الى عائشة يقول : اشتريها واعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا .

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة ؟ ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه . اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فتسحقها لأذل في عين الله ممن لا يعرفون الله ، واحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الانسان .

الفصل الرابع عشر

خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين – والامر شورى بينهم – اصلاح ذات البين – حسن نية الادريسي – تمييز الحدود بين الحجاز وعسير واليمن – بريطانيا العظمى – المداخلة الاجنبية – الخطوة الاولى الى الوحدة – كتاب الى وزير الخارجية – الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة – توحيد النظام العسكري والسياسة الخارجية – التلغرافات اللاسلكية – العهود القومية – صندوق التوفير من مال الزكاة – لماذا لم يوقع الملك حسين على المعاهدة

ودعت الحديدة بعد تلك الحادثة التي دونت في الفصل السابق . بل ودعت تهامة آسفاً لما كان من ختام رحلتي فيها . على انه لو حدثت قبل سفري الى جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اظنني كنت فزت بما ابغيه من عقد معاهدة بين السيد والملك . وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل هذه المآثم التي تقترف تحت عين الحكومة ، تثير السخط والغيظ ، وتضعف فوق ذلك العزم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرانها . ولا عمران وربك مع نخاسة ، ولا رقي مع رقيق .

بيد ان لنا في من يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املاً بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها . اقرب السبل الى ذلك انما هو العزم في الحكومة ،والوجدان في السادة والاعيان . ثم اتفاق بين الملوك والامراء الحاكين على المؤازرة في مقاومتها ومحقها . ولكنت سعيت في اضافة بند في هذا الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به . فعسى ان ما فاتني لا يفوت غيري ممن سيقتفون الاثر ويسعون في انجاح العمل ان شاء الله .

قبل سفري من الحديدة ارسلت المعاهدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله

حيا الله مولاي الملك بالخير والسعادة . اما بعد قد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي فعسى ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتكم . والان ، وقد عدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها وتم الاتفاق عليها .

ان في سيادة السيد الادريسي قلباً كبيراً ، وله نظر في الامور غالباً ثاقب ، وعنده لجلالتكم من الاخلاص ما لا غبار عليه . من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة سهلة . . . . . .[1] وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيد لمعاهدة كان النظر فيهما سابقاً مع السيد السقاف . فاضفنا بعض ما جاء فيهما الى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته . ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة وما جاء في المادة الرابعة ابتداء بـ « وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما امكن من الاصلاح » الى حد « بمجرد الاعتداء والبغي » وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداء بـ « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى اخرها . وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العداء ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التعهد من جلالتكم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يتم بينكم « تمييز حدود معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك . فاني اعتقد ان لحضرة الامام يحيي رغبة بالتسوية ايضاً اللهم اذا جئناه من باب يأمن اليه . وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتكم الان . اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو الا الاساس للعمل .

---

(١) راجع الحديث في الفصل العاشر صفحة ٣٢٦

بقي مسألة اخرى . كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانيا العظمى وحاجة امراء العرب الى موالاتها وصداقتها . فبحثت وسيادته في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمن في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تخل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولاء والاعتماد من الامور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الامام واخر من السيد السنوسي . فعسى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . لست ارى يا مولاي غير هذه الطريقة الى تحقيق امالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاقين . وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولاء بين الاقران والاكفاء ، يتبعها ان شاء الله خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الامر ذوي الاراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا اشك انكم ستسعون ، وسيكلل سعيكم بالنجاح ، في اصلاح ذات البين بين السيد الادريسي والامام يحيى ، كما انه سيسعى هو في الاصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً . ايدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبت الى صاحب الاقبال وزير الخارجية صديقي الشيخ فؤاد الخطيب ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد .

السلام عليك ، عسى ان تكون بخير ، وان يكون وصلك كتابي السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين . وها انا ذا اكتب اليك الآن بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها . وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها علمي واخلاصي . لا بد من الصراحة في الامر . ان الاتفاق بين امراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية . والاتفاق لا يكون الا اذا تنازل كل امير عن بعض اشيائه . انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن نبغيها والامراء الذين حدثتهم يبغونها . ولكنهم حراص على استقلالهم ، وهم يخشون نفوذاً يظنونه سرى اليكم وتمكن منكم . قد ازلت هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك . اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك ، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية الاميركية بعدن .

بقي ان اقول هذه الكلمة . لا تطالبوا الآن بتوحيد العلَم ، وتوحيد النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الخارجية . لا . . ولا بالاعتراف بان جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر . وقد يفسد ما هو الزم في البداءة . ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي السياسي ، ولا بد ان تصلوا اليها وتصعدوها . الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه . عليك اذن وعلى الامير زيد ان تمعنا النظر في المسئلة وتبذلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبته اليه .

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا

اعتبرناه مقدمةً لخطير الاعمال . ومن الزم الاشيا. التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية . فقد تباحثت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقوموا بنفقات آلة تُركب في جيزان او في صبيا . اني افضل صبيا . وستبحثون ملياً في الامر عندما تؤمون جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكلترا فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، راغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فمتى تمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم تتوفقون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص بادخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشاآت العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا عمل بها بداءة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان. واني رسول هذه الفكرة ابثها في ديوان كل امير و كل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا استقلال العرب ومفتاحه اذا كانوا يفقهون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلاً في مد سكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائيين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشترون ما يحتاجون من مواد وادوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الان خيراً ونفعاً للجميع ، وقعوها اذن . وفقكم الله واطال بقاءكم . صديقكم المخلص

......

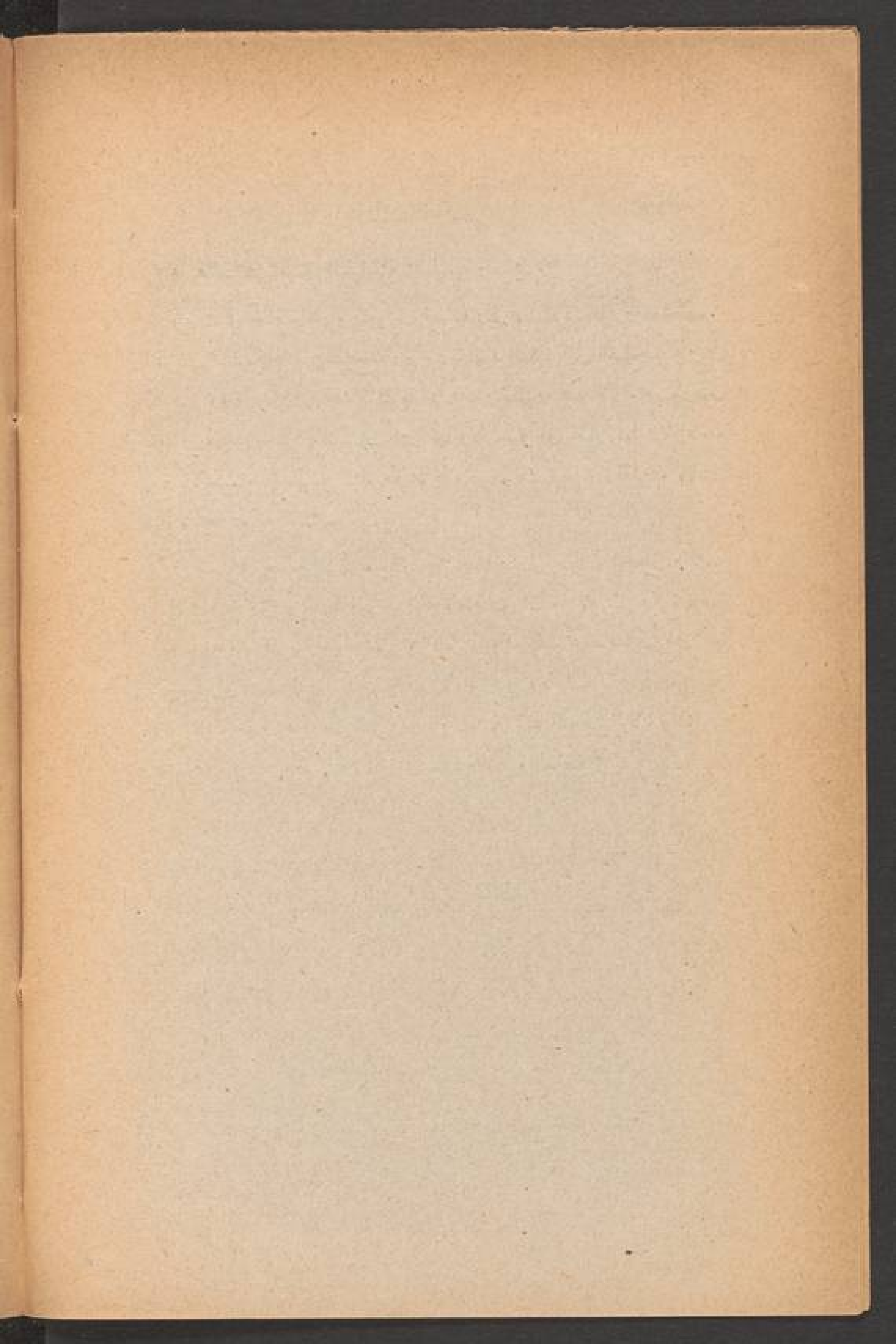
ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير .

رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصلحتهم ، وبتقريب الانكليز من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون ويتفقون ، فأبى حضرته لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن وعسير في البداءة ولو بخيط من حرير ، لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منها ولا اظنه استحسنها لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بان جلالة الملك حسين هو ملك العرب[1] . ولكنهما مدا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها . من هو حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟ .

انتهى القسم الثالث

(١) كان مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابسن : كل شيء او لا شيء . وقد كانت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية : لا شيء – الا الغم له ولآله ولكل مريديه . اني متيقن – واظن ان كل من له شيء من العلم في الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين – انه لو وقع الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤ . راجع تاريخ نجد الحديث : صفحات ٣٠٦ – ٣١٧ .





سمو السلطان عبد الكريم فضل

سلطان لحج

القسم الرابع

لحج

والنواحي التسع المحمية

لحج

والنواحي التسع المحمية

سنة ١٩٢٢م ١٣٤٠ هـ

•

حدودها : جنوباً ساحل البحر العربي من باب المندب الى بَلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي . شرقاً حضرموت . غرباً البحر الاحمر . شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيي . وقد قلقلت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية .

مساحتها : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع .

سكانها : نحو ثلاثمئة الف نفس .

اهم قبائلها : العَبادِلة واليَوافع وآل فضل والعوالق والحواشب والصُبَيحة .

اهم بلدانها : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي . ولحج وأبين وأنصاب ومُسيمير وحُبان .

مذاهبها : السنة ، شوافع وحنفيون . الشيعة ، جعفريون واسماعيليون وزيديون . وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى . وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام .

الفصل الاول

الثالوث المادي في عدن

المبدأ المرن في السياسة الانكليزية – درجات المرونة في البلاد العربية – ربقة تكسر وربقة تخنق وربقة لا تضر – المعاهدات والمشاهرات والتدخلات – « انت تبغي الاستقلال ' انت مستقل ' ونحن ندفع لك المال لتحافظ على استقلالك » – النياشين ومدافع الترحيب – بعثة افرنسية تزور عدن سنة ١٧٠٩ – عدن كما شاهدها السير لاروك – عدن اليوم – شعوب واديان – التواهي اي القسم الاوربي – الثالوث المادي – البرق والنور والبخار – الاستعمار والاستثمار – الاوروبيون اعداء بعضهم لبعض – الدفاع عن عدن – المبدأ التجاري في الدفاع – المال ارخص من الرجال – من هو الكاسب من يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية . لا تكن قاسياً فتكسر . ولكننا نظلم الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدؤهم في البلدان التي يحكمونها خارج الجزائر البريطانية . اما في البلاد العربية فلا ريب ان المرونة هي غالباً روح سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في الاقل مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذ الى مجاريها الملتوية المائعة .

ان من ينعم النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافيـة والسياسية والدينية ، وفي تشتت امورها واختلاف نزعاتها ، يرى بعض الحكمة في خطة سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعتريها شيء من الضعف . مدها ، مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء ، رقيقة لطيفة . مطها من الكويت فتصل الى ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن فتصل الى الجوف ، فتداعب اطرافها الوهابية وتتعلق بانامل ابن سعود . مطها من الحديدة فتنعقد في صبيا ، ومن جده فتلتوي وتدق ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة . ولكل مطة خطة ، ولكل يد تمط اسلوب خاص بصاحبها في اللين ربقات لكل الرؤوس ،

والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الاعتماد بعدن من الربقات السياسية . هذه ربقة تسر ، وهذه ربقة تخنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ، توجبها احوال اليمن الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . وكيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبسه وفرش بيته واخلاقه وتهذيبه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهمه من الامر غير الحكم والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، في المشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين او يسافر منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم وبمصلحة بريطانيا العظمى . نعم ، ما من امير او سلطان او شيخ قبيلة الا يبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات وبهدية كل عام . هذه لعمري بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون الامير العربي : انت تبغي الاستقلال . انت مستقل . نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغي الا ما تبغيه وهذا عهد الولاء والحماية . ولكن في هذا العهد الربقة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان او الامير ان يتعاهد وأحد زملائه او ان يبيع او يؤجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد

امراء العرب او الاجانب او يمنح امتيازاً دون ان يستشير ويستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق ولا شك[1] وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك . فالانكليز وهم سادة عدن ونواحيها لا يبغون غيرهم من الاوربيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآية ، فيحمي العربُ الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل المشاهرات . ومنهم « اصدقاؤنا المخلصون المحبون » الذين حازوا من ملك انكلترا وامبراطور الهند لقباً[2] او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديعاً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي التسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق .

---

(١) كانت سياسة حاكم عدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة : فرّق تسد . لان الحكومة او بالحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تمده بما يحتاج من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانيا » .

« وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع الثلمة بين القبائل » . هذا ما كتبته ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه « ملوك العرب صفحة ٦٥ »

(٢) النياشين الانكليزية التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق الادنى والاوسط تنحصر برتبتين K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India

وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة ستراها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من املاك الدولة العثمانية اسماً وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قبل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدن بمجدها والاساكل البحرية بتجارتها . فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة افرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ، يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة[1] . فعرّفنا هذا الاجنبي بعدن العربية في ذاك الزمان ، وبحاكمها الكريم الاخلاق الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات

اقام الافرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح اليوم . قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل عدن الشرق الصميم ، الرقيق الجانب ، الكريم الخلق ، العزيز الشأن . والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذاك الزمان . رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين ارميا ينثر الاشعار في ندب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة يا عدن ؟ واين قصورك تفوق قصور ابن ذي جَدَن ؟ واين حماماتك الجميلة المرصوفة بانواع الرخام ، المزدانة ببقية من عمد الاصنام ؟ واين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء ؟ واين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك ؟ بل اين تلك اللغة اليوم من رطانات وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليها ؟ بل اين تلك الروح روح قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذاك المظهر

(١) Voyage dans l'Arabie Heureuse par La Roque.

الشريف النقي مظهر الوحدة القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية .

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا اريد بالتوحيد الديني فقط بل اللغة ايضاً والجنس . اما الوحدة الجنسية فكان قد تخللها شيء من خليط الهنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان احتلها الانكليز . كان البنيان[1] في عدن يوم جاءتها البعثة الافرنسية ، والمسيو لاروك يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصيارفة فيها . وكان العربي اليماني الزيدي يكرمهم ويتخذ له منهم الاخدان ، ويحسن اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب .

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيد . مدينة عمومية لا اوربية ولا شرقية ولا عربية . مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز استعداد وتوزيع مهم في البحر العربي ، ومن الوجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك المستودع الثالث للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند . اما المستودعان الاول والثاني ففي جبل طارق والسويس .

ان المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب اي المعسكر . في الاولى وهي على الشاطئ دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم البركان ، او ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب

---

(١) بنيا في لغتهم صاحب حانوت والبنيان فيفيو الهند كثيرو الاسفار والاتجار .

الارض والاديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والفارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُنيا الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحبُ صاحبِ الزمان ، واليهودي مسبح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون امواتهم ومن يحرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي ام هندية ام اوروبية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات . قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدناً لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبنيان . اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه الثقة ، ويعززه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحري لا يهمه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن الانكليزية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها الثكنات وقسماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحماء يكلل قننها حصون قديمة مهجورة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الاثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء.[1] تلك الاسداد المبنية

---

(1) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فمن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسمائة سنة قبل المسيح . ومما لا يختلف في امرها انها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ وانها تسع ثمانين مليون جالون من الماء .

في مضيق متحدر بين جبلين ، بناء متيناً محكماً ، محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلئ في السد تحته ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة اسداد الى الخزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا تمتلئ لقلة الامطار الا او مرتين في كل بضع سنين .

وفي النواهي اي عدن السياسة دائرة اشتغال هي اهم من كل ما ذكر هناك . بين تلك الربى المكللة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بواسطة الانفاق ، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب او بالسياسة . رابية عامرة نيرة منيرة ، بيوتها كلها حديثة بناء وهندسة ، ومهنة سكانها اهم من المهن الوضعية كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيها المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها . واليها ومنها تمتد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استراليا والفيليبين ، من افريقيا واوروبا ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسلاك العلم والعمل ، فتهمهم وتطن في اعماق البحار ، وتبرق تحت الماء على صدر اليبس ، ونورها كامن في السلك ، والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في الحديد . هي انباء العالم ، انباء التجارة والسياسة والاجتماع ، يحملها البرق تحت الامواج فتصل الى عدن ، تلك الربوة المهمة فيها ، الى مركز البرق هناك ، ثم تتوزع منه كما تتموج اليه امواجاً . فتربط الامم الشرقية بالغربية ، وتقضي على المسافات في المعاملات والمراسلات ، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الرابية شرقاً وجنوباً ، والنصف الآخر غرباً وشمالاً . وهذا السلك هو حياة الاتصال بين الشرق والغرب ، بل هو حياة التجارة واحد اركان المدنية والعمران .

لا شك ان في العالم دوائر برق اكبر من تلك التي في عدن . ولكن

ليس في العالم على ما اظن اهم منها . اقطع ذاك السلك ، اوقف العمل على تلك الزاوية ، اسكت المئة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم واستبدادها في المسافات ، وتمسي قارات العالم القديم كلها ، آسيا واوروبا وافريقيا واستراليا ، وكل منها في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول او البخار .

اجل ان شركة التلغراف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران . وهناك في تلك الاهرام والركام ، على شاطيء البحر يد سوداء ولكنها في العمران بيضاء ، هي يد الفحم والبخار . وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينير الميناء ليلاً ويديم حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة . هوذا ثالوث عدن المادي . عرش البرق على هذه الزاوية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطيء فوق ركام الفحم العالية . ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريها باطناً الشرقيون . وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجارة والبحارة فيها ! ايطفأ نور تلك المنارة ، منارة عدن ، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر . لتقفل ابواب شركات الفحم فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، وتنقطع اذ ذاك آخر صلة حديثة بين القارات كلها .

ها هنا اذن في اسلاك البرق وفي اسباب البخار اهمية هذه الزاوية الجنوبية من البلاد العربية . ومعلوم ان اساس الاثنين العلم والاجتهاد . وسياج الاثنين الامن والنظام . أيستطيع سلطان لحج او امام صنعاء ان يوجد الامن والنظام ويوطدهما في عدن ؟ أو يستطيع اذا فوض اليه امرهما ان يحافظ عليهما ؟ لا اظن ان احداً من ابنا. العرب مهما صفت وطنيته وكبرت همته يجيب اليوم بالايجاب . أو يستطيع العالم اليوم شرقاً وغرباً ان يستغني عن البرق والبخار ؟ لا اظن ان رجلاً عاقلاً يجيب بالايجاب . وهل يريد الشرق ان يستقل كل

الاستقلال فيقطع الصلات كلها بينه وبين الغرب ؟ لا اظن ان احداً من الشرقيين مهما غالى بالوطنية يجيب بالايجاب .

لا بد اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يد تديرها وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم انكليزية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهمنا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان في ذرة من اليقين ان الامام يحيي يستطيع ان يقوم مقام الانكليز لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليه . اني آسف ان الروح العربية تقلصت في عدن واضمحلت ، وانه ليحزنني ويحزنك ايها القارىء العربي العزيز ، وقد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان نراها في يد الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الاكبر .

لنعدل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا . ان عدناً محطة في طريق العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . مهما استأثر الانكليز اذن فهم ولا ريب مقيمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر ما يشاهده السائح في اليوم الاول من اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم . نبغي منهم الانصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني . نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم — المحافظة على شيء من الروح العربية — مدارس تعلم الناشئة لغتهم وآداب بلادهم — ماء يصلح للشرب[1] . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون

---

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح يجر من بئر في شيخ عثمان ويوزع ببراميل تجرها الجمال . والطرق وهي دائماً في حاجة الى الاصلاح

سنة وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرش الاسواق .

قلت الانصاف ، وهاك مثالاً واحداً من آفاته . في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والنقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع من فروع مصرف الهند — الانكليزي — المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة ويضعف اسبابها . قد شكا كثيرون منهم الامر الى القناصل على مصرفاً اميركياً او افرنسياً او ايطالياً يفتح له فرعاً هناك بواسطتهم فيخفف بالمناظرة استبداد مصرف الهند واستئثاره . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، ولحكومة عدن ولا ريب يد فيها .

اني لا ارى عذراً لمثل هذا الاستئثار الذي يعد صغارة في الاستعمار . بيد ان من العدل ألاّ افرد الانكليز بالذنب واخصصهم دون سواهم بالتثريب . فالافرنسيون في جيبوتي مثلاً والايطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزياً او ايطالياً في جيبوتي فكيف بصرف غير افرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً افرنسياً او انكليزياً في مصوع فكيف بصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستئثار والاحتكار ، لمن اول اسباب الانحطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحماً ، اذا كنت تضن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل ؟ وباي حق والحال هذه تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لك ايها الاخ الاوروبي في ما اقول . قد يطيعك الشرقي ويخدمك ، ويكون لك جاسوساً على اخيه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول الملوم . عد الى نفسك

والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال .
هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ٢٦٣

ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغي لك ولابن الشرق خيراً في بلاده مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المنصفين من الامتين . كأني اسمعك تقول: جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمرناها وليس لغيرنا الحق ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب وهي الروح التي تفسد على الشرقي اهم مظاهر الحكم الغربي اي الادارة والنظام. فحبذا الحكمة في اطماعهم تلطفها ، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة. لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون . ولكني اخشى والله على الاوروبيين من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على المدنية الاوروبية كلها ، بجذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودي اذن قبل ان تأزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد بالآخر ومنه .

قلت ان الامن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان الانكليز قد بذلوا في سبيلها شيئاً من القوة جسيماً مقروناً بمثله من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس في الامم الاوروبية اكرم منهم فيها واسبق منهم اليها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلاءهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والاجحاف والخداع . لا ينكر ان الامن والنظام من الامور الجوهرية الاساسية ولا تقتصر اهميتها على الانكليز وحدهم بل على العالم اجمع . ولكن الاسباب اذا اكتشفت تشين ، والسبل اذا ادركت تستثير كوامن الوجد والغضب . من المشهور عن الانكليز انهم في سبيل

مقاصدهم كرماء ، ولكنهم ايضاً حكماء . اذا بذلوا المال يعدون ما توفر عليهم من الرجال . واذا دفعوا المشاهرات يتقاضون بدلها الارادات .

قد علموا عند احتلالهم عدن بانه يجب لحمايتها جيش كبير يقيم فيها . ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الخطة التي تقدم الكلام عليها . ثم عندما استلمت الحكومة البريطانية زمام الامور في الهند ، واستخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن، رأت انها تحتاج الى قوات بحرية وبرية تقيم فيها دائماً . وقد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع يصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من الجهات الثلاث اي من الشرق والغرب والشمال ، ويحاربون كالقرود ، ويعتصمون بالجبال . فاتخذت لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وباشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة . فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من الغدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العُمُد على البحر . ثم اقامت في هذه المنطقة الانكليزية الاستحكامات العسكرية ، ونقلت اليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها ، من الصُبَيحة والحواشب واليوافع وغيرهم .

فما العمل اذن ؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن الف ليرة في الاقل يومياً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيها دائماً عشرة الاف جندي . وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظننا ها درعاً منيعاً الف ليرة اخرى . ولكني اقف عند حد في النفقات لا يتجاوز نصف هذه القيمة ، اي الف ليرة كل يوم ، وافترض ان الحكومة الانكليزية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهم فتدخلها في منطقة الاحتلال . ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتتضاعف النفقات ، لتدفع عن هذه المقاطعات غارات

عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً وشمالاً . النتيجة : اننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والاخطار . فالولاء اذن خير من العداء . على ان لا بد لنا من قوة نرهب بها اولا من نبغي ولاءه . فاذا كسرنا هذا الامير، ونكلنا بذاك الشيخ، ثم صافحنا ووالينا وبذلنا المال مشاهرات، كان لنا من الصداقة والاذعان ما نريد .

وكذلك كان . مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكلترا بكثير من المال والرجال . حاربت القبائل ثم عاهدت امراءهم واحداً واحداً . ضربتهم ، وفرقتهم ، واقامت الحدود بينهم ، ورفعتهم الى مقام السلاطين، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية . وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الثاني . في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات او سلطنات . فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روبية كل شهر وهي اكبر المشاهرات ، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج ، وان في كل امارة زعماء ، رجالَ الامير او اعداءه ، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة، فيبلغ ما تدفعه عن ولاء الامراء التسعة ورجالهم سبعة او ثمانية الاف روبية كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية[1] . فلو دفعت هذه القيمة يومياً لا شهرياً لتوفر عليها ضعفاها او في الاقل مثلها كل يوم . واذا فرضنا ان في الافتراضين، اي حساب الجيش وحساب الامراء، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها . ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير ولا تحل . عشرون الف جندي للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين . هذه هي النسبة الاساسية .

---

(١) راجع لائحة المشاهرات في اخر هذا الجزء .

مَن الكاسب اذن ؟ أمَن يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

انها من الانكليز سياسة العزم ، تتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال. وهم لا مراء تجار لا يبارون ، كما انهم ساسة محنكون . فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو . انها ، اذا اعتبرنا مصلحة انكترا اولاً ثم العالم الذي تهمه محطة المواصلات البرقية والبحارية ، لصفقة غانمة . اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الاسف والغم لانهم الخاسرون في كل حال ، الخاسرون وان تضاعفت الاموال .

الفصل الثاني

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية – انكلترا تدافع عن الدولة العلية – خوفها من محمد علي باشا – معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ – اخراج ابرهيم باشا من سوريا ومن اليمن – شركة الهند مستودع للفحم – عــدن – احتلالها سنة ١٨٣٩ – معاهدة الانكليز مع سلطان لحج – بنودها – المبدأ المرن – « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذه عنك » – توسيع حدود عدن – كيف اشتروا الشيخ عثمان – طريقة لا يحتلها الانكليز في بلادهم – والشيخ عثمان لا تكفي – توسيع المنطقة المحتلة – كيد وقيد ومشاهرة .

لا يزال اولو العلم يذكرون ، برغم عاديات الحرب الكبرى وذاريات مؤتمر لوزان ، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبا والشرق الادنى التي تعثر في اذيالها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأفسدت في ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة الى ما افادت به من الشرف والوجدان . الا وهي المسئلة الشرقية . ولا يزال اولو العلم والانصاف يذكرون كذلك ، برغم انقلابات كان للدهر فيها اليد الكبرى – قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجال والامم – وبرغم صيحات الهند التي اختلطت فيها اصوات « الخلافة » باصوات الـ « صوارَج »[1] وبرغم تهاليل في انقرة والاستانة ، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر الديك « الغالي » فيها الاسد البريطاني ، ان انكلترا في مقدمة الدول واحياناً وحدها كانت تدافع داعماً عن سلامة الدولة العثمانية . ولم يكن دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف والمدفع والاموال . بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله .

---

(١) صوارج Swaraj كلمة هندية يراد بها الحكم الذاتي المستقل او ما يدعى في انكلترا Home Rule

ليس القصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسئلة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل عُقدها مؤتمر لوزان . وانما قصدي ان اعود بالقارىء الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة تتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقية ، وبدفاع بريطانيا العظمى عن الدولة العثمانية .

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة والانكليز في تلك الايام ان محمد علي باشا بواسطة ابنه ابرهيم كان قد استولى على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن . فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح . ورأت انكلترا ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم مع مصالحها ، لاسيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامتشقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحاب ابرهيم باشا من اليمن .

ثم عقد مؤتمر لندن فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسا وانكلترا ، أعيدت بموجبها سوريا الى الدولة العلية وأثبت محمد علي في ولاية مصر . ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذاك المؤتمر السياسة الافرنسية التي كانت تخشى مقاصد الانكليز الخفية . لم تكن تلك المقاصد يومئذ غيرها اليوم ، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث . فيا قد انفتحت طريق البر من مصر الى سوريا ، فالعراق ، فالهند .

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر . وقد كانت انكلترا في تلك الايام ، ايام البخار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر او البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للفحم لتموين البواخر في طريقها الى الهند ومنها . فرأى رجال الشركة الهندية الشرقية

ان عدن اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق قلاعها العلم البريطاني . وكان ابرهيم باشا وهو في تهامة يبغيها كذلك ويخابر سلطان لحج بخصوصها . اوجس الانكليز خوفاً من ابرهيم فاقترنت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين واتحدوا سياسةً عليه .

كتب رئيس الوزارة الانكليزية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا سنة ١٧٣٨ يقول ان لا حق له في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده منها . ثم عقد معاهدة مع الدولة تخول الانكليز الاتجار في الممالك العثمانية ، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء . على انهم كانوا يبغونها مستودعاً للفحم كما قلت . وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، اين هي عدن ؟ وراء ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد الفي ميل عن الاستانة ، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها .

منح السلطان عبد المجيد الفرمان . ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان الفرمان وحده لا يكفي . فينبغي للاحتلال حادث يتذرعون به . كانت المراكب الانكليزية تمر في تلك الايام بعدن للمتاجرة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب ونهبوه ، فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس[1] على مركب حربي في ثلاثمئة من الجنود يطلب التعويض ، فجاء الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان لحج ، الذي كان مقيماً فيها ، فابى سموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان العربي غيظاً . ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك٢ سنة ١٨٣٩ فامر السلطان الحامية

(١) Captain Stafford Haines راجع الشرح في صفحة ٣٧٦

بالدفاع ، فحدث بينها وبين الانكليز قتال لم يدم طويلاً . سلم العرب ، ولكن سلطان لحج في ازدرائه الخط الهمايوني ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانهة ، كانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة الف روبية .

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى التواهي ولم تكن يومئذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها الستمائة نفساً . وظل السلطان مقيماً فيها مدة قصيرة فقط اذ قلما يقوم الى جنب السلطة الانكليزية سلطة اخرى وطنية او اجنبية ، فتراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانيا العظمى ، فحدث قتال ثان كان للانكليز رغبة فيه — يقول عرب عدن : كاد الانكليز كيدهم المعروف — فانتصروا على العبادلة اي قبيلة السلطان واخرجوهم من التواهي واستولوا على عدن استيلاء تاماً . منذ ذاك الحين لم يأذنوا لسلاطينهم ان يكون لهم في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

اولاً : ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .

ثانياً : ان تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالاً تاماً .

ثالثاً : ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين »

رابعاً : ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .

خامساً : ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من الاجانب)[1] .

---

(١) قد تدرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة اعم ، فصار الامير العربي المستقل في

سادساً: ان يكون له راية خاصة وجند وحق بمنح الالقاب والرتب .

سابعاً : ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما دونها بما فيه بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة لحج .

ثامناً : ان لا يجوز لاجنبي التملك في لحج او الدخول اليها بدون اذن من السلطان تعطيه الحكومة البريطانية .

الخط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ايها القارىء . ان فيها مثالاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز : بدون اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحال ، لانهم يتحاشون ان يمسوا كرامة السلطان . فطلوا البند ليبرر السيادتين ويرضي الفريقين . انت يا صاحب السمو صاحب الامر . ولكننا نحن خدامك نتولى امره ، نتوكل عنك في اعطاء الاذن . وهو للان كذلك . اذا وصل السائح الى عدن وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة والثاني ان يطلب الاذن رسمياً من دار الاعتماد . فاذا كان هناك من مانع يعلمون سموه بذلك ويرفضون الاذن عنه . والا فيمنحونه ويحددون وقته وصلاحيته ، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم فيها غير ايام معدودة .

اشرنا في الفصل السابق الى صعوبة الدفاع عن عدن اذا كانت وحدها البلدة المحتلة ما لم تخصصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات فيضطرون اذ ذاك الى مكان تقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فسعوا في توسيع الحدود . ولكنهم اكتفوا ببضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ عثمان ، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قالوا : نشتريها ، فقال : لا .

نظرهم كالامير الاجنبي ، فلا يحق لامير آخر عربي ان يعقد معه معاهدة دون ان يستشير ويستأذن حكومة « جلالة الملك » .

قالوا : هي لازمة ، فلم يكترث .

فلجأت اذ ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحللها الحكومة البريطانية في بلادها . كان للسلطان شقيق يحب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا العبدلي يد في ادارة امور السلطنة ، معززة بثقة اخيه . فتقرب الانكليز منه وتم سنة ١٨٨٢ الاتفاق بينهم وبينه سراً على التنازل عن الشيخ عثمان في مقابلة مبلغ قدره عشرون الف ريال ، اي اربعون الف روبية ، اي الفان وخمسمئة ذهب انكليزي . فأمضى صك البيع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فاعتبره الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه حقوقه في الاسرة المالكة . ولكن ذلك لم يؤثر في خطة الانكليز وسياستهم . دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيها حامية قوية لم يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان يقاوموها . ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعاً ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين لحج وبين الحكومة المحتلة .

ومنذ ذاك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الامير .

اما الشيخ عثمان فقد اصبحت بلدة عامرة بالعساكر الهندية والحانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات . وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنياء عدن ، وجنينة حيوانات سكانها غزال وقنفذ وسعدان .

الفصل الثالث

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج – اصل العبادلة – السلطان محسن بن فضل العبدلي – المعاهدة بينه وبين الانكليز – السلطان فضل بن علي بن محسن – اركان الملك الاربعة – السلطان احمد بن فضل – القات وامام صنعاء على الاتراك – المفاوضات السرية بينه وبين الادريسي – الملك حسين نصير الاتراك – السلطان احمد اول من سعى في سبيل الوحدة العربية – سفره الى مصر – الزراعة في لحج – السلطان علي بن محسن بن فضل – ابن عمه المحسن المصلح محسن بن فضل – السلطان الحالي – تحسين علائق مع الانكليز – المفاوضات بخصوص معاهدة جديدة – مطامع العبادلة في النواحي التسع – طريقة الوراثة وتدخل الانكليز – المقال وانتخاب السلطان.

في سنة ١٧٠٩، عندما جاءت البعثة الافرنسية الى اليمن، كان حاكم عدن مستقلاً عن امام صنعاء. وبعد ست وعشرين سنة من ذاك الحين استولى على عدن اول سلطان من سلاطين لحج. كان هذا الرجل قائداً من قواد الزيود، طامعاً بالسيادة والمجد، متساهلاً على ما يظهر في الامور الدينية. اقامه امام صنعاء عاملاً على اليمن الاسفل فتوسع بالاجازة الامامية واقام نفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً، بل اقام نفسه سلطاناً. وبما ان عرب البلاد التي استولى عليها من الشوافع، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه، نبذ من اجلهم وفي سبيل مطامعه مذهب اجداده، واتخذ للمذهب الشافعي سراطاً الى النجاح قويماً. هو مؤسس سلطنة لحج.

ثم خلفه في الحكم امراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة، وبحبهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة وموضوع اهتمام سلاطينها. والعبادلة من اليمن الاعلى، زيديو الاصل كما تبين يمتون بنسبهم الى عرب حمدان.

من سلاطين لحج اربعة مشهورون، اولهم محسن بن فضل الذي احتل

الانكليز عدن في عهده . وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعية الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطان محسن عند ما ادرك مطامع الانكليز الذين كانوا يبحثون في تلك الايام عن مكان في البحر العربي يصلح مستودعاً للفحم . ولكنه غُلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد واياهم معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق . ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا نرى لهما غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولهما : ان لا يحق للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى لحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من الانكليز او من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها .

قبل الانكليز في البداءة بهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع الحدود الشرعية شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك الكلمة الاعتمادية ، فقالوا : لا يحق لاجنبي ان يدخل الى لحج بدون اذن سلطانها والاذن يطلب من دار الاعتماد بعدن . وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب .

كان السلطان محسن غيوراً على استقلاله ، تواقاً الى السيادة الواسعة النطاق ، محسناً الى العشائر ، محباً للعلم والعلماء . ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً مع مقاصد الانكليز . غلبوه اولاً وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا النواحي وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها ، فدارت عليه الدوائر وكان هو من الظاعنين . اخرجوه من عدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذٍ بيت فيها . ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه كلهم .

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوىء الانكليز ولا همّه ظاهراً امرهم ،

بل ولى وجهه الشمال والغرب فسعى ان يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها. هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي. وقد كان باسلاً مقداماً حكيماً، يقرن البطش باصالة الرأي، ويرى، وهو امي، ان لا عز للملك بغير الثروة، ولا ثروة بغير الزراعة، ولا زراعة بغير الامن والعدل. فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً. امتشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها، فاستولى على الحواشب، ومكن نفوذ العبادلة في العشائر، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم ولكنهم غلبوه بسياسة اللين، بالقاعدة المرنة، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين، فاستحكمت بعدئذٍ العلائق بينه وبين عدن والمُسَيمِير.[1] حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلا حكيماً، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية تتعلق بالزراعة، وبادارة الاوقاف، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض.

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن ابن عم السلطان الحالي وقرين سلفه السلطان محسن في الذكاء وحب العلم والعلماء، فقد كان اشد حنكة ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثلهم كريماً احترمه الانكليز ظاهراً وتمددوا في معاملته ما كان من خلقه اي التكتم والمواربة.

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام يحيى صلة ولاء ادت الى اتفاق سري بينهما، من شأنه مقاومة الترك والنزعة التركية في اليمن. ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوئته الاتراك، بل مد يد الولاء والعون الى السيد الادريسي فكان سراً عضداً له في عسير، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذٍ امير مكة دعوة للانضمام اليهم، او الكف

(١) المسيمير هي عاصمة سلطنة الحواشب.

في الاقل عن مساعدة الاتراك على امام صبيا وجيزان[١]

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها . ولكنه ، بعد ان ارسل منشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب ، لانه تغير في سياسته وفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيراً سريعاً مدهشاً .

كلما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدئه وجهاده . فقد كان الامام يحيي عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كانه لم يسع سراً وجهراً في تقويض السيادة التركية في البلاد العربية . وقد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، وعاد من القاهرة يحمل وساماً من اوسمة الدولة ، ويحمل ايضاً غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوسمة ، فصك منها باسمه وشرع يمنحها الناس من عرب

---

(١) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدّداً بمؤامرة تركية شريفية زيدية . فسعى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي فلم يفز بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فانجده بحملة يقودها نجلاه الاميران عبدالله وفيصل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسعى في سبيل الصلح بينها وبين الامام يحيي . ولكن سياسة السلطان احمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجمرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا ريبة في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذا همة قعساء ، وذكاء ودهاء . هو السلطان الزراع السياسي ، محب الابهة والاشجار الغريبة . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومىء الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً تقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهتم لادارة الملك فاتكل في ذلك على ابن عمه محسن فضل شقيق السلطان الحالي .

كان السلطان محسن[1] اديباً ذكي الفؤاد ، عصرياً في ارائه واعماله ، محباً للاصلاح والعمران ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت العزم والارادة . فباشر في ايامه القصيرة اصلاحات كثيرة في الجندية والمالية والمعارف ، ولكن الاقدار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب المدنة عن اثنين وثلاثين ربيعاً . ان مثله من امراء العرب شديدي النزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق امالهم الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب . وقد وقف السلطان محسن ثروته كلها على انشاء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فتأسست المدرسة وسيتم قريباً بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي .

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروبية . اما ملامحه العربية فمثل اخلاقه

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلاطين ، وهم يدعون السلطان الاكبر « الوالد المالك والسلطان المعان » .

وحديثه لا غبار عليها . هو نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، مستطيل الوجه ، دقيق الانف ، غائر العين ، في الخامسة والاربعين من العمر . لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما قاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان . وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعياً هادئاً سلمياً في مقاومته وتقويضه . ولا عجب اذا كان من مساعيه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها من خلفه .

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطموحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه . فهو والحق يقال اقرب الى الادب والزراعة منه الى السياسة والادارة . له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحيان العزف على البيانو . وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصاً بتاريخ العرب والاسلام . وهو مثل السلطان احمد شغف بالزراعة يقضي ساعات من يومه في بساتينه . لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة . وقد يتخلل عزمه ، وهو عصبي المزاج ، فترات يسيء الناس فهم اسبابها ونتائجها .

ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحرية الفكرية في الناس . اما علاقته مع الانكليز فالمداراة اظهر ما فيها . على ان له في دار الاعتماد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولو الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية .

ان في لحج على صغرها نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم ادبياً ومعنوياً وفي بعضها سياسياً ايضاً . فان ام السلطان عبدالكريم من اليوافع ، وبينه وبين العوالق ولاء وثيق العرى ، وله على الصُبيحة والحواشب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما .

اما الامارة في لحج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية . لذلك تقدم السلطان عبدالكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل .

ولكن الانتخاب اي المبايعة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم العقال[1] اي حكام البلدان الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الاسرة المالكة . ولا شك ان هذه الطريقة تفتح ابواباً واسعة لتدخل الانكليز في شؤون البلاد وسياستها فيولون عليها من الموالين لهم مَن يشاؤون .

اما ولي العهد فهو يُنتخب في عهد السلطان الحاكم فيصبح منذ ذاك الحين مقيداً بالسياستين ، سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة المعتمد وارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائرة مثل الاولى . هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها . لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها انتفاعاً يضر بمن هم اصحابهم وحلفاؤهم واصحاب البلاد التي احتلوها .

حبذا لو ساعدوا اذن في تغيير هذه الطريقة فيكتسبوا حب الناشئة العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او نفوذ فهو يضر بالانكليز اليوم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة البليغة الرائعة التي يجب ان تتدبرها اليوم وزارة المستعمرات بلندن او دائرة الشرق الاوسط في تلك الوزارة هي هذه : كلما قل تدخل بريطانيا العظمى في شؤون الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزها لديهم . وكلما تقلص نفوذ الانكليز في داخل البلاد ازداد في السواحل . او بالاحرى كلما امتنعوا ، حكمةً ونزاهة ، عن مد يدهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود . ولا اظنهم يبغون اكثر من ذلك .

---

(١) حاكم الولاية او ما يماثلها يدعى في اليمن عاملاً وفي نجد اميراً وفي هذه النواحي عاقلاً .

الفصل الرابع

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد – ضربها واحتلالها – احتجاج الامام يحيى – زحف الاتراك على عدن – الجنود الانكليزية تتقدم الى الشيخ عثمان – تأخير النجدة الانكليزية – الامير لواء علي سعيد باشا يفاوض سلطان لحج – وقعة الدُكيم – تدمير لحج – وصول النجدة الانكليزية في الليل – اطلاق النار خطأ على السلطان ورجاله – الاسرة المالكة في عدن – لحج وعدن تتهادنان وتتسالمان – تركي كريم النجار – وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المندب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت في تلك الحرب الضروس السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر[1] قريباً منها

---

(١) قد اغضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه . فكتب اليه الكرنل جاكوب المعاون الاول يومئذ في دار الاعتماد يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاءهم قريباً عن تلك الناحية يثبت ما يقول . – ملوك العرب لجاكوب صفحة ١٥٩

في رحمى مدافع البواخر الحربية ، فتقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة تربه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، فعادوا اذ ذاك الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماوية الى لحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة الانكليزية فيها قد احتاطت للامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين اخرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش وصلت مع ذلك الى محجتها في ذاك اليوم ونازلت الاتراك خارج لحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على الانكليز ، فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها ، وظلت شرذمات منهم في أم العُمُد والوَهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منها فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد ان انجدتهم عشائر العرب التي استنجدوها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من لحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمة عن نكبة لحج وعما حل بالاسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانيا العظمى . فجئت اروي الخبر كله كما سمعته وتثبته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثون طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوريين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا الجركسي الذي سعى ان يضيف اليه قوة من العربان . كان سعيد باشا كريم الاخلاق جواداً ، فاحبه العرب وانضم الى جيشه بضعة الاف من الحواشب واليوافع والصبيحة[1] فعول اذ ذاك على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانكليز هناك . وبما ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة بعث الى سلطانها يستأذنه بالمرور ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه . فابى السلطان علي لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . ما اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبلجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش سعيد باشا من ماوية وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاورة فانجدوه ، وخرجوا وهم بضعة الاف يلاقون الاتراك وهم ضعفاهم عدداً واضعافهم عدة . فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهزم اللحجيون . ولذلك اسباب ثلاثة — اولاً : لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . ثانياً : لم يكونوا على شيء من النظام . ثالثاً : لم تجئهم النجدة من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير القيظ وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهندية عصوا يومئذ ضباطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاد ثم انهزموا .

---

(١) وقد كتب الى الامام يحيى يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام طلبه كما تقدم . بل ان الامام ، كما قال سعيد باشا عندما سلم الى الانكليز ، كان يعارض رايه في الزحف على عدن .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي واسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم، فاضطروا ان يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تخترقها القنابل ، فبادروا في الغسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين، فالتقوا بالسلطان واسرته تحت جنح الظلام، فظنوهم من كشافة العدو ، فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي برصاصة في رجله ، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك[1]

دخل الاتراك الى لحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر الى عدن من سلم من الاسرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف السلطان عبدالكريم السلطان علياً كان من اول اعماله انه احتج احتجاجاً شديداً على حكومة الانكليز لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين اجداده ، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .

اقام السلطان والاسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يتمتعون بها وبخيراتها . حتى اصبح هؤلاء في غنى عن الامداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن . بل كانوا بعد ان استقر امرهم في لحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان يُستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط يسمعون ولا شك بويلات تلك الايام واهوالها ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات .

---

(١) « اننا في اعمالنا مسؤولون عن وفاة السلطان علي المباشرة » . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب ، صفحة ١٦٧

فلما امن الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا لحج للاتراك . ولما امن الاتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . قنع كل بما ملكت يده ، وكللت القناعة بكرم الاخلاق .

اجل ، بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وتملأ الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلان المعروف والاحسان وكان للقائد الجركسي سعيد باشا الفضل الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون يذكرونه اليوم بالفخر والاعجاب .

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لان الاهالي والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون ، فازدهت بالاخضرار والثمار تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعي وادي دُبن . اما عدن وهي في فم البركان فلا ترى فيها ولا في جوارها ورقة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : — هذه بقولاتنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين : وهذا الارز والسكر لكم منها ما تبغون . وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : ليحي الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، او بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج ، قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

الفصل الخامس

التمدن الحديث في لحج

اثر من الاثار في تاريخ البخار — بين عدن ولحج — وفد المرحبين — ملابس اللحجيين الزاهية — سمو السلطان — روعة الاستقبال — صحيح البخاري والفونوغراف — وزير السلطان السيد علوي الجفري يفوه بكلمة — المستر كروس قنصل اميركا يلقي خطاباً يفوه بعشرين كلمة وكلمة — سلطان متمدن — الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الاميركي — مائدة السلطان — غرفة « البليارد » — في البساتين مع شاعر وسلطان — اشجار لحج — شاعر لحج وفيلسوفها — ولي العهد الصامت — المدرسة الفضلية — المدافع والالقاب — عرب الحجور — خناجر لحج — البخاري والمسواك وعائشة — البخاري وصندوق الزجاج — ثالوث الحرية في لحج .

كتبت بعد وصولي الى عدن كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبد الكريم فضل ارغب اليه في التشرف بزيارته . وكتبت بواسطة قنصل اميركا الى دار الاعتماد استأذن بذلك . فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن اخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقنا .

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق وعرباته قديمة ، جيء به من الهند ، وقاطرته اثر من الاثار في تاريخ البخار . فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح هناك مستخرج منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها . ومنها الى دار الامبراي الحدود بين عدن ولحج ، ثم صُبر ، فجلاجل ، فنوبة الهراني ، فالحوطة . وكلها ما عدا العاصمة ودار الامير اسماء لاكواخ من القش واللبن يتخللها شيء من شجر الأسل واميال من القفر الذي تهب فيه رياح البادية وهي تحمل السموم والموت من الربع الخالي . ويمتد خط الحديد من الحوطة الى مكان يبعد ستة اميال عنها يدعى الحُداد .

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتزناها بساعتين - حتى البخار يستشرق في الشرق - ووصلنا الى العاصمة بخير وسلامة، فرحب بنا في المحطة ولي العهد واخو السلطان وغيرهما من القصر ، وهم في ملابس تدهشك منها لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم شكلها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . ما ذكرني اللحجي في فوطته المخططة التي تصل الى الركبة وعمامته الطويلة الذؤابة بغير الاسكتلندي اذا لبس ثوب عشيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش.

ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيه السلطان المالك عبد الكريم ، الا ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيته اول مرة في بنطالون ابيض ضيق حول الساق ، وفوقه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ، الا انه من الحرير الازرق المخطط ، يشطره زنار وافر مشدود الى وسط نحيل ، وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي - هي الموضة ، عند اعيان لحج - وطي اضلعه ما يناقض كل ذلك اي روحٌ عصريةٌ حتى الكفر . سنعود الى السلطان احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر فخف الى استقبالنا عند الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فوق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يُلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ - كأنه من بيت الصلاة عند المسيحيين - وتلطفه السُجُف البيضاء المخرمة كأنها من قصر انكليزي . ان في هذه القاعة مجلسين افرنجياً وعربياً ، فرش الاول غربيُّ الشكل الا انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلةُ الفونغراف ،

وفرش الثاني دواوين عربية تُقطِّعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذاك السفر الجليل المدهش ، الفريد في بابه ، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرحُ شرحِ الشرح . ولا يجوز ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسطلاني على صحيح البخاري ، والخزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الخزرجي . .

— وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس C. M. Cross قنصل اميركا في عدن .

فرحب سموه به واجلسنا ، اكراماً له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الافرنج . ثم تعطف فاحلنا كلنا محل الاهل والاحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف وتقربنا من البخاري .

— كان قنصل اميركا السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين . ولكم ما كان له عندنا من الحب والاكرام قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان فسررت بالقنصل لانه قليل الكلام . شكر سموه وسكت . فاستلمت اطراف الحديث شاكراً ، ونثرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظاهر سياحتنا ، فاوقفتني عند هذا الحد كلمةٌ من السيد علوي شوقت الي حديثه . وهو لطيف الابتسامة ، براق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جليسه من مجرد النظر اليه . ولكني عرفت انه الوزير الاكبر وانه اهل لذا المقام العالي لانه مثل القنصل الاميركي قال كلمته وسكت .

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها .

فاضاف السلطان عبدالكريم الى ذلك كلمةً اخرى لطيفة : وسيزيدنا الاستاذ معرفة ان شاء الله . زيارة مثله لا تنقضي في جلسة واحدة . ثم سألنا عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطنطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ،

ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر. ثم مال سموه الى القنصل فقال: يجب ان تغض النظر يا حضرة القنصل. ليس عندنا ما يليق بكم ويشرفنا في نظر الامة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا.

ترجمت الى اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيها جميل التواضع واللطف فادهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لا فض فوه: سأنقل كلام سموكم الى حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية.

هنأته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه. ومن ادرى باخواني الاميركيين مني؟ فقد كنت اخشى منه سكوتاً يسيء او كلمة توجب الشرح والتفسير. وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في ما يفعل اكثر منه في ما يقول.

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى، الى المجلس العربي قائلاً: هذا بيتكم. ربنا انتم تعبون. وراح تتبعه حاشيته الى داخل القصر. فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء يأبى الكتمان.

— سلطان عربي في ثياب هندية افرنجية.

— سلطان كريم حكيم.

وقال المستر كروس: سلطان متمدن.

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة. هذه مجلة عربية من مصر، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاستانة، وهذه في ألواح الفونوغراف اغانٍ مصرية واناشيد انكليزية، وهوذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي تسمعكه جوقة لحج العسكرية! سررنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجمل آيات الترحيب والاكرام. والحق يقال ان ما من احد

يزور لحج الا ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، وكتبه . انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور لحج ، وتجد حتى في ازالة الضرورة الطريقتين الشرقية والغربية .

نمنا في الاسرة ضمن الكلل ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوعت الوانها ، فكأن الطاهي شرقي خدم في مطبخ نزل اوروبي، وشربنا التنبك في المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام واللي [١] وركبنا السيارة يصحبنا ولي العهد واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد نشرف على بساتينها الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة « البليادرو » وفيها طاولة انكليزية كبيرة اعدت عليها ذكرى ايام كنت بهذه اللعبة هائماً مبرزاً .

اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرها في قصور الامراء وفي البساتين ، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين . اجل ، انك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العَنْب الهندي . ولكن الزراعة،على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها، لا تزال في طور النشؤ . مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكان اول ما اوقف النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وثمود . فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمال ان لم تكن اقل : ان ارض لحج صالحة للآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي دُبن تحتاج الى هذه الآبار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض اذ ذاك مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا النقص في اسباب الزراعة واحيائها ، فان ارض لحج خصبة

---

(١) المداعه الارجيلة واللي النربيش .

جداً . ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلاً منه في البساتين اذا بني سدّ في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُبَنْ تصب مياهه في الصيف فيسقي الارض المزروعة كلها .

— اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَنْبَ ناتجاً عن امرين عدم التلقيح وقلة الماء .

— ولكن عمبنا في لحج على صغره اطيب من عمب الهند .

والعمب اي Mango والجنا. Papaya من الاشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة . مشينا في ظلالها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين .

— هذا السَمُر الذي يذكره الشعراء .

فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا   لدى سَمُرات الحي ناقف حنظل

ومنه الشوكي العربي واللاشوكي الهندي .

— وهذه شجرة تعطي قطناً افخر من القطن ودود الحرير نسميها شجرة « القطن الحريري » . هي تشابه في طولها ونحولها شجر الحور .

— وهذا العُشَر الذي يستخرجون منه البارود .

فقال الامير صالح : وكان عود الكبريت عند الاقدمين .

وهذا الأَسَل صديق الابل .

قلت : وهو شبيه السَلَم .

فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بذي سَلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للنشر ، انما هو السلطان احمد فضل . قال لي ذات ليلة طال فيها السمر وما ذوى غصنه :

—وما التعصب وما المذاهب كلها ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان . لو كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم ها هنا لا ها هنا « واشار الى رأسه ثم الى قلبه » نعم ، ان العقل — وانت يا حضرة الاستاذ ادرى بما قاله شاعر العرب الكبير ابو العلاء المعري — ان العقل مصباح الحقيقة . والحقيقة اساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً . اما القلب فغالباً ضال ، والعواطف مضلة . هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه ان النيل يقيه البرد . والظن يصبح بالممارسة عقيدة . والعقيدة يثبتها الوهم . والوهم منشأ العواطف والتصور . انا جربت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع عني البرد . ولو حكّم كل امرىء عقله في الامور لبان الضلالُ في كثير منها مثل النيل ، ولما رأيتَ هؤلاء الجهال المتنيلين عندنا . وستراهم ، سترى خيرات « كثيراً » منهم غداً عند الزيود . قد قيل لي ان الزيود ينيلون اجسامهم وثيابهم حداداً على الحسين . لا يزالون الى اليوم يحدّون على الحسين ! والاجدر بنا يا استاذ ان نحدّ على العقل في بلادنا وعلى العلم .

اما السلطان احمد وهو الجندي الفيلسوف ، حاد المزاج ، شديد اللهجة والبأس ، فيجد في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل الينا ضمة من الورد فينعش النفس منا ، كما كانت الوان ملابسه تنعش البصر ، وكما كان حديثه ينعش العقل والامال وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان نزيل القاهرة . وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى ، فيحسن العزف على كثير من آلات الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسمعتنا النشيد الاميركي . ولكن مهنه

المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان، فهو مثل اخيه مُزارع كبير يحب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدنية الغربية فهو على شديد نزعته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة؟ اذا كانت قيمتي في هذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكهربائي في لحج . وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتاً لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدنية واللحجية ، الانكليزية والعبدلية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلاً الى مدرسة في سوريا او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .

— ولكننا سنحضر الى لحج ان شاء الله اساتذة من مصر وسوريا يعلمون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنئه بعيد الاضحى . وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما القوه من القصائد والخطب قديمة الاسلوب عقيمة المعنى . اما كتب التدريس التي امر المعلمين بان يطلعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة . فاستبشرت بذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان لحج زاوية اليمن المباركة ، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن . هذا اذا اتم ما يقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سوريا او من مصر .

وجدنا الانكليز عوناً له في هذا السبيل . حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة . ليتهم يهتمون بالتعليم ربع اهتمامهم بالسياسة وبكل ما يعزز جانبهم فيها . فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونه اكراماً كبيراً . ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه في ١٩ ك١ سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعاً . وفي سنة ١٩٠٣ منحت سموه لقب ورتبة « فارس في كوكب الهند » . وهم في رسائلهم يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقدوة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السير عبدالكريم فضل بن علي العبدلي كي . سي . آي . اي . « K. C. I. E. »[1] وهو يبادلهم هذا الاكرام والتبجيل فيرده اليهم كلمة كلمة . لو تُرجمت « عمدة الامراء الكرام وقدوة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي تتقدم اسم موظف انكليزي ، لكانت تفكه وزارة المستعمرات . ولكنها تظل مخزونة في رؤوس الكتاب والمترجمين في دار الاعتماد .

اما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها . فهم يُخاطبون سلطانهم بقولهم : السلطان المُعان او الوالد المالك . واهالي لحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العُزَيبي واهل البان واهل سلام . وفيهم الحُجور من ناحية في حضرموت تدعى حجر قرب مكلاّ ، سمرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً . هؤلاء الحجور[2] يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة . في الحقول تجدهم وفي القصور ، يحرثون ويخدمون ويحسنون العمل .

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٧٦

(٢) جمع حجري

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساعداً من اللحجي ، على ان وجه هذا ادق ملامح من ذاك ، وفيه من سيماء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط الباسل . اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة . وقلما تجد لحجيا ايا كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج . ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين . ما رأيت في كل من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسمرتهم الى السواد مَن هو اشد بأساً ، وارهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب. انه مع ذلك لتقي .

كنت وسمو السلطان في احد بساتينه خارج المدينة فرأيت الحجري يحرث الارض ، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد . عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء ، فأذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب . ان ذلك لجميل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله ليذكر الله لأجمل .

بيد أن بعد ساعة رأيت الوجه الثاني من ذا الجمال . عند رجوعنا ذاك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحيح البخاري وفتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح على الاحاديث النبوية في المسواك . أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة ، فخلتني اقرأ مذكرات احدى الخواتين الافرنسيات .

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي

في البخاري فقال : لو قرأته كله كنا نقرأه نحن في شهر رجب لكان حظك احسن . ثم قال : البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يجيئنا من اوروبا. صندوق كبير، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة، مدفونة ، في قنطار من القش . هذا هو البخاري !.

لست اذكر الآن اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة اللحجية . كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت لا يحب الظهور . وقلما يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطمئنان . كان من حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولابن اخيه عبدالغني الرافعي فضلاً عليّ ببعض المعلومات في الفصلين الثالث والرابع من هذا القسم من الكتاب .

الفصل السادس

النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية – المعاهدات الولائية – البندان او القيدان – دور الولاء والعطاء . ولا بأس بالعداء – دور الحماية . ولا بأس بالنكاية – « لنا يد على فلان في منصبه » – الصبيحة – آل فضل او الفضلي – العوالق – قوم لا دين لهم – الواحدي – عرب لا يعرفون القرآن ولا النبي – العوازل – اليوافع دولتان مستقلتان – سلطان اليوافع السفلى يبغي من الانكليز زيادة في المشاهرة وقلبا وتيشانا – سلطان اليوافع العليا لا يبغي من الانكليز غير البعد والهجران – العلوي – القطيبي – الحواشب – العقارب – اقدم السلطنات واصغرها – الضالع – سياسة الامام يحيى – الشيخ الاخرم يهتدي – الزيود يطلقون المدافع ترحيباً به – الامام يقتدي بالانكليز – الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء .

ان السياسة الانكليزية جسم حي يتعهده الساسة الانكليز بالتربية ويساعد في نموه الزمان . وانك لتتيقن ذلك في كل قضية مهمة ، خارجية كانت او داخلية ، اذا اطلعت على تاريخها . فقد اعربت في الفصل الاول من هذا القسم عن سياستهم في عدن وكيف نشأت وتطورت ، وازيد القارىء علماً في هذا الفصل الاخير ببعض جزئياتها .

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهوداً بسيطة تضمن لهم المدنة في الاقل ريثما تجيئهم النجدات . وتدعى هذه العهود عهود صداقة وولاء . اول من عاهدهم من العرب عشيرة العُزَيبي التي هي اليوم من عشائر لحج . والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز . فبعد ذكر اسماء الفريقين تقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والعزَيبي . نحن الان اصدقاء . ونتعهد بالسلم والولاء . قلوبنا وبغياتنا واحدة . الامان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرنا او اخذنا احداً من الانكليز فلا يؤذى المأسور او يهان .



في سنة ١٨٣٩ عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة : الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المعاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات الطويلة ، وفيها كلها تجد اليوم البند الاول المهم الذي يقيد الامير او السلطان او الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض او يراسل دولة اخرى ، او يعاهدها ، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة بريطانيا العظمى واجازتها .

والبند الثاني اهم من الاول :

لا يحق لفلان « الامير المعاهد » ان يبيع او يؤجر او يهب او يرهن شيئاً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية .

وفي بعض المعاهدات يُجمع البندان في بند واحد شامل وهو :

يتعهد فلان « الامير المعاهد » في مقابلة مساعدة مالية ان لا يتنازل عن شيء من ملكه لغير الانكليز ، وان يذعن لما توجبه السياسة الانكليزية ، وان لا يقبل مساعدات مالية او غير مالية من دولة اخرى .

واذا اخلّ باحد هذه البنود يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذاك الحين يخصون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداءة تتراوح بين العشرة ريالات والمئة ريالاً في السنة الى كل امير ، ثم نشأت تزداد مع السياسة والمصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روبية كل شهر . اما سلطان لحج ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فمشاهرته تزيد على الثلاثة الاف روبية . .

هذا دور الولاء والعطاء . ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحايين في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين

من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار . فيستمرون مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عداء احد المتخاصمين . يقيمون الحدود بين الفريقين ، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجي من لا يرضى بتدخلهم ظاناً نفسه مغبوناً ، فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح ، صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاتله ، ويستنصر عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال وبالرجال ايضاً ليعززوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم . فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصدهم السياسية الاولى . ولكنك تذكر ايها القارىء ما كتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتمد الانكليزي الاول في عدن[1] . هوذا الجسم السياسي الحي الذي يساعد في نموه الزمان .

—

انتقلنا من دور الولاء الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء صديقهم الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامة ملكه . قد تطول مدة النشوء كما في تاريخ اليوافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة وولاء ، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بموجبها تحت حمايتهم الا بعد خمس وستين سنة . وكأن النمو السياسي يوجب على الساسة اكثر ما يتعمدونه في البداءة ويومون اليه . فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح ذات البين بين امير وامير ، بل تجاوزوه الى التحزب السياسي الذي اشرت اليه في فصل سابق . خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من اسرته ينازعه الامارة » .

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٧٦

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات وسلطنات وبسطوا الحماية الانكليزية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجهة الجنوبية من اليمن الاسفل . وهاك اسماءها وبعض ما علمته من الثقات عنها .

الصبيحة

النقطة المركزية عدن. فاذا نظرنا غرباً منها نرى قسماً من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب . والصبيحة عشائر متعددة منها العَطيفي والجرنيمي يحكمها الشيوخ والعقال حكماً بدوياً . وهم مشهورون بالغزو والغدر ، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين الفاً . على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس لمشائخهم وعقالهم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة اشهر مرة او يرسلون اقاربهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمئة روبية ، وبعضهم يتناولها بواسطة سلطان لحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا امامنا مئة ميل من الارض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام العُمُد الى حدود العوالق العربية في المقاطن — والبلدتان على البحر — نحيط بتلك آل فضل ، الذين هم اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لسلطانهم عبدالقادر بن حسين الفضلي عسكراً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين

الفاً يحملون السلاح[1] اما عرب الفضلي فمن البدو ، وهم ذوو بأس ومروءة ، يسارعون الى النجدة ويرغبون دائماً في القتال . ويظهر ان السلطان عبدالقادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم متراخية في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربعمئة روبية ، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العوالق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيف شرقاً ومثلها شمالاً . وهي تقسم الى قسمين العوالق العليا والعوالق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العَولقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخٌ يعادل بل يفوق السلطان صالحاً قوة ونفوذاً ومركزه يشبوم . وهناك بلد اسمها العِرقة وميناء هو الحوزه يحكمها شيخان مستقلان الواحد عن الآخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ يشبوم وسلطان الأنصاب .

في العوالق العليا آثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولاء عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العوالق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولاء على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقيا الى بلاده .

---

(١) يتبع هذا الفصل لائحة في المشاهرات كلها وما يستطيع ان يحشده كل سلطان من المقاتلة وقد يكون الفرق شاسعاً بين عدد من يستطيعون حمل السلاح وعدد المسلحين .

ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ، بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية. وفيهم قبائل لا يعرفون الديانة الاسلامية ولم يسمعوا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات ابائهم ، ولا يصومون ولا يصلون . سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تهمك حياتك .

ان لسلطان العوالق السفلى الحالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المئة روبية. اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً . ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة الاف .

الواحدي

ثم جيران العوالق شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حبان وميناؤها المعروف بلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العوالق وامرائهم ، ينفرون من الانكليز ويحاولون التفلت من ربقة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين . والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حبان ، وهي بلدة قديمة ذات ماض موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ، لا تبعدان خمسين ميلاً عن العوالق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا يعرفون القرآن والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي السادة والاشراف مكانة عالية فيها . ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي فيأخذ منهم النذور، ويحكم بينهم، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

اذا عدنا من بلاد الواحدي غرباً فاجتزنا بلاد العوالق عند الخط الرابع عشر شمالًا من خط الاستواء. نصل الى الدُثينه بلاد العوازل البدو ، وهي في ملتقى الاودية الثلاثة رُقوح وذُرَى ومروان ، تربتها خصبة ، ورجالها اشداء. كانت الدثينة في الماضي عاصمة التمرد و « ديرة » العصيان ، فقد رفض العوازل الحماية الانكليزية ، وحاربوا الجنود الذين صعدوا من عدن اليهم فهزموهم وردوهم خاسرين . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبي لان جيرانهم العوالق اصدقاء الانكليز وانصارهم . قيل لي ان يوم خرجوا على السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجلوهم عنها بالسياط .

اليوافع

اذا واصلنا السير غرباً عند الخط الرابع عشر من العرض وقطعنا وادي الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء ، وهي بلاد خصبة فيها بضعة انهار واهلها موالون للانكليز . ثم ندخل في بلاد اليوافع وفيها كما يقال سبعون الف مقاتل وعدة « شيخات » مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى . هي مثل العوالق تقسم الى قسمين . اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم منذ سنة ١٨٣٩ اصدقاء الانكليز مخلصون لهم . ويظهر ان اليوافع ثابتون في العداء ثباتهم في الولاء . فقد كان بينهم وبين جيرانهم آل فضل عداء منذ ١٨٧٣ استمر عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العداء القديم او كادت . ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي ناقم على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من

الزيادة في المشاهرة. وهو يبغي فوق ذلك لقباً يصحبه نيشان ومدافع ترحيب مثل الزملاء والجيران .

اما سلطان اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يبغي منهم غير البعد والهجران . هؤلاء اليوافع مثل العبادلة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وتقدماً ، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند وبالجزائر في البحر الهندي . وبينهم وبين العبادلة نسب وقرابة . واهل اليوافع العليا يفاخرون اقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجنبي الى بلادنا . اما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات .

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحميين . فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنها كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بواسطة جارهم الى الغرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاء او الصداقة فلا تزال اسمية. وكذلك

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق . ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب الاعاشات ولكنهم ابوا الحماية ، ودار الاعتماد لا

تركن اليهم . اما شيخهم الحالي الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ بلاد القطيب والاجعود فقد قاوم الزيود عند ما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبغون الاستيلاء عليها كلها . ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى فخسره الانكليز . وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين . اما

الحواشب[1]

جيران القطيبي ولحج والصبيحة فهم والعزيبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويحاربون مع من « يملأ كفهم قروش »[2] عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسيمير .

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً لنختم هـذا الفصل يجب ان نعرّف القارىء باقدم السلطنات المستقلة واصغرها ، اي سليطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب فخذ من العبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عدداً ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم يجمعون شتاتهم وكلمتهم في بير احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحات ٩٧ الى ١٠٠

(٢) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلغتهم : « لا نا قبيلة حد ولا حد دولتي سلطاني من ملا كفي قروش »

جمعاء ، فيقيمون فيها مطمئنين . وما اشبههم بين الانكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لكسمبور قبل الحرب بين المانيا وفرنسا والبلجيك . ولكن الحرب قضت على لكسمبور ، ودمرت لحج ، فقربت من سليطنة بير احمد ولم تمسها بشيء من الضرر والويل .

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لأن الزيود كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها . ولا عجب اذا استعاد الامام يحيي هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيود بلاد القطيب والاجعود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ، فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون حبائل السياسة والاستيلاء شرقاً وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من وقع في حبالهم ، اول من اتبع الهدى .

دعاه الزيود الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيود من اجله ، اقتداء بحكومة عدن ، اربعة مدافع ترحيباً واكراماً ، فترنح الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ، فعينه الامام امير الجيش في القطيب والاجعود ، واختصه براتب شهري ، وبربع العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من

الذرة ، وبأربعمئة جندي من الزيود الاشاوس ليكتسح النواحي العاصية ويدخلها في طاعة الامام. ولم يكن الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير مئة روبية كل شهر . فهل يلام اذا ولى وجهه شطر صنعاء. وعاد الى قديم التبعة والولاء ؟

ان حضرة الامام ، اذا ثابر على هذه الخطة ، لمن الفائزين بما يبغيه من الانكليز . فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي هي عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء . وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاكرام ، فيرفع الى المناصب العالية المشايخ والعقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة . اي دهاة الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين ، باخواننا المسلمين ، ابناء اتباعنا الاقدمين .

لائحة

الرواتب الشهرية وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري روبية	ما يستطيع ان يحشده من الجنود		
٣٢٨٠	٢٠٠٠	السلطان عبدالكريم فضل بن علي سلطان لحج	
٣٦٠	١٠٠٠	» عبدالقادر بن حسين الفضلي سلطان شقره	
٢٥٠		» صالح بن عبدالله العولقي سلطان العوالق العليا	
٣٥٠	٣٠٠٠	الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ » »	
١٥٠		» محسن بن رويس » » » »	
١٦٠	١٠٠٠	السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان العوالق السفلى	
٢٠٠		السلطان محسن بن علي سلطان بني قاصد	
٨٠		» صالح بن عمر » » ضُبي	
٨٠		الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي	
١٠٠	٣٠٠٠	» ابو بكر علي شيخ الموسطه	بلاد يافع
٥٠		» محمد علي محسن » »	
٨٠		» عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي	
٤٠٠	١٠٠٠	السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب	
٣٠٠	١٠٠٠	الامير نصر بن شايف امير الضالع	
١٠٠	٥٠٠	الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطيب	
١٠٠	٥٠٠	» عبدالنبي العلوي » » صبيحة	
٦٠٦٠	١٣٠٠٠		

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً ، يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة وبعضهم كل سنة ، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روبية . وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصهم عدن بمشاهرات واكراميات صغيرة .

اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلّا في حضرموت فيستطيع ان يحشد الفي جندي ، ولكن مشاهرته اسمية ، وهي ستون روبية لا غير ، لان آل القُعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند .

(تم الجزء الاول)

فهرس الاعلام

ملاحظة

– تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقمين . مثلاً ١ – ٥ يعني ١ ٢ ٣ ٤ ٥ او ان هذه الكلمة وردت في اكثر الصفحات الواردة بين هذين الرقمين

– حرف الالف –

– حرف الباء –

— حرف التاء —

– حرف الجيم –

— حرف الحاء —

– حرف الخاء –

– حرف الدال –

— حرف الذال —

— حرف الراء —

— حرف الزاي —

— حرف السين —

– حرف الشين –

— حرف الصاد —

— حرف الضاد —

— حرف الطاء —

— حرف الظاء —

— حرف العين —

— حرف الغين —

— حرف الفاء —

— حرف القاف —

— حرف الكاف —

– حرف اللام –

– حرف الميم –

— حرف النون —

— حرف الهاء —

– حرف الواو –

– حرف الياء –